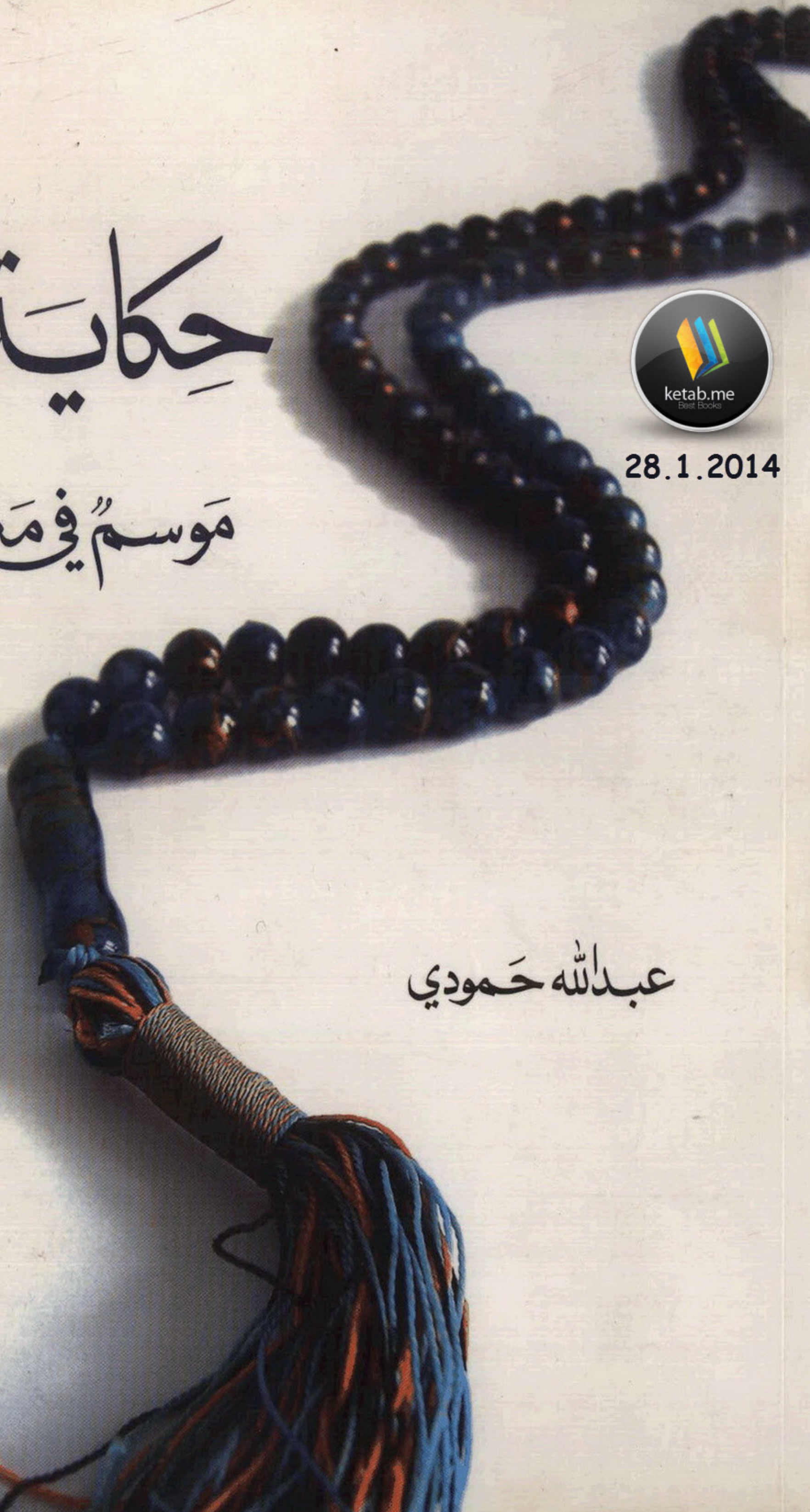
حِكايةُ حَجّ

مَوسمٌ في مكّة



عبدالله حمودي

دار الساقي

حكاية حج

موسم في مكة

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

خطوط العناوين: علي عاصي

عبدالله حمودي

حكاية حج

موسم في مكة

ترجمة

عبد الكبير الشرقاوي

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-552-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص. ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٣ ـ ٢٠٣٢
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ٩٦١١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ٩٦١١
e-mail: info@daralsaqi.com

المحتويات

الفصل الأول

رحيل وقطائع

لم تكن رحلتي إلى الأراضي المقدّسة أمراً بسيطاً. ليس بسبب الإعدادات المضجرة فحسب، بل أيضاً بسبب الأسابيع الطويلة المستنفدة في المساعي الضرورية لتأدية هذا الحجّ والتي زادتها تعقيداً إقامتي المزدوجة في الولايات المتحدة والمغرب.

لكن هذا ليس سوى النصيب المشترك بين كلّ الحجّاج الذين اختاروا الحج إلى مكة، في ظروف هذا الربيع من العام ١٤١٩ للهجرة، أي العام ١٩٩٩ الميلادي. ما يدهشني، بالمقابل، هو هذا الإحساس بقلق طارئ يكتسحني دون أن أعلم هل سيتعاظم أم سيتبدد. وبمرور الزمن، يكشف هذا القلق عن ديمومته ويلوّن حياتي برمّتها إلى حدّ أن صار هو مستقبلي.

وفعلاً بقدر ما كان يقترب موعد الحج، كنت أكتشف أنني لست أنا الذي أسير إليه، بل هو الذي يتقدّم نحوي، ويأتي لملاقاتي، ويلحق بي. القلق يتولد دون شك من هنا. كنت أطفو، تتقاذفني هذه التناقضات. من هو إذن هذا الرجل المرتهَن برحلة بهذه الخصوصية، هو الذي تجد حياته وأعماله دائماً معناها في موضع آخر تماماً؟ لم يعد الحجّ بالنسبة إليّ منذ وقت طويل علامة خلاص أو حياة بلغت مرفأ الأمان. هو بالطبع، مع الشهادة، والصلاة، والصوم، والزكاة، أحد أركان الإسلام الخمسة المفروضة وفقاً للوحي الذي يدعو إلى إحياء تعاليم إبراهيم (أبراهام الروايات اليهودية المسيحية): إسلام خالد يُستعاد بعد انحطاط طويل أثناء عهود ما قبل الإسلام. نطقتُ بالشهادة، وصلّيت وصُمت. كنت في فترة من حياتي أؤدّي الزكاة دائماً وأنا الآن أشدّ

الرحال إلى الحجّ. لكن كلّ هذا يستديم الآن في زمنية لم تعد تماماً هي زمنيتي، زمنية أكثر انتساباً إلى تقاليدي المرتبطة بالهويّة، أو بما اصطلح على تسميته «معتقدات وممارسات»، هي، اليوم، مواضيع للخطاب، سواء أكان خطابي أنا أم خطاب الآخرين.

بهذه الحال الذهنية، شرعت منذ سنة في تصوّر هذا المشروع. أريد مباشرته، كما قد فعلت ذلك من قبل بالنسبة إلى دراستي عن الأضحية، بهمّ نقل أدنى التفاصيل عما يُصنع فيه ويُقال وتمنيت أن تتيح لي هذه المرحلة الأولى فهم المعنى الذي يعطيه الحجّاج لأفعالهم وللنظام الذي ينبغي أن ينجزوها فيه. اعتقدت أنه يلزمني البحث عن الصلات التي لكلّ فعل مع الأفعال السابقة واللاحقة له. وأتوقع أن يأتي هذا العمل الأوّل برؤى نظرية جديدة على ضوء ما يقوله الحجّاج عن تجربتهم الخاصّة، متجاوزاً بذلك الوصف وحده.أعتقد أنني بذلك أستطيع فهم الدين من خلال أحد أشكاله الملموسة، وكذا الذين يمارسونه اليوم. وأعلم، بالتجربة، أنّني سأنجز هذا «الوصف الأوّل» باختلافي؛ هناك، كما في أعمالي السالفة عن الأضحية والمسخرة، أو عن طقوس السلطة والسلطة الطقوسية، سيكون عملي تخيّل حياة دينية في المستقبل، دين في طورِ مشروعٍ سألاحق آثاره في الماضي والحاضر. مرّة أخرى، أعلم أنّ دراستي ستكونَ بالغة الاختلاف عن أبحاث الأنثروبولوجيين القادمين من آفاق أخرى لدراسة التقليد الإسلامي.

غير أنّ هذه الخطط لم تكن قد توقعت المشاعر التي ما عاد بمقدوري الآن التملُّص منها: ذلك أنّه كلّما كان اقتراب هذه الرحلة يتّخذ مظهراً ملموساً، كان يظهر لي أنه يبيح، بل يُحرّر، بعض الكلمات. القلق والضيق اللذان أستشعرهما يعبران عن نفسيهما بصيغ لم تكن تستنفدهما. إنّهما يستحضران نفسيهما هكذا بانتظام إلى انتباهي وانتباه من حولي، مع الانطواء على سرّ دوامهما. وقد كانت يومياتي صدى لهذا:

«عدنا نحن الأربعة إلى برنستون، زوجتي، وابناي، وأنا، في الخامس من يناير ١٩٩٩، [قادمين من المغرب]. خطّتي هي أن أقضي بضعة أسابيع مع الأسرة، أن أطمئن الجميع قبل الرجوع إلى المغرب. لا نكفّ، أصدقائي

وأنا، عن الكلام عن حجّي، كثير من التلميحات، كثير من الدعابات أيضاً: «ستكون حاجّاً عظيماً»، تقول لي شاهناز، الزوجة التركية المسلمة لصديق أميركي، منظّر كبير للعلاقات الدولية ومناضل من أجل الحقوق السياسية والثقافية لأمم العالم الثالث. وكلّما اقتربت لحظة الرحلة تحدّدت بعض الأسئلة. أأنا في شفافية تامّة مع صديقي لحسن وفاضمة؟ يعلمان أنّني أكتب كتباً عن تجاربي ولا يطرحان عليّ أسئلة. يحدسان ربّما أنْ لا نيّة لي في تشويش الحجّ والكذب في مسعاي. أنا لديّ قناعات، لكن لا كالآخرين. أباشر الحجّ كما أباشر طقساً ينتمي إلى دين آخر. أنا لا أحتقر الأديان، أعتقدها كفيلة، في بعض الظروف، بإتاحة التعبير عن المعضلات الوجودية الكبرى وتيسير تقاربات على نطاق واسع. وكما هو الحال في الفنّ، ليس الاعتقاد بل خلق شكل محسوس (مرئي، مسموع، ملموس...) هو الذي يكشف المجيء، بالترداد (الصلاة، الدعاء، الشّعائر)، لصورة للذات ترتسم، وتتحدّد، وتتفتّح تدريجاً كما هي الحال في الرسم. صورة للذات لا توجد إلاّ لتمّحي أمام مجيء أيقونة أكثر تحقّقاً.

لا أدري إذن إن كانت رؤيتي للأشياء ستسمح لي بالاتحاد في الإيمان مع جمهور الحجّاج أو مع صديقيّ لحسن وفاضمة، ولو كانت دون شكّ تجعلني على صلة بأشكال الاستغراق في التقوى، المرئية على الأجساد والوجوه، المسموعة في الكلمات... ثمّ، ما معنى اتحاد المؤمنين في الإيمان؟ أهناك دليل على أنّ الاتحاد في الإيمان ينطوي على تطابق في التجارب والتوقعات؟

لكن لا بدّ لي من الاعتراف أنّ مشروعي ليس حافزه الخلاق. ذلك ربّما ما يجعلني في وضع ملتبس مع معظم الحجّاج. ومع ذلك يظلّ مشروعي مُساريّاً. فإذا جازفت بأن أكون ما أنا عليه اليوم، فقد يغيّرني هذا السفر، يدخل بي إلى حياة أكثر عسراً، ودراما أكثر قسوة تتمثّل في تبرير وجودي بما هو عابر. القلق الذي أستشعره من اقتراب الحجّ، حجّي أنا، لن يتبدّد إذن حقاً. قد يكون هذا هو الموضوع الأساسي لهذه الرحلة إلى أقاصي الليل».

إنّه على أيّ حال مسارٌ، وحتّى مقصد أخير، كما تدلّ على ذلك لفظة حجّ نفسها، على آثار أبطال مُؤسّسين أسماؤهم إبراهيم، وهاجر،

وإسماعيل، ومحمّد... لا يهمّ، بالنظر إلى الالتباسات الوجودية للذين يتهيّأون لهذه الرحلة، أن يكون الثلاثة قد عرفهم أم لم يعرفهم العرب قبل البعثة المحمّدية، وأنّ هاجر كان قد غيّبها التقليد الإسلامي طويلاً، في البداية. فهذه هي الأسماء التي يُنطق بها اليوم، وتُتلى، وتُنشَد وتبسط أصداءها العديدة والقويّة.

قرّرت لهذا السبب أن أكتبها، كيفما اتّفق، بالفرنسية، في تدوينها العادي. أسمعها في الأغلب باللهجة المغربية، وأفضّل هذه الانكسارات، والانزلاقات، والترجمات اللهجية كذلك. هجرات الأسماء، ومعاني الهجرة، غير الغريبة إطلاقاً عن التأسيس نفسه للإسلام، ولا عن اسم «هاجر» الآتي ليلحق، وفي ذات الآن، يسبق، مع إبراهيم وإسماعيل، اسم «الحج» في الرحلة الختامية التي يجب أن تتوّج كلّ حياة مسلمة.

رحلتنا ـ هذا واضح للجميع ـ لا بدّ أن تُختتم برجوع، لأنّ الفرض يقضي بوداع الكعبة ومغادرتها سريعاً والرجوع إلى الوطن. تلك أيضاً هجرة، تنضاف إلى أخرى، كلّها، وهذه، تستمرّ، في التذبذب والتوتّر، والذهاب والإياب، والمقصد المزدوج لهذه الحركة المتخلّلة بتوقفات، في صعودها نحو أصلٍ وضرورة البرهنة عليه برجوع. كأنّما ينبغي للمراحل اللاحقة استباق السابقة. فضاء متناقض للتبليغ: اسم «إسماعيل» يتلو «إبراهيم»، لكن أليس استباقاً لهذا الأخير باعتباره اسم الأب؟ ألم يكن «الأب» يتحدّد أيضاً، وفيما بعد، بواسطة «الابن»؟ وفوق ذلك، وفقاً للقصص التوراتي والقرآني، في علاقة مستحيلة بين امرأتين، إحداهما هاجر، الأمّ الأولى، أيّاً كان وضعها، التي صنعت من إبراهيم أباً. رحم إنجاب الابن والأب هذه تربط المسلمين باليهود، وبالأقباط عن طريق نسب مصري، ومن خلالهم، مع سارة وإسحق، توفّق بين مجموعات غزيرة ومتضمّنة. هذه الرحم المشتقّ منها اسم الرحمة، تتشعب بواسطة أبوّات ذات اتجاهات متعدّدة، مؤجلة ومع ذلك دامجة بواسطة الرحمة، التي هي أكثر صفات الله وروداً. إنّها تنجب ممكنات وانقلابات، وباختصار مسالك خاصّة للزمن والحكاية.

على أية حال، عشيّة هذه الرحلة، لم تتوقف الهموم عن الاصطراع مع

الاستبطان. كلما اقترب الموعد توضّحت المخاطر الجسدية: البرد، الحرّ... خصوصاً أخطار ضربة الشمس. تنتابني تشنّجات في الشمس وصلعي لا يُحسّن الأمور. صور الحجّاج المدهوسين ما تنفكّ تخيفني كذلك... لكن هنا أرحل بين القلق والاستسلام للمقدور. سافرت كثيراً: أوروبا، المكسيك، الولايات المتحدة، كندا، تونس، الجزيرة العربية، لبنان، مصر، سنغافورة، بابواسيا الجديدة، غينيا، اليابان... دون احتساب ذهابي وإيابي المستمريْن إلى المغرب منذ ١٩٦٠. في كلّ مرّة، طبعاً، كان القلق، لكن أيضاً ودائماً كثير من الإثارة. في يوغوسلافيا كنت أذهب لأكتشف تجربة التسيير الذاتي ضد الشيوعية الستالينية وأتلقى «تراث» الماركسيين غير التقليديين، لوكاش، أكسلوس، أصحاب مجلة براكسيس (التي كانت تصدر آنذاك في بلغراد بعدّة لغات). في بابواسيا، أوّل اتصال مع أناس وصفوا لزمن طويل في الأدب الإتنوغرافي ببدائيين كبار؛ في جزيرة العرب، استثارة وفضول عظيم لاكتشاف بلد يُشكل ما يشبه خلفية الإسلام كلّه. في مصر، كانت الرحلة إلى بلدي، ألتقي من جديد شذرات من ثقافتي؛ والأغاني المحبوبة في فجر الشباب والفنّ «الكلاسيكي» للموسيقيين والمغنين المصريين، المستوعبة في شغف أثناء أعوام الصبا والتعلّم في ثانوية مراكش...

الرحلة إلى مكّة ليست رحلة. إنها حجّ: تأدية فريضة. تبدأ قبل السفر، كجميع الأسفار، الاستثارة يهزمها القلق. لكنّني أعلم أنّ تأدية فريضة مع المسافة التي لديّ مع مدلولها الأخروي سيلزمني الخروج عن الأنا الذي أمضيت أعواماً في بنائه بثمن باهظ... بناء يرفض الخضوع الأعمى، والاضطهاد، والنبذ؛ ويطرح نفسه أيضاً بمثابة شرط لبلوغ معرفة بعينها.

منذ زمن سَلَف، أدركت أنه يلزمني أن أحتاط لدراستي احتياطات مضاعفة، لعلمي مدى خطورة اللغة. يلزمني إسقاط ذاتي، والعثور على المفاهيم الضمنية، وأثر خطواتي يُبين جغرافية عالم قبل قرار الرجوع عليه بالأعقاب. هذه العودة إلى الذات، وإلى أشكال رمزية ستنفتح بالضرورة على أسئلة يطرحها عليّ الموروث في الحاضر، كما على هذه الإنسانية المرغوبة في مستقبل يرهن في كلّ لحظة إنسانية بضمير الجمع، محلوماً بها ومُستبقة.

الرجوع على الأعقاب، يعني التلاقي وجهاً لوجه مع تردّداتي الخاصّة. أحدها أنّ ذهابي يشبه أكثر فأكثر إياباً. إياب حيث أسلك طريقاً أخرى، طريق خطواتي التي صارت آثاراً وألغازاً. في كلّ خطوة أرجع بدل أن أواصل المسير. لكن في رجوعي، إلى أين أسير؟ ما الذي دفعني إلى فعل هذا، بتوجّهي وجهة مكّة، أجهل ماذا سيكون مآل رحلتي. غير أني سرعان ما أدركت أنني أرحل نحو فضاءات كنت قد جئت منها، منبع للفضول والثقة والقلق معاً. أليس على خطى نبيّ الإسلام، وفي ما وراءه، على خطى إبراهيم، تسوقني هذه الرحلة؟ أو أيضاً على آثار تراث، تراثي، الذي يعلم إلى أين كان يقصد، ويمنح نفسه بداية ونهاية، ويحدّد هكذا حياتي تاريخاً في التاريخ إذ يمنحني مستقبلاً قد حدث سلفاً، متمجّداً بمثال الأنبياء؟ يبني الماضي في المستقبل أو، بعبارة أخرى، يبني المعرفة بالنموذج. هكذا يمنح التراث لحظة حقيقته التي هي كذلك لحظة تخطّيه. وهو، مثل كلّ لغات التأسيس، يكشف عن أشكال وجود متعثّرة تتقدّم نحو مستقبلها، غالباً لا تمييز، مستقبلي كما مستقبل الآخرين. بذلك كان ذاكرة في طور التكوين، ومجمعاً لكلّ الأسئلة، أأنا، دون أن أرغب كثيراً في معرفة ذلك، على عتبة وداع حاسم؟ المعنى ذاته للسؤال يفلت منّي.

في الانتظار، فإنّ لقباً، لقب الحاج، سينضاف إلى اسمي. هل سأعرف كيف أحمله؟ من هو ذاك الذي سأكسوه بأثواب بيضاء وأجعله بذلك في حال إحرام؟ ألن يكون ذلك سوى مجرّد شكل من الولاء؟ في اليوميات التي قرّرت تدوينها منذ بداية هذه التجربة، ترجمت انشغالاتي:

«هذا الولاء سيُترجم في المغرب سلفاً بـ«إعادة تلقين» للقرآن، والصلاة، والتلبية... والاستمرار هكذا مدى الحجّ كله، بل بعده. كيف مواجهة الالتباس؟ سيلزمني أن أحمل لقب الحاج عبد اللهّ لكن ألست أحيا مكتوماً منذ سنين؟ أهلي يعلمون جيّداً أنني لست مؤدّياً لفروضي الدينية، لا ألتزم الفرائض، ولا الأوامر المتّصلة بالطّعام والشراب. ذلك نوع من المرئيّ المكتوم. وفي العمق قلقي صادر عن تبخّرية هذا المكتوم المعلوم: وإذا قرّرت أمّة، أو شرطة، أو جماعة من المتشدّدين هتك حجابه السحري؟ القلق

صادر عن أنّني لم أحدّد بعد ما المسار الذي ينبغي لفعلي أن يسلكه في مثل هذا الوضع...»

القلق يصدر، أكثر ما يصدر دون شكّ، عن كلّ الانتهاكات المفترضة. هل سأقول وداعاً لـ«الالتباس»، وأواجهه لأخلّفه ورائي؟ هذا السؤال الذي يسكنني طرحه عليّ رجل من قرية إيمي انتسافت خمسة عشر عاماً من قبل: «وأنت، ماذا تصنع هنا؟ لماذا لست مع أهلك في يوم الأضحى هذا؟». في ذلك الوقت، أجبت أنّني ببساطة أراقب العيد في مناطق مختلفة. تقبّل الرجل جوابي راضياً واعتبرت نوعاً من التسامح أن يقبل بُعدي عن الممارسة الدينية. ما كان ممكناً لي أن أخطىء مدلول ملاحظته: إنها تُسائل هويتي الدينية وتحضّني باضطراب على الالتحاق به.

هذه الكلمات جاءت لتسكن الفضاء الذي لم يفتأ يُبعدني عن الدين منذ المراهقة. اكتفيت لزمن طويل بالثورة وتبديد الوهم. لكن سريعاً ما ظهرت المعضلة بين الحريّة التي أبحث عنها، والمحظورة عليّ، وبين تعلّقي بالمسلمين وبحضارتهم، بما في ذلك الدّين. نوع من تربيع الدائرة: أمن الممكن تأميل فصل هذه الأشكال عن العسف الذي تمارسه عليك؟ لو حصل الظنّ بالرباط السرّي بينها وبين الحرمان من الحريّة، كيف السبيل إلى الاستمرار في التعلق بها؟ هنا المفارقة: هذه الأشكال هي وحدها القريبة منّي حميمياً، وهي التي أريد امتلاكها؛ هي بيتي الحقيقي. لكن، على مجرى السنين، أحيا فيه في حال ضِيق يتزايد.

هذه المغادرة ليست مغادرة إيمان معيّن، كنت قد غادرته منذ زمن طويل، وبطريقة متميّزة بما يكفي في أعين الجميع. المغادرة الجديدة تكشّفت عن كونها أشدّ إيلاماً: هل سأبقى في المكتوم ـ المعلوم؟ لو بقيت فيه، سيكون على هذا «الأنا» أن يستمرّ في تحمّل المنفى الباطن، فيما الوهم المتضمَّن في مثل هذا الرأي القبلي سيبدو يوماً بعد يوم أشدّ وضوحاً. لا بالنظر إلى حقيقة من حقائق ذاتي، لكن بالأحرى لأنّ مثل هذا المنفى يسلب القيمة في نظري عن ذاتي. العيش منفياً في باطني يعني «تقديم الولاء». كان ذلك في النهاية أن أفرض على نفسي حياة عاجزة عن إنتاج تمثّلاتها الخاصّة. أليس ذلك هو

الحكم على نفسي بأن أحيا تراثي في الغيرية، وأن أتلقاه كشيء لم يعد بتاتاً إرادة خاصّة؟ اليس ذلك القبول باختيار مشؤوم بامتناعي عن نَعْي الماضي، وأن أخطر على نفسي أن أعشقه كشيء مفقود؟ حين أولّي ظهري على هذا النحو للاستئنافات، للزمن الضائع، فإنّني أرضى بوهم الكلية، أقبل أن أحيا التاريخ بحدّة ومع ذلك أن أتصوّره مجرّد تاريخ البقاء قيد الحياة. وذلك ضياع طريق الحقيقة، ضياع الطريق إلى حقيقة الذات.

لا مناص لي إذن من الرّحيل. من الواضح أنّ الحقيقة الأنثروبولوجية للحجّ قد زحزحتها إلى الخلف، بسهولة أدهشتني، حيرةُ المغادرة. كلّ النظريات التي أمضيت سنين في تعلّمها لم تكن تتلاشى، بل تحتفظ، بالتأكيد، بقيمة الجهد نحو معرفة بعينها. لكن هذه المعرفة، في نظري، تتراجع إلى مستوى ثان. ما عادت لي القوّة لأجعل منها هدفي الوحيد. ومنذئذ ما أرغب في البحث عنه، وبشغف، هو حقيقة قلق هذه المغادرة. ما أكثر المسائل التي لا تزال غير مفسَّرة. لذلك، ليس بمقدوري الإفادة من مشاركة عادية في هذا المشروع. فلا بدّ إذن من إضافة التصنّع إلى المكتوم ـ المعلوم. والملاذ الوحيد والضعيف يأتي من التعلّق بأشكال الحياة هذه من حيث هي أشكال. بهذا المعنى، أتصنّع شيئاً لم أكفّ قط عن الرغبة في امتلاكه. أعلم أنّني أبحث عن حقيقة ليست من نفس مستوى التفسيرات المقدّمة عن الدين. ومع ذلك، فهذه التفسيرات تنتهي بأن تشبه الأسس الوجودية التي يقدّمها الدين نفسه.

أبحث إذن عن حقيقة للدين بمقدورها أن تحمل حياتي. دأبت، وأنا أتهيّأ للحجّ إلى مكة، في تخيّل شيء قد أورده الإسلام أو ذكّر به قد امحى قليلاً قليلاً، لكن النسيان نفسه قد احتفظ بذكراه. صحراء تمتدّ حولي، مشمسة، دون أيّ علامة للمسافر الذي كنته سوى ظلّه الممدود. هذا الأفق الذي يرتسم ويغيب، أنحو نحوه باستمرار، من برنستون إلى المغرب أو في بقاعي المقدّسة المستشرفة من عهد طويل.

«برنستون، ٢ فبراير ١٩٩٩. موعد عودتي إلى المغرب يقترب. ارتياح: مغادرة برنستون. ألم: مغادرة زوجتي وأطفالي. هذا الإحساس المزدوج

سيوجعني دائماً طوال شطر من حياتي. لأنني سأبحث عن وسيلة لقضاء وقت أطول في المغرب. أحسّ نفسي كأنّني حبيس هنا. أفهم كلّ شيء، لكن لا شيء يكلّمني: لا هذا الحرم الجامعي الرائع والبارد، ولا زملائي، ولا الأشجار التي تكسو كلّ شيء، ولا هذا المجتمع المغالي في الانشداد إلى المنافسة والعنف. وهذا الاحتقار للعرب، فوق ذلك. استلاب: أحسّ نفسي أحيا في صورة أكثر ممّا أحيا في الأصل. إذن، مثل مُسَرْنَم، أحيا بين صورتين: صورة المغرب، وصورة أميركا هذه حيث هبطتُ بالمصادفة وبالضرورة [...] الارتياح، هذه المرّة، نسبي للغاية. يلزمني التهيّؤ للحج. هذا الصباح، قلت لزوجتي: «لا أدري كيف أتصرّف في لباس الإحرام هذا» (الإحرام، كلمة أتلفظ بها وأنا أفكّر في «الكفن»».

ما معنى إذن أن تحيا «في الأصل»؟ أيّ معنى لهذه الكلمة؟ بالمقابل، فإنّ انعزال الناس في اللاتواصل شيء حقيقي للغاية. انعزال أعرف أنّه انعزالي أنا. شيء في ذاتي ما عاد يرغب في الكلام. أمن الممكن أن أفقد القدرة أو الإرادة على التسمية؟ الأصيل، هو حقّاً الأصل، حين يصير قابلاً للتواصل، حين يفتح على ما يتعسّر حضوره إلى اللغة، أو ربّما على ما قد انسحب عنها. لا شكّ أنّ المعرفة قد عملت عملها في ضمور الحياة، في إرادة الحياة بالارتباط والانتساب. لقد خلقت «مسكناً زائفاً»، وأبقت سالمةً كلّ مساكن تراث متناس لحياته، ساهٍ عن إبداعاته نفيها، محافظ على كلّ اندفاعته للرحمة التي يعمل في الآن ذاته على نفيها... مغادرة هذا «المسكن الزائف» إذن، هي قبول الوجود دون مسكن، والتأهّب لاستقبال أبوّة جديدة، نوع من النسب يسير أبداً نحو أصله، طلب وخصاصٌ معاً. خالق ومُدَنّس حتماً للأعراف والدساتير. إنّه استئناف تاريخية الوجود لإعادة بسط إظهاره وفق الآثار المبدئية للغة. قبول السير نحو هذا الشرخ، لم يكن، كما يتردّد عادة، الخلوص إلى اعتباطية أو اصطناعية المؤسّسات، وإنّما الإحساس فيها بارتجاجات الإبداع حتى وهي تسير في طريق مسدود. أهذا هو ما سيقود تحسّسي وتفحّصي لـ«ديني»؟ ربّما، ولن يكون بمقدوري في هذه الحال تلافي التنائي عن أسلافي. ذلك سيعقّد مهمّتي جداً. كنت أدرك هذا جيّداً بقراءتي

من جديد، عشيّة المغادرة، ما قد كتبه مؤسّس جديد للأنثروبولوجيا حول علاقته بالبوذية:

«الأحد ١٤ فبراير ١٩٩٩. فقرة من المدارات الحزينة تعيدني إلى ذلك الضيق الذي أحسّه باقتراب المغادرة. ومن ثمّ، تتّخذ الدعابة والممازحات معاني غير متوقعة. الفقرة المقصودة هي تلك التي يصعد فيها الأنثروبولوجي ربوة موحلة، في برمانيا، لزيارة معبد بوذي. في «شتنبر» ١٩٥٠ قريباً من شيتّكونك. كان قد أقام في قرية بضعة أيّام على إيقاع الصّنج. داخل المعبد، كل شيء يبدو له «طبيعياً»، الاغتسال المعمول به في المدهل (سار حافياً في الوحل فكان الاغتسال مرحّباً به)، وبساطة المكان، وجوّ «الهري» السائد فيه، ولطف الكهنة، والعناية التي يولونها لتجميع أدوات العبادة...

لا يتردّد في إعلان تعاطفه مع المكان: هذا هو المعبد كما يحبّ أن يتصوّره. باسم حضارته، يقدّم التحيّة للبوذية. هنا يظهر خط الانفصال. إنّه في تعاطف مع هذا الدين، لكنّه ليس بوذياً، لم ينشأ في هذه الحضارة. الخطّ مزدوج: خطّ الحضارة، وخطّ مهنية الأنثروبولوجي. خطا الانفصال هذان يؤدّيان به إلى اتخاذ موقف ممّا سيفعله في المعبد. مرافقه يسهّل له الأمور: «ليس عليك أن تفعل ما أفعله أنا»، قال له ذلك قبل أن يسجد أربع مرّات أمام المذبح. يروي الزائر أنّه قد اتبع هذا النصح، بسبب الحشمة أكثر من أيّ شيء آخر. كان ربّما، لأنه لا يشارك مرافقه في معتقداته، سينزع القيمة عن الطقوس بسجوده المصطنع.

فكّرت كثيراً، وأنا أقرأ هذه الفقرة، في وضعيتي الخاصّة. مسلم، لكني مُسائل باستمرار أُسس الدين، فأنا أحافظ بحرص على أخلاقيته، التي أريد أن ألخّصها في التضامن والمشاركة، وفي القبول المعتدل بمتع الدنيا والجهد للتحرّر منها. غير أنّي لست أدري إن كان هذا يتطابق أو لا يتطابق مع موقف غالبية الحجّاج. إذا كنت أشاطر الكثير منهم حبّ الحضارة والثقافة في إنجازاتها الكبرى، فلا أستطيع أداء الفرائض إلاّ وأنا أعلم أني أفعل ذلك لمتعة المعرفة والرغبة فيها. في احترام، حقاً، للحجّاج ومعتقداتهم، لكن دون القدرة على تبنّي حقائق المعرفة المطلقة التي يجاهرون بها. الاختلاف

مع مؤلّف المدارات الحزينة هو أنّ مرافقه يعلم أنّه لا يشاركه في الاعتقاد بالحقيقة نفسها. يقول الأنثروبولوجي إنّه ما كان ليجد حرجاً في السجود أمام الحكمة البوذية، حكمة لا يمكن لثقافته في رأيه إلاّ تأييدها. في حالتي، الإحراج هنا: لا يمكنني أن أقرّ، وأنا أؤدّي الفرائض، بجوانب من الحكمة الإسلامية التي يؤكّد عليها كلّ يوم شركائي في الدين. يوجد في وضعيتي نوع من الكذب: أفعل وكأنّني.... ـ لا أحد سيطالبني أبداً بشيء ولن أكون مضطراً بتاتاً إلى تبرير سلوكي. اضطرابي صادر، في الحقيقة، من هنا: أمامي مؤمنون يتصرّفون باسم الحقيقة الإسلامية سيمنحونني رباطاً من التضامن، والحبّ المشترك. سأتلقى إذن شيئاً ثميناً لن أستطيع مبادلته. أمامهم، لن أكون سوى «كاذب...» يمكنني، جزئياً دون شكّ، علاج هذه الوضعية بمحاولة منح شيء يكون ذا قيمة عظيمة في نظري وفي نظرهم: حبّ لا يستهلك نفسه في إيمان مشترك بإله قدير. حبّ ثمين للكثيرين، خصوصاً في حال الشدّة، لكنه يتجاوز الإطار الديني. يمكنني أيضاً أن أطالب في آن بالتقدير والحق في النظر؛ وأن أجيب لو سئلتُ، أنّني أرغب في اتباع الفرائض وكتابة كتاب. كنت قد قبلت مخاطرات أخرى في مسار حياتي، وأعلم أنّني هذه المرّة كذلك لن أخشى التخلّي عن مواقفي لو دفعتني تجربة جديدة إلى ذلك. رحلتي بحث بمعنى مزدوج: رحلة خلاص ورحلة حقيقة. أعمالي تحمل وَسْمَ سعي وجوديّ. وللتأسّي، يمكنني القول إنّني لن أراقب الحجّاج والحجّ من موقع وثير. المخاطرة تحظر هذا النوع من الراحة».

أدرك أنّ الدعابة، والممازحات، والمواربات، كالكتابة، هي طريقة لمعالجة مسألة لا يمكن أن تُحلّ، وفي أقصى الأحوال أغيّر فيها بعض المعطيات، أحوّلها، أزحزحها عن المركز، في غياب العثور لها عن جواب معقول.

ليست الفريضة هي ما أجازف بنزع القيمة عنها. هذا التساؤل فرض نفسه عليّ دائماً، كلّما أدّيت فرضاً بُغية معرفة، أو مجرّد المشاركة في شكل من الحياة لست أرغب بأيّ ثمن في الانفصال عنه. فتلك الممارسات بالأحرى هي التي تطرح أسئلة ليس بمقدوري دائماً الردّ عليها. حينما يكون العجز عن

النطق بجواب صادراً عن الخوف المجتمعي والسياسي، فأنا الذي أحسّ نفسي مسلوب القيمة في نظري. لا سيما أنّ ميزان القوى منحرفٌ. أجد نفسي دائماً، وأنا أدرس ثقافتي وديني نفسيهما في حماية النظام ما بعد الاستعماري للبلدان الإسلامية، فالمعرفة الأكاديمية التي أمارسها تفلت بشكل واسع من التقنين الديني والمعايير التي تتحكّم في تطبيقه. فبالمقدار الدقيق الذي تشتغل فيه الدّولة وفق ضروب عديدة من المنطق، وحيث هذه الأخيرة تفترض تعايش عدّة عوامل، أحدها عالم البحث العلمي، فأنا محظوظ، بوصفي باحثاً، بالنسبة إلى المؤمنين والممارسين للعبادات. نشاطي مقبول بدرجات مختلفة من التحمّس أو الاستسلام. لكنّي أعلم جيّداً أنّ أنصار التقليد يحتقرونني، أو في كلّ الأحوال، يجعلونني في أدنى تراتبية المثل الأعلى البشري. لحسن الحظ فنصيبي يتغيّر من عالم لآخر؛ وهكذا أستفيد من نوع من التعويض في دوائر أخرى من حياتي.

لا شيء يمكن أن يجعل مني عالم أنثروبولوجيا قدِم من أوروبا أو أميركا ليدرس الإسلام، أو جاء في رحلة تثقيف. شركائي في الدين لا يطلبون منّي مجرّد الاحترام، وما كنت أستطيع حصر نفسي في هيئة عالِم دون أن أخرق العرف. مستحيل عليّ أن أكون مجرّد ملاحظ، سواء أكان معادياً متحفّظاً، أم متعاطفاً معجباً بالإسلام. إلى هذا التمييز ينضاف آخر: لم أكن مع زملائي المسلمين نذكر قط الألم الذي يسوق إليه التنائي عن طوائفنا. تناءٍ، ترجمة، خيانة؟ هذا التفحّص للدين والهويّة، مع الشكوك والمعضلات التي تحيط به، يضع موضع التساؤل الملاحظة المشارِكة التي أتأهبّ لتطبيقها. إنّ المخاطرة وإمكان رجوعٍ أو تناءٍ أعظم ليسا مقبولين إلا من الذين يقفون في مواقع شبيهة أو قريبة من مواقعي. هؤلاء أعرف أنّ عددهم يزداد كلّ يوم، دون تعداد كل الذين ينتهكون القواعد دون أن يتصوّروا إمكان العيش من دونها. وبالطبع جميع الشكّاك. أراهن كثيراً على أنّ أولئك الذين سيطالبونني بالحساب هم أقلّية، نشطة وحازمة، لكنّها أقلّية على أيّ حال. ومن الواضح كذلك أنّ الدول الإسلامية قد أعدّت سياسات دينية، وإجراءات للتكفل بالدين تمنع أيّ واحد من المبادرة. غير أنّي لم أعد أفكّر، كما في السابق، أنّ الخوف وحده

يمنعني، أو أنّه هو وحده يثبّط كلّ أولئك الذين هم، مثلي، يحسّون بضمور إرادتهم في أن يعيشوا بطريقة أخرى. التفكير بطريقة مختلفة، في عمق الذات، في انفراد بالذات، وحيداً أو جماعة، هذا أمر شائع. في السّريرة، يتمّ ببساطة إنكار التقليد. غير أنّ هذا الإنكار يُبقى عليه سالماً، يحيا حياة ثقيلة وشديدة القسر. أمن الممكن أنّ القلق قد أتى من الإحساس المبهم بأنّ مثل هذا السؤال صار بالنسبة إليّ لا مفرّ منه؟

الفصل الثاني

حكامة الدّين

صار الحجّ، في الرّيْب والألم، حجّي أنا. لكن من يمتلك الآخر؟ إنّ خطّة الدراسة التي كانت تبدو لي كفيلة بالهيمنة على الموضوع تشوّشت شيئاً فشيئاً بفعل القدرات غير المتوقعة لهذا الأخير. غير قابل للتحكّم، ذلك ما كان يتحوّل إليه الحجّ يوماً بعد يوم. لكن هل حصل يوماً أن تحكّم فيه أفراد أو دول؟ من المعلوم أنّ الحجّاج قد تعاملوا، مبكّراً في تاريخ الإسلام، مع تعدّد لمراكز القيادة. لا شيء في التواريخ والرحلات يسمح بافتراض تقلّبات مزاج أو أزمات ضمير دائمة، أثارتها هذه الحال من انقسام الأمّة. مصاعب الرحلة، مخاوف حول الأمن أو التموين، المشاكل اللازم حلّها مع كلّ حاكم... هذا هو، في الأغلب، ما يستشفّ من هذه التجربة. كأنّ النيّة والفريضة تنفلتان من ترتيبات السُّلط هذه.

والحال أنّ إدارة الحجّ ما فتئت تتطوّر منذ القرن التاسع عشر، والحجّاج يفقدون هوامش المبادرة والاستقلال الذاتي. في نهاية القرن العشرين، فُرض عليّ، كباقي الحجّاج، أن أندرج في الشبكات المتزايدة الضيق التي كانت دولنا، وارثة التنظيمات الاستعمارية، تقسرنا عليها وترسم، مسبقاً، خريطة حياتنا. يوماً بعد يوم يتحدّد واقع جديد: أصبحتُ من حيث لا أشعر رعيّة من رعايا سياسة للحجّ. هذه السياسة على خلاف السياسات الأخرى، تعسكر على كلّ التخوم، مُعبأة بنيات الدول الوطنية لتحقيق هويّة دينية كانت رغم ذلك تفلت منها. هويّة مفبركة لا على أرض بل على أرض القداسة. وكأنّ يداً خفيّة قاهرة قد أرادت السير بالأمور إلى أقصى تعقيد، فهذه الأرض وأبوابها

هي اليوم مِلكٌ للعربية السعودية، دولة/أمّة ثيوقراطية في الظاهر، كلّيانية في الحقيقة.

قَصْدَ الحصول على تسجيل اسمي في الحصّة المغربية، كان عليّ أن أبدأ مساعيّ في صيف ١٩٩٨ للمشاركة في دورة فريضة الحجّ للعام ١٤٢٠ للهجرة (مارس ـ أبريل ١٩٩٩). صحيح أنّ وضعيتي كانت بالغة الغرابة: أعيش وأعمل في الولايات المتحدة وأنوي الذهاب إلى مكّة بصحبة صديقيّ لحسن وفاضمة. عرضت عليهما الاقتراح الذي تقبّلاه بحماسة، وأخبرتهما بنيّتي تأليف كتاب عن تجربتي؛ فاكتفيا بالردّ «كلّ واحد ونيّته». كان لحسن قد ساعدني بنجاعة في أبحاثي بين آيت ميزان، حين اشتغلت على الأضحية ولعبة الأقنعة.

زرته برفقة أسرتي، للتمتّع كالعادة بجولات في أعالي الجبال والبحث في عين المكان عن وسيلة لتسجيل اسمي في لوائح منطقته. ذلك أنّه منذ السبعينيات، كان «خدّام الحرمين الشريفين»، أي الحكومة السعودية، يفرضون حصّة (كوتا) لكلّ قُطر. في المغرب، تتوزّع هذه الحصّة بحسب الأقاليم، نزولاً إلى أصغر وحدة في التقسيم الإداري للتراب، أي الدائرة برئاسة رجل سلطة، ثمّ إلى تقسيمات عديدة، كل واحدة تحت سلطة شيخ. وهذا الأخير كانت تحت سلطته أقسام عديدة يدبّرها مقدّمون. إلى رجل الإدارة هذا إذن، المتكوّن في المدرسة الحديثة (الغريب عن السكّان المحلّيين ورؤسائهم التقليديين)، كان عليّ أن أتوجّه للتسجيل في اللوائح التابعة لمراكش، كي أسافر في رفقة لحسن وفاضمة متمتّعاً بمؤانستهما ومستفيداً من تجربتهما. كانت مكاتبه توجد بالمرتفعات الوسطى، في بلدة بها سوق أسبوعية تجذب أفواجاً كثيرة من الناس.

قصدناه يوم السوق. في التاسعة صباحاً كنّا أمام باب رجل السّلطة هذا الذي يحمل في المغرب كلّه لقب القايد، ذلك اللقب العتيق. عوّلت على وساطة نفوذ لحسن الذي في بضع سنين، قد حقق نجاحاً وفرض نفسه في المنطقة. فالبشراكة مع رجل أعمال أوروبي، حوّل بقايا حصن عتيق لأحد الرؤساء إلى مأوى يقصده السيّاح وكلّ المعجبين بالثقافة الأمازيغية. كان

لحسن قد صار مقاولاً حقيقياً لسياحة التجوال، بأسطول صغير من السيارات، وبمجموعة دائمة من المرشدين السياحيين، وبحظيرة من البغال؛ وبمقاولة فتحت لها مكتباً في مراكش، مجهزاً بالهاتف والفاكس والبريد الإلكتروني، ومكّلفاً بالاتصالات مع وكالات الأسفار والمطارات...

رغم المؤهّلات التي أعتقد امتلاكها (النفوذ المتزايد لصديقي لحسن، سمعتي الشخصية وبطاقة أستاذ في جامعة برنستون)، لم أستطع قط القضاء على إحساس بالعجز محتوم أستشعره كلّ مرّة على أبواب المكاتب الإدارية، خصوصاً مكاتب الداخلية كما تعوّد الناس تسميتها في المغرب. كان ذلك يعود بي، في هذا الصباح التاسع من يوليو ١٩٩٨، إلى واقع يعاود الانبثاق بآثاره المشوّشة على تصرّفي. منذ أمد بعيد، قد أصبت فعلاً بما يبدو لي كأنّه عُصاب بيروقراطي شديد. قال لي لحسن: «القايد شابّ لطيف من الدار البيضاء». متكوّن في المدرسة الوطنية للإدارة العمومية، ببذلة ناصعة الزرقة وربطة عنق حمراء، كان يسيّر دائرته ويسوّي النزاعات المدنية بحضور الزعماء المحلّيين: هو وراء مكتبه، وهم يكوّنون صفّين متقابلين حول مائدة واطئة. الناس، الذين يُدخلهم شاوش، يتقدّمون تحت أنظار هذه الجماعة. يشرحون أمرهم واقفين. وحين لا يتكلّمون العربية، إذ الأمازيغية هي لغة المنطقة، يترجم الرؤساء المحلّيون للمتصرّف. وكثيراً ما يتدخّلون ليستفهموا، أو يؤيّدوا، أو يناقضوا ما يرويه المتظلّمون.

قبل أن يأتي دورنا في الدخول، انتظرنا طويلاً، مثل الفلاحين الذين كانوا حولنا. تلك هي السياسة بالانتظار، أو أيضاً الانتظار وقد أُقيم نظاماً للحكم. أن تنتظر، معناه أن تعي الاختلاف: أنتظر لأنه كان عليّ أن أفهم، في حال ما إذا لم أكن قد فهمت بعد، أنّ ذلك الذي أنتظر هو من بيده السلطة؛ هو الكلّ، وأنا لا شيء. كان الفلاحون يبدون مغروسين أمام المكتب منذ الأزل، خصوصاً الفقراء والنّساء. كثيرون انتظروا عبثاً وانصرفوا دون تسوية أمورهم، دون أن يتمكّنوا من رؤية القايد. ثم الشاوش، الذي كان في ذلك اليوم مصحوباً على غير العادة بشاب في كسوة مدنية. الاثنان يرأسان المراسم على الباب: يتخيّران، ويصغيان، ويطرحان أسئلة، ويبيحان الدخول كما يحلو

لهما: الوجهاء والأقوياء أوّلاً، ثمّ لأولئك الذين يدفعون، وأخيراً، للآخرين إذا بقي الوقت. لحسن من الوجهاء. وأنا نفسي ألستُ من الأقوياء؟ ما أن غادرت الحاشية القايد حتى أُدخلنا. كان الاستقبال ودّياً ومتفهّماً: «لحسن صديق. نتعارف جيّداً. تسجيلك يطرح مشكلاً قانونياً. كما تعلم، توجد حصّة لكلّ إقليم وكثيراً ما يحصل أنّه لا يمكن حتى تلبية الطلب المحلّي. إذن، تسجيل شخص ليس من المنطقة يطرح مشكلة...».

في دخيلتي، أسلّم بأنّني كنت هنا أرغب في الحصول على نوع من امتياز بغير حقّ. غير أنّ الحديث، بنوع من المجاملة، استمرّ:

- «ما عنوانك على بطاقة التعريف الوطنية؟»

أبرزتها له. «آه! أنت أستاذ؟ تعيش في الولايات المتحدة؟

- نعم، قلت، ولحسن مثل أخي. ثمّ ليس لي من أفراد أسرتي من يمكنني معه تأدية هذا الحجّ.

- إذن، سنرى. ربّما الأفضل هو إيجاد شهادة إقامة لك في [...]. سأسهر على هذا. ليرجع لحسن عندي قبل شهرين من تاريخ الحجّ!».

حيّيت القايد وغادرت المكتب. بقي لحسن معه لحظة. التحق بي وشيكاً، بعد ما فعل، كما قال، «ما جرت به العادة كلّما قصدت مكتباً. «التدويرة» لا بدّ منها». بهذه الطريقة، كما يرى، تكون «السلامة في أشغاله»؛ ثمّ كلّما كان بحاجة إلى شيء، جواز سفر لابنه مثلاً، يمنحونه إيّاه دون تعطيل.

كنا، منذئذ، لحسن وأنا، من الحجّاج. فمقولة الحاج مقولة عريقة، والانتماء إلى هذه الفئة الاجتماعية يثير الاحترام، ويصير الذي (أو التي) التحق بها ذا وضع ودور. غير أنّني اكتشفت، ليس دون اندهاش، أنّها تتلاءم مع شكل معيّن من الرشوة. صحيح، كان صاحبي، لا أنا، هو من قدّم هديّة لتسوية سفرنا. ولمّا أثرت الموضوع معه بدا أوّلاً أنّه لم يفهم. ثمّ بعد ذلك، حين أخبرته بخشيتي أنّ مثل هذا العمل سيلوّث أعمال عبادتنا، شرح لي لحسن أنه لا يستطيع شيئاً، وهكذا «يتمشّى المخزن» وأنّه «يسلّم أمره إلى الله في كلّ هذه العادات الملعونة». واستخلص لحسن بقوّة أنّ «الدّين معروف وواضح لمن يرغب في اتّباع سبيله». هكذا ظهر لي خطّ توتّر سأصادفه كثيراً.

فئة «الحاج» تبلورت عبر القرون. وبالنسبة إلى القوى التي جاءت لتحتلّ مراكز السلطة على امتداد تاريخ المغرب والمشرق، كانت هذه الفئة جزءاً من معجم النظام والتنظيم الإسلاميين. إذ يتوجّب على الحكّام، من بين أشياء أخرى، حماية الدين وضمان العبادة، ومن ثمّ الاهتمام بالطرق، وتشكيل القوافل، والعلاقات مع مناطق العبور، وتموين الحجّ وسياسته. وفي أيامنا هذه، استمرّت هيمنة السلطات المركزية على الحجّ، لكن بوسائل متجدّدة بقوّة. رحتُ أدركُ ذلك بقدر ما كنت أصير «حاجاً»، من فئة خاصة من المسلمين، فئة قد غيّرتها عميقاً الدولة ـ الأمّة الجديدة.

ولكي أندرج فيها، يلزمني تسجيل اسمي في اللائحة التي تعدّها المصالح المحلية والإقليمية لوزارة الداخلية حين يتمّ تسجيلي يلزمني تعبئة الملفّ. غادرت إذن صديقي على وعد الحصول على ملف في دائرته وإقليمه.

في برنستون، حيث استأنفت تدريسي بعد الصيف، تلقيت طلباً عاجلاً بأربع وعشرين صورة وعقود ازدياد! كانت الإدارة تطالبني بهذه الوثائق لتكوين الملفّ. والمجموع ينبغي أن يكون مُرْفقاً بنسخ مصوّرة من بطاقة تعريفي الوطنية. في المغرب لدينا جميعاً بطاقة تعريف وطنية، هي أيضاً قائمة على أساس ملف آخر مودع في الجذاذية المركزية لمصالح الأمن الوطني... لكن من اللازم في كلّ مرّة إثبات الهويّة نفسها، في عدد من النسخ يتصاعد باستمرار مع السنّ وتجديدات الوثائق الهامّة.

من أجل التسجيل في لائحة الحجّاج، لا بد من تحديد مكانك على خريطة مع الإحصاء السكّاني، محدّدة الهوية، بعنوان مشهود عليه بـ«شهادة إقامة». والحال أنّ بطاقتي، المُسلّمة في نيويورك، تحمل عنوان برنستون... ما حصل بعد ذلك أكّد التسيير الصارم للحصص. إنّ تقسيم الحجّاج إلى مجموعات متميّزة لأغراض النقل، والسكن، وتنظيم المناسك، ينبغي أن يعكس خريطة المغرب الإدارية، بوحداتها الترابية (القروية والحضرية) وشبكاتها، الصحّية والدينية على الخصوص. فرغم الجهود المبذولة للسفر برفقة صديقيّ من إقليم حوز مراكش، اضطررت إلى التسليم بأن أكون في لائحة إقليم آخر، حيث أقيم. وبالفعل، في مطلع شهر نوفمبر ١٩٩٨،

أخبرني لحسن أنّ رئيس الدائرة لا يستطيع تسجيلي [في لائحة الحوز] بعنواني الأميركي. «سيلزمك حينئذ الحصول على بطاقة تعريف في [...]. أمر صعب. لا نجرؤ على هذا، خصوصاً أنك أستاذ».

كان عليّ العودة سريعاً إلى البلد أربعة أو خمسة أشهر مقدّماً من أجل الاستعداد. إذ يبدو بوضوح متزايد أن من الضروري أن أكون حاضراً عند افتتاح لوائح التسجيل. انتهيت إلى إدراك أنّ الطلب كان دائماً أكثر من عدد الأماكن المتوافرة وأنّني أواجه خطر إفلات الفرصة إنْ لم أكافح للحصول على «مكاني». مسعاي الأوّل، حوالى الخامس عشر من نوفمبر، أخفق. أكد لي السكرتير المسؤول عن دائرتي أنّ «التسجيل لم يفتتح بعد وأنّه يلزمني على أيّ حال تجديد بطاقة تعريفي...». أنجزت ذلك في بضعة أيّام، بمساعدة عون من الرتبة الدنيا. هذا الأخير جعل نفسه في خدمتي مقابل قدر معيّن من المال اتفقنا على تسميته «صدقة». كان يخاطبني سلفاً باللقب العظيم للحاجّ ويسمّي «بركة» كلّ دفعة من الحساب أؤدّيها له.

في الثلاثين من نوفمبر، لمّا جدّدت مسعاي عند هذا الموظف، فوجئت بالجواب نفسه: «لم يُفتتح التسجيل بعد». ومع ذلك كان بحوزتي إعلان عن هذا الافتتاح في الرابع والعشرين من هذا الشهر نفسه، الموافق لفاتح شعبان ١٤١٩ هـ. «نعم، نشر الإعلان في الجرائد فعلاً، لكن لم تصل إلينا بعد تعليمات السيّد العامل». كانت الإشاعة تقول إن السعوديين قد حدّدوا عدد الحجّاج المغاربة في سبعة وعشرين ألفاً. لكن «اللجنة الملكية المكلّفة شؤون الحجّ» قد أذاعت عدد أربعة وعشرين ألفاً، خمسة آلاف منهم سُمح لهم بالسّفر إلى البقاع المقدّسة عن طريق وكالات الأسفار. كنت عازماً على أن أكون ضمن التسعة عشر ألفاً المعهود بها لمصالح الداخلية. وقد نشرت جريدة الاتحاد الاشتراكي اليومية في عددها الصادر في الواحد والعشرين من نوفمبر ١٩٩٨ الإعلان التالي:

«خاص بالحجاج المغاربة
عملية التسجيل تبدأ الثلاثاء المقبل

عقدت اللجنة الملكية المكلّفة بشؤون الحجّ والعمرة اجتماعاً يوم الخميس قبل أمس في الرباط حددت خلاله فترة التسجيل للموسم القادم للحج ما بين ١٤ نوفمبر الجاري و١٥ ديسمبر.

وقد حدد العدد النهائي للحجاج المغاربة المسموح لهم بأداء فريضة الحج في ٢٤٠٠٠ حاج، والحصة المخصصة لوكالات الأسفار في ٥٠٠٠ حاج. وحددت تسعيرة السفر بالطائرة في ٧٦٥٠ درهم ذهاباً وإياباً ووزن ٤٠ كلغ للحاج، والفائض يؤدى عنه زيادة ١٠ ريال سعودي للكلغ.

وخلال هذا الاجتماع جدد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية [...] دعوته إلى الساهرين على هذه العمليات أن يمنعوا تسجيل كل شخص مصاب بمرض معد وكل الذين أدوا فريضة الحج منذ أقل من خمسة أعوام. واتخذ أيضاً قرار بمنع تنظيم الرحلات نحو الديار المقدسة عن طريق البر».

أمام هذا المأزق، لجأت إلى وسيطي عون السلطة. وبينما كانوا يحاولون منعنا من الدخول عند القايد، أخذني من يدي، ودفع الباب وقدّمني. وفي الحال صدر الأمر بتسجيلي. عدنا إلى الكتابة، ويا للمعجزة! كانت توجد بالفعل لائحة تحمل أسماء سلفاً. أدهشني هدوء الموظف: لم يكن يرى بأساً في أنّ لائحة لم تكن موجودة منذ دقائق فقط تتجسّد فجأة أمامنا... كانت مفتوحة في الواقع منذ وقت لا بأس به، للذين واللواتي يقبلون أن يدفعوا. صار نظام الحصص [الكوتا] من ذهبٍ لعالم كامل من البيروقراطيين. وأدركت من جديد أنني، بالنسبة إلى هؤلاء المختصّين في «الاستغلال المنجمي»، مثل جميع المواطنين، منجمٌ حقيقيّ. وهذه الصفة مسندة إليّ بالنظر إلى الظروف والخدمات اللازم تقديمها، بما فيها التسجيل للحجّ. إذن، قيد، اسمي «مؤقتاً» في تلك اللائحة «في انتظار تقديم الأوراق الأخرى».

بعد اجتياز هذه المحنة الأولى، أخبرت وسيطي بإحباطي. فاجأت نفسي وأنا أقول له: «أريد وقتاً لأعمل وأكتب». فأجابني: «اذهب للدراسة. سأعود

إليك في الرابعة للتسجيل [نهائياً]... تريد أن تمشي إلى للاّ مكّة، سأفعل كلّ شيء لتسجيلك». ألستُ ذلك الذي قال عنه للقايد: «هذا الأستاذ حمّودي، أستاذنا. يسكن هنا. عندي قليل من الناس وينبغي أن يتمّ تسجيله». عنوان سكناي بحي راق، حيث توجد إقامتي الصيفية، كان يعمل لمصلحتي.

ثلاثون صورة، ستة من عقود الازدياد، شهادة الإقامة، استمارة «معبّأة بعناية» من أجل جواز السفر الخاصّ بالحجّ... العقود وبعض الصور هي من أجل تجديد بطاقة تعريفي الوطنية التي بدونها لا يمكن إثبات شيء. والباقي لأجل الملفّ الذي تعدّه مصالح الإقليم الذي ينظّم السفر و«يتكفل بكلّ شيء». وفي انتظار ذلك يلزم الحضور إلى المكتب الصحي التابع للعمالة.

«الموعد في العاشرة صباحاً مع صورة والبطاقة الوطنية. الصور الأخرى هي للملفّ». الصورة الجديدة التي كنت مطالباً بها ستبقى في «الملفّ الطبّي». ألصقتها بالفعل ممرضة متحجّبة على استمارة عبّأتها في حضوري.

«لماذا أنتم في حاجة إلى صورة في حين أني قدّمت ثلاثين إلى مقرّ الإقليم؟

- لتعريفك...

- لكن تعريفي قد تمّ بكومة من الوثائق! بطاقة التعريف الوطنية بصورة، جواز السفر بصورة...

- لا أدري. يطلبون صورة. (صمت) طيّب، انتظر الطبيب.

- آه، هو ليس هنا؟

- انتظر، هناك ناس ينتظرون هنا. سيحضر حوالى الحادية عشرة.

- موكّد، الحادية عشرة؟

- آه هذا، لا يمكن أن أقول لك. عادة يحضر في الحادية عشرة. لا يوجد طبيب دائم. عندما ينتهي من استشاراته، يحضر».

ذهبت أجول في المدينة لتزجية الوقت. بعد عودتي، فحصني بعد انتظار طويل طبيب شابّ حسن الإرادة بمحضر واحد من زميليه. قاما بواجبهما بدقة. لكن لسوء الحظّ، لم يحضر الطبيب الثالث. «الشهادة جاهزة. لكن لا بدّ من إمضاء ثالث للتصديق عليها. الطبيب الثالث ليس هنا. ارجع غداً»

في الرابع من ديسمبر، قصدت وسيطي («المُيَسِّر» كما يقول البعض) وبحوزتي أخيراً الشهادة الطبية لأعطيها له. «الملفّ جاهز، صافي!» قلت له بارتياح. التمست منه أن يودعه ويأتيني بالإيصال. اندهش: «أيّ إيصال؟ أنت مسجّل، أنت من بين الستّة أشخاص المسموح لي بتسجيلهم في حيّك». قبل أن أغادره، كرّرت طلبي بالإيصال، ليس دون أن أدفع مقدّم حساب عن «الصدقة» التي كان مقدارها النهائي تتضاءل إمكانية توقعه.

كان أشخاص كثيرون مرفوضين «لعدم توافر الأماكن»، وهو السبب الأكثر وروداً. وبما أنّ التسجيلات ستقفل في الخامس عشر من ديسمبر، فمن المستحيل عليّ العودة لقضاء بضعة أسابيع مع أسرتي في برنستون دون هذه الوثيقة، أخشى أن «يُنسى» ملفي أو «يضيع». لم يكن هذا رأي مخاطبي: «لكن أيّ إيصال؟ اعتبر نفسك هناك، في للا مكّة. أنت هناك سلفاً. ما حاجتك إلى إيصال؟». أجبت «أريد الذهاب مرتاحاً». «لكن يجب أن تعود للقاحات. لم يحدّد التاريخ بعد. وكذا لدروس الحجّ في وزارة الشؤون الإسلامية. لا بدّ أن تحضر هنا حين يستدعونك... ربّما في منتصف رمضان، ربّما في آخره...».

عبثاً شغّلت مخيّلتي، لم أبلغ أن أرى نفسي في «للاّ مكّة» دون دليل على أن «ملفاً» باسمي موجود في مكان ما. حين سلّمت الثلاثين صورة، فاجأت نفسي وأنا أفكّر في العيون التي ستتفحّص وجهي لتثبيت قسماته: مصالح الشرطة المغربية، إدارة الداخلية، المكتب الصحي، اللجنة الملكية، وزارة الشؤون الإسلامية، مصالح الحدود، مصالح الجمارك، مصالح مكافحة التهريب والاتجار في المخدّرات، سفارة العربية السعودية، ووزارة الحجّ السعودية... لم أذكرها كلها دون شكّ. قبلت الآن أن تمرّ صورتي، بالحدّة والمدّة الضروريتين، تحت نظر المتفحّصين المنكبّين على أكداس من الوثائق، في أماكن حقيقية جدّاً، لكنّها، على غرار فضاءات الأحلام، تستحيل مقاربتها.

قلت لعون السلطة: «ثقتي بك كاملة. لكن، تعرف، هناك الآخرون. تدور الأوراق، ترحل من مكتب لآخر. ولا ندري أبداً ماذا سيحصل. سأذهب

ولا بدّ أن يذهب معي هذا الإيصال...».

جاء الجواب: «اسمع، سأحصل عليه. يلزم أن يوقعه. سيكون عندك يوم الجمعة. مؤكّد. عندك مئة درهم؟ لا أملك في جيبي شيئاً».

كان عليّ الاستسلام لهذه الهبة الصغيرة من «الصدقة»... يبدو أنّ البركة تُضاعف من مطامح مخاطبي، ولدهشتي العظيمة، تجعل كيس نقودي لا ينفد. لكنّ هذه الهبات لم تكن لتحمل لي أيّ تطمينات في ما يخصّ السفر. إنه يتناءى وأنا قريب جدّاً منه. ما العمل؟ أأتقدّم إلى السلطات الإقليمية العليا أو إلى أيّ «شخصيّة وطنية»؟ كنت أنفر من هذا النوع من الزيارة... آنئذ قرّرت الشكوى إلى البقّال. ظهر أنّ هذا الاختيار كان صائباً، فالعديد من رجال السلطة يتموّنون عنده. وعدني بالمساعدة؛ وشجّعني على المثابرة والإلحاح على الوسيط. قال لي: «أعرفه. ما كاين مشكل، لكن كلّنا «أولاد المخزن». لازم يعطيك الإيصال. لا ندري ما قد يحصل».

ظفرت أخيراً بشهادة إيداع الملفّ عشيّة عودتي إلى برنستون. بذلت لبلوغ هذا أكثر من أربعين يوماً من الجهود، والانتظار أمام المكاتب، والتردّدات، والمماطلات، والمساومات. نبّهني الوسيط إلى أنّني لن أكون حاضراً في رمضان. أجبت أنني «لا أخاف من رمضان ولا من الإسلام» وسألته إنْ كان يصوم. تلعثم وغيّر الموضوع.

عدت إلى المغرب في الأيام الأول من فبراير ١٩٩٩، وكان عليّ استئناف مساعيّ دون تأخير. في مقرّ الإقليم، كانت مصلحة الجوازات هي المهتمّة بالحجّ: «أنت متأخّر، يا أستاذ!» هتف بي موظّف بشارب، وبدلة غامقة ورباط عنق أحمر. كان جالساً وأنا واقف.

تحيّرت، فلم أدر بماذا أردّ. كانت الذاكرة تمدّني مع ذلك بقدرة على التحمّل. ليس بما يكفي رغم ذلك، لأنّ ذكريات وقائع الماضي ليست هي الوقائع نفسها. حين تستعاد، لا نكون داخلها، بل نكون قد عبرناها، وما عاد لتسلسلها ونتائجها أيّ شيء غير متوقع. لا رَيب أنّها تسكننا بطريقة أخرى، لكنّها حينذاك تكون جزءاً ممّا نعيشه في الحاضر. لذا فتجربة علاقاتي بالبيروقراطيات ضئيلة الحماية لي. وزاد من ذلك اهتمامي بأن لا تتحوّل هذه

العلاقات إلى عادة. لجأت إلى نوع من الصبر الأليم والقلِق. ولإحساسي بالهشاشة، صارت تصرّفاتي مرتبكة ولغتي متلعثمة. ودون إنذار مسبق، كانت حيويتي، وهي تتخلّى عن استعداداتي العادية، تهدر نفسها في لمّ جسدي، وإبقائه مشدوداً بين أطرافي للظهور بمظهر جيّد. لذا لم أستطع أن أخدع أحداً بتساؤلاتي عن تاريخ السفر، والتذاكر، وشركة الطيران، والسكن... ولا شكّ أنّي استأهلت (قد يضيف أحدهم عن طيب خاطر: «بكلّ موضوعية») الجواب الذي تلقيته:

«تأخّرت يا أستاذ. بعثت بجوازك الخاصّ بالحجّ إلى مكتب الصرف لتحصل على العملة الأجنبية. سيكون هنا يوم الجمعة. ستأتي لأخذه وتذهب للتلقيح في الفوريان (المحشر) القديم بالرباط... أتعرف أين هو الفوريان القديم؟

قلت: ـ لا.

لا أدري إن سُمعت كلماتي. وهل كانت قط مسموعة؟ أمرني الموظّف، منهياً الحديث دون مجاملة، أن أعود إليه بطابع مخزني وأرجع بعد أربعة أيام لتسلّم جوازي، بعد أن يتمّ نقل شهادة التلقيح على إحدى صفحاته. وبعد ذلك ستحوّل الوثيقة الثمينة إلى سفارة العربية السعودية، مع العملة الأجنبية. لأنّ الحجّاج من فئتي، أي الأغلبية الساحقة، يلزمهم أداء مبلغ إجمالي لمصالح الداخلية من أجل تكفّل تامّ للشركات السعودية المختصة بالحجّ (السفر، والإقامة، والمناسك).

ظهيرة الرابع عشر من فبراير، كنت أنتظر أمام مكتب في الفوريان القديم، ومعي الجواز الأخضر المعنون: «وثيقة الذهاب للحجّ لعام ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ للميلاد». والممرّضة، التي كانت قد غابت، اندهشت لوجودي:

«ما حاجتك؟ آه! التلقيح... لا يوجد حجّاج اليومّ».

أخذت الجواز، فطمأنني ذلك. قلت لنفسي: لا شكّ أنها ستفعل شيئاً من أجلي. أخرجت طابعاً من قِمطرها وألصقته على ورقة فارغة. أخيراً سيتمّ تلقيحي!

وضّحت: «لا بدّ أن تكونوا عشرة حجّاج». ولمّا رأت أنني لم أتحرّك،

صاحت من جديد: «ارجع الاثنين القادم وإذا كان عشرة حجّاج لقحناكم»!

ـ عشرة حجّاج، لماذا؟

ـ لأنّه ليس لدينا إلاّ علب من عشرة تلقيحات. تصل إلينا هكذا من معهد باستور بالدار البيضاء. إذا فتحنا علبة عن تلقيح، ضاع الباقي. علبة العشرة ثمنها ٨٥٠ درهماً... أنت تفهم...

ـ هل يمكنني شراؤه من الصيدلية؟

ـ لا أدري. حاول...

كان من العبث الإلحاح. هرعت من صيدلية إلى أخرى. في كلّ مرّة أتلقى الردّ السلبي نفسه وأستأنف سعيي إلى أن تفحّصني صيدلي، أرحم قليلاً دون شك، قبل أن يعلن لي:

«لا جدوى من الجري. لن تجد هذا في الصيدليات. لا يوجد سوى في مستشفى الفوريان القديم!».

في الخامس عشر من فبراير، وجدت نفسي، محبطاً ومستسلماً، في قاعة انتظار «مستشفى الفوريان القديم». كان هناك رجل صادفته كثيراً في الماضي. من الرباط، أندلسي. اسم كما يوجد هنا وهناك في المغرب، خصوصاً في المدن الساحلية (بيرو، مولا طو، سانتشيز، بركاش، فنجيرو وغيرهم كثير...). شديد التهذيب، متزوّج بامرأة تعمل في المدينة... بعد الآن، ما عاد باستطاعتي تصنيفه. مَنْ كان؟ رباطي؟ أو أندلسي رباطي، أو أيضاً رباطي ـ أندلسي، مغربي رباطي ـ أندلسي، مسلم أندلسي رباطي مغربي؟. الأشياء لا تكفّ عن إعادة تركيب نفسها وتقود ذهني إلى الاضطراب. أفكّر في تلك الحلويات الرمضانية الأندلسية تخصيصاً، في النبرة العربية الأندلسية، في نوع من الزواج اللُّحْمي الأندلسي. وفي الخلاصة، قبيلة حضرية؟ رجال آخرون من الرباط حاضرون، ببدلات أوروبية جيّدة الصنع، وكذا نساء، بجلابيب لاصقة بالجسد ـ «تقطيع حديث» ـ والشعر مصفوف على طريقة «المدينة». ثمّ هناك الآخرون الآتون من مكان آخر مثلي، كهذا الرجل من زعير، وهي قبيلة قريبة من الرباط، الذي اتّخذ موقفه بجانبي. كان «عروبياً» كما يُقال هنا.

«نتمنّى يدوز كلّ شي بخير!»، قالها مخاطباً الجميع.

لمّا لم يصادف أي ردّ فعل، نظر إليّ. أجبت دون اهتمام بأن لا مجال للقلق. تدخّل رجل آخر، في أواسط الشباب، أوصاه بأن يؤدّي الفريضة على حقها وهتف به: «وإلاّ سيكون حجّك غير مقبول» وبلهجة تطوانية ظاهرة، نصحه بالاشتراك في «التدريبات» التي تنظّمها الإدارة الإقليمية للشؤون الإسلامية. اكتفى «العروبي» بأن قال دون أن يخاطب شخصاً معيّناً:

«أنتم، تعرفون القراءة؛ نحن لا. أتمنّى أنهم سيشرحون لنا!».

أدخلونا اثنين اثنين إلى قاعة أخرى. التلقيح ضدّ التهاب السحايا يدوم بضع دقائق. أثناء ذلك، دخلت في حديث مع رجل يبدو عليه أنّه يعرف كل شيء عن قواعد الحجّ. أكد لي: «ذلك يدوم شهراً كاملاً. فما نيّتك؟».

فاجأني السؤال، فأبطأت طويلاً في العثور على ذكرى قراءاتي الدينية الفقهية. النيّة واجبة لا بدّ من القيام بها وهي لازمة لكي يكون الحجّ جائزاً. لمّا أجبت بأنني أنوي القران (إن شاء الله)، شرع محدّثي على الفور في تنويري.

«لماذا القران؟ هذا للمستعجلين. ربّما للسعوديين. [مع هذا النمط من الحجّ]، يلزمك أن تبقي مُحرِماً دون أن تستطيع الاغتسال أو التجوّل حقاً. ينبغي القيام بالتمتّع. إذا استطعت ذبح الأضحية. طبعاً إذا لم يكن لديك مال، فالقران حسن».

أعرف مادّة قران: «ق ر ن»، التي تعني جَمَع، وفعل هذا الشيء وذاك دفعة واحدة. لكن ما معنى «تمتّع»؟ حرفياً، لو اعتقدنا بحرفية الكلمات، سيعني ذلك «الاستمتاع». محدّثي، الذي حدّد لي وظيفته الرسمية في «الشؤون الإسلامية» يرشدني بذلك إلى نمط من الحجّ حيث يُباح التحلل من الإحرام بعد مناسك العمرة، للتمتّع بامتيازات الحياة العادية، ثمّ استئناف الإحرام لتأدية الحجّ بحصر المعنى. أثناء هذا الفاصل ليس الحاجّ ملزماً بالمحظورات، خصوصاً العناية بالجسد والجنس.

هكذا إذن كان الحجّ حقاً وحقيقاً محكوماً. أداء الحجّ واجبٌ دينيّ. لكنّه كذلك أكثر من واجب، كان رغبة، وانجذاباً عميقاً، يصير، بالنسبة إلى البعض، إرادة قاهرة وتضحية كاملة بالذات. إرادة تبلغ حد الانصهار في إرادة

الحياة. البعض، مثلي، يسعى أيضاً وراء رغبة في المعرفة، وآخرون يبحثون عن الثروة والجاه والامتيازات. وهذه الرغبات تستثيرها الدول الوطنية لتربّي في كلّ واحد منّا ذاتاً قابلة لأن تكون تحت الحكم. وذلك بالانتظار والاستهلاك الخالص للزمن أوّلاً. أسابيع، وشهور تكون الحياة في أثنائها مُبنينة بالمساعي وأشكال التعرّف والتعلّم. من بين هذه الأخيرة يتميّز تعلّم المكاتب، والشبابيك، وطوابير الانتظار. أن تكون محكوماً، هو أوّلاً أن تتهيّأ للانتظار، أن تعرف كيف تنتظر، أن تقبل أن تنتظر هنا، ساكناً، أو أن تنتظر في ما بين تكرار الذهاب والإياب. فأن تذهب وتعود هو أيضاً أن تنتظر، أن تدور في دائرة، مثل بغل معصرة الزيت. ولأولئك الذين لا يُظهرون ما يكفي من الخضوع، فالعقاب الشائع هو: «خلّيه ينتظر، ويشوف». كان لا بدّ دائماً من انتظار كلّ شيء: القايد، الطبيب، الممرّضة، الموظّف، رئيس المصلحة، الإعلانات، اتخاذ القرارات، آخر الشهر، رمضان، عيد الأضحى، المطر، موسم الحصاد، عيد العرش، عيد الشباب. لائحة لا تنتهي. انتظار الانتظار: انتهيت أخيراً إلى إدراك بداهته. الحكم، بهذا المعني الملموس، ليس إصدار أوامر وتلقي الطاعة، أو الحفاظ على «احتكار للعنف الشرعي». أن تحكم يعني قبل كلّ شيء أن تنصّب نفسك حارساً للمعابر الضرورية لإشباع الرغبات. هذه الحراسة تمنح لنفسها فضاءات وأوضاعاً: دهاليز، قاعات انتظار، مداخل؛ وضع الجلوس أو الوقوف، فرداً أو جماعة، في كومة أو في صفّ، في حضور أو غياب «الأعوان»، أو «الأطر» أو «المسؤولين السامين». كانت تفرض مواجهة عنيفة للمحرّكين الرئيسيين مع التفاوت بين امتيازاتهم الشكلية وأناهم؛ أن يُجرَّدوا من إنسانيتهم ويُجعَلوا وجهاً لوجه بوصفهم سلطات.

الحكم بآليات التصرّف في المعلومات هي الوجه الآخر للحكم بواسطة آليات الانتظار. إنّهم، بتقطير المعلومات المفيدة نقطة نقطة، أو نُتَفاً، أو وفق مصادفة محسوبة، يجعلونني أذهب وأعود كما يشاؤون، «كلّما دعت الضرورة إلى ذلك»، كما يحلو لهم أن يردّدوا. تلزمني العودة لانتظار «أصحاب الوقت» كما كان يُقال قديماً. عند كلّ مسعى لا بدّ من العثور على المصدر الموثوق،

وتعلّم التعرّف بشكل ملموس إلى الأشخاص لربط علاقة، وإقامة التعارف المتبادل الذي سيضمن التعامل الجيّد. في التجربة التي أجتازها احتكار ولا توازن جذري، متشاركان في الجوهر مع ما كانت عليه الدولة التسلّطية الحديثة في مجتمع قد حوّله الاستعمار. هذه الدول، بأعمالها وبأشكال صمتها، تجهد لجعل المعلومات نادرة في الوقت نفسه الذي تنتج فيه منها مقداراً لا سابق له في التاريخ الذي سبق الاستعمار. إنّها بحصرها في بعض الأوساط البيروقراطية والسياسية، وبتوجيهها نحو بعض المجموعات، وحظرها على أخرى، تصنع اختلالاً في تداول المعلومات، لا مواقع متواترة للمعلومات.

هكذا شُغّلت تقنية، جليلة في تاريخ البشرية، لالتقاط المعلومات والمال، هاتين الثروتين النادرتين واللتين لا حدّ للرغبة فيهما. كان مجتمع القنص والجني، الذي اختفى منذ أزمنة، ولم يبق منه على وجه الأرض إلاّ جماعات مشتّتة في طريق الانقراض، قد ظهر في حلّة جديدة وبرهن على نجاعته. تقنيته الأساسية تكمن في إفراغ مناطق من الفيافي والغابات من الطرائد، قصد تجميعها في أمكنة ملائمة للقنص. منطق مبنيّ على ثنائية التّندير والتّوفير في آن واحد. هكذا حال التسجيل في لوائح الحجّ؛ هكذا يُفعل بأبسط استمارة، لا «توضع رهن إشارة العموم» إلاّ لكي تختفي بصورة سحرية. وعند وجود النقص، فكلّ نسخة تروج في سوق ليست سرّية على الإطلاق. يمكن، لو شئنا، تسمية هذا بالحكم بواسطة الفساد. «الرجل أو المرأة ياكل ويوكّل»، سمعت هذا كثيراً جدّاً. الفساد كان مشروكاً بالكرم؛ لم يكن يتعلّق الأمر بسيكولوجية الهبة مرتبطة بذنب الأخذ فحسب. ففي ما وراء ذلك، كانت «دورة» المادة تشتغل وفق كلمة هي حقاً شعار: التدويرة، كما يقال، نبات ينتشر زرعه مع كلّ ريح تهبّ، دارَ، دوّر، دوّارة، دوّار. أليس هذا انفتاحاً على كلّ دورات الكون؟ أفلا يكون بذلك استشفافاً لنظام ما يُسكَن والمسكون، المقول والمرئيّ في العالم؟

مهما يكن، أرغمني الحجّ على التعامل مع ما يُسمّى عادة بالرشوة. الوسيط، عون السلطة، وأنا نفسي، سمّيناه «صدقة» أو «بركة». والانتقال،

بهذه السهولة، من مستوى لآخر، فيه ما يبعث على الدهشة. والحقّ أنّ الأمر يتعلّق بالحصول على خدمة بوسائل كفيلة بالنيل من العدالة: بتعرّضي لاحتمال، إن لم يكن حقيقة، أن آخذ مكان شخص آخر، فقد كنت أنتهك مبدأ العدالة. صحيح أنّ كلّ أولئك الذين يتهيّأون للحجّ، يعتمدون على وسائل مشابهة، إن لم تكن متطابقة. كلّ واحد، بالتالي، بإمكانه شراء «تسهيلات». يُعامل الجميع على نحو مّا بالمعيار ذاته، وهذا نوع من الإنصاف في الفساد المعمّم، ولعبة يربح كلّ واحد فيها ويخسر في آن. لا سيما أنّ لعبة الرُّوليت هذه مقبولة باسم الله. هنا التضحية والرشوة يتماسّان: ما يوهب، «كأيّ خسارة، هو في سبيل الله». الحاجّ لا يصنع شيئاً هنا إلاّ «في سبيل اللّه». ليست الرشوة والارتشاء إذن جنحة، بالقدر الذي لا يمكن لهذا الذنب أن يمسّ الحاصل على المنفعة بواسطة الرشوة وأنّ التضحية نفسها تأتي لمحوه! منطق الدورة: الحجّ، من بين كلّ الفرائض، هو الذي تأسّس من أجل «غسل كلّ الذنوب» والعودة في حال «المولود».

يبقى أنّ هذا الفساد المعمّم لا يمسّ بتاتاً «النيّة الدينية». فهو، بوصفه تقنية للحكم، يغزو الحجّ باعتباره نشاطاً، من بين أنشطة أخرى، لا يمكن أن يفلت من الأزمة. لو بحثنا عن الإيديولوجية التي لها أكثر الأنصار في بلدي فلن نفاجأ إن وجدناها في جهة الرشوة والارتشاء. هذا أمر سريّ، طبعاً، لكنّه سرّ فيه عمومية، لأنّ الجميع مشتركون فيه. وكأيّ وصفة للسلوك السياسي، فميزة السرّية تأتيه من الإجماع. ومن هنا، فهو ينتسب إلى ما فوق الطبيعي، وعلى غرار عبادة هذا الأخير، فإنّ فعل فضحه نفسه يندرج في الطقوس.

الفصل الثالث

تداريب الذات وأشباحها

يحدث لي كثيراً الإحساس كأنّني شبح لذاتي. أهذا هو السبب في سعيي الدائم ـ إلى درجة العناد أحياناً، أن أستجلي المتعدّد فيما لا يرى الآخرون إلاّ الوحدة، وأن أرصد اختلافاً بعد اختلاف فيما لا يرغبون إلاّ في التّماهي؟ على أيّ حال، ها أنا في هذه الأربعاء ١٧ فبراير ١٩٩٩ خاضع لتدريب جديد. الخمسون سنة ونيّف من عمري، قضيت شطراً كبيراً منها إمّا في متابعة دروس وإما في إلقائها. وقد وجدت نفسي مرّة أخرى في وضع تلميذ، وفي ظروف ما كنت لأتخيّلها سنوات من قبل. أيّ انجراف ساقني هنا، أيّ يدٍ خفيّة تقودني؟ منذ أن وضعت حدّاً، وأنا أبحث عن بناء حرّ لهويّتي، لممارسة دينية انبنت على الإكراه، يبدو أنّ اهتمامي بالدّين قد توقف، لكن سرعان ما اكتشفت أنّه كان غافياً فقط.

هذا الاهتمام خفيّاً مواربا، خلال السبعينيات، تحت قناع العلم. ما عاد ممكناً المخاتلة أمام التساؤل المحتوم: كيف؟ لماذا؟ وإذا بالدّين، وهو يخضع لمثل هذه الأسئلة، يتّخذ أوجهاً محيِّرة: شعائره وأحكامه تصير موضوعات. حين انخرطت في دراسة الطقوس بدل ممارستها، كنت أحتفظ بألفتي معها، ألفة تستشفّ فيها المسافة، والعناء، والأسى. أغبط الممارسين الذين يؤدّون الفرائض تقريباً كما يستيقظون يومياً ويلبسون اللباس، ويأكلون الطعام، ويعملون. كلّ هذا، كما يظهر عندهم، من طبيعة الأشياء، وإذن، إن صحّ القول، من طبيعة كينونتهم. لم أستبعد عند الآخرين (وكيف بالإمكان غير هذا؟) لا التشكّك ولا الارتياب، ولا أيضاً أشكال المباعدة ولا، أخيراً،

أنماط البحث الحارق. لكنّي أغبط بالقدر نفسه إيمان العجائز وإيمان الفلاسفة.

صرت، كما يحصل لي كثيراً، في وضع التباس فتكدّر صفوي. جعلت من الدين الذي تربّيت فيه موضوعاً للتفكير، ومن هذا وسيلة للتعمّق الفكري والأخلاقي. المتديّن القديم يتخلّى عن مكانه للأنثروبولوجي الراغب في الفهم، لكنّه يظلّ هو نفسه منقسماً. أبحث عمّا يعنيه الدّين بالنسبة إلى الآخرين، لكنّي إذ أدركت أنّه ممتنع عليّ الاكتفاء بذلك انتهيت إلى أن أسائل نفسي عن معنى موقفي من الدين. غير أنّ أنا الباحث، المحجوبة والمعروضة في الوقت ذاته بواسطة كلّ مظاهر المشارك، ليست الشبخ الأشد إرعاباً. وحتى لا تخونني الشجاعة، أكرّر لنفسي أن لا شيء يمنع أي حاجّ من أن تكون له مقاصد أخرى غير مقصد الواجب الديني، وأنّ محاولاتي لشرح مشروعاتي للآخرين لا أحد يعيرها اهتماماً. يحيلونني على «نيّتي» وعلى صلتي بالله وحده. على تلك النيّة التي هي المقياس الحاسم الذي تقاس به الأعمال. ومع ذلك، فالإسلام بيتي ولا شيء ولا أحد يقدر على منعي من سكناه وكشفه كما أشاء.

الصعوبة لا تكمن في مشكلة صدق مشروعي، مع أنّني كثيراً ما طرحتها على نفسي، بقدر ما تكمن في المراوحة بين هذه الأشباح. بهذه الحال الذهنية عرضت لما تسمّيه إدارة الشؤون الإسلامية «برنامج جلسات التدريب لحجّاج موسم ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩م». برنامج جميع تواريخه، ما عدا تاريخ الإعلان، كانت وفق التقويم الميلادي. لم أكن إذن الوحيد الذي يصطحب أشباحاً... ما أن احتزت «باب شالّة»، حتى وصلت إلى بناية من طراز مغربي حديث تقع في المدينة العتيقة، قريباً من السور وغير بعيد عن المقبرة اليهودية، وعبرت صحناً كبيراً، مغطّى بدربوز هائل كانت نوافذه تنير المكان، قبل الوصول إلى قاعة المحاضرات، وهي قاعة فسيحة جدّاً وذات شكل مثمّن الزوايا، كان قد ملأها جمهور عريض، يواجه منصّة احتلها الفقهاء. الحضور الكثيف هنا، وكذلك في الأروقة والصحن، كان يتحرّك في بلبلة لا تنقطع. كان يرأس جماعة الفقهاء عضو من المجلس الجهوي لرابطة علماء المغرب (فرع جهة الرباط)، من أسرة متنفّذة، وسنّ محترمة، لكنّه خفيف

الحركة وحسن الهيئة في جلباب وسلهام ناصعي البياض. كان بين عالمين معروفين جدّاً، هما أيضاً في لباس تقليدي مع بعض الشيات، حضرية بالنسبة إلى أحدهما، بدوية بالنسبة إلى الآخر. قام الرجل الجالس إلى اليمين بعرض مضطرب في مزيج من العربية الفصحى والعامية المغربية. ولم تكن لهجته الأندلسية تسهّل الأمر على غالبية الناس، القادمين من الضواحي والبوادي. أعتقد أني فهمت أنّه يؤكّد على التمييز بين «أركان» الحجّ و«واجباته»، وأنّ الأولى هي أربعة: الإحرام، والطواف سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، وخصوصاً الوقوف بعرفة. وكرّر عدّة مرّات أنّ خطأ في القيام بالأولى (أو إغفالها) يبطل الحجّ، في حين أنّ التقصير في الثانية يمكن التكفير عنه بأضحية أو صدقة. بعد هذا التعداد الموجز للمناسك، أسهب المختصّ في بعض الشروط: طهارة البدن بالوضوء وطهارة الروح بالاستغراق في عبادة اللّه، والدخول بصدق في الإحرام. وأخيراً، أكّد على الاختلافات بين الرجال والنساء. فعلى الرجال هجر المخيط من اللّباس، ولبس كسوة الإحرام؛ والنساء لم يكنّ ملزمات بهذه القاعدة: كنّ يحتفظن بالمخيط من الثياب، ولا يشترط فيه البياض، والواجب الوحيد هو ستر البدن ما عدا الوجه والكفّين. ويباح للمرأة المشي بين الصفا والمروة، بينما الرجال ملزمون بالهرولة بين الغايتين. وفي كلّ الأحوال، واجب المرأة تجنّب التبرّج، وهو كلّ هيئة للجسد غير محتشمة، دالّة على التصنّع والظهور. والخطاب، الذي كان عادياً جداً حتى ذلك الحين تحوّل فجأة إلى الموعظة ثمّ إلى الخطبة التهديدية.

«لا تبرّج، يرحمكم الله! لا اتّصال بين الرجال والنّساء، ولا رفث ولا فسوق؛ الإمساك لازم أثناء الإحرام والمناسك. وحفظ اللسان والعين. يأمرنا الله بالجدّ، والأخوّة والتضامن، وتجنّب العدوان والخصام. لا تنسوا. في الديار المقدّسة، أنتم ضيوف الرحمن...».

الصمت يثقل أكثر فأكثر:

«عند عرفة أنتم أمام الله، الإحرام كفنكم. بين يدي العليّ القدير لا ينفعكم مال ولا جاه!...»

ارتفعت أصوات بصيحة «اللّهٰ اللّهٰ! اللّه!»، مغطّية صوت الخطيب. ثمّ، لما همدت هذه الأصوات، قطعت خلاصاته همهمة الجمهور:

«هناك لا تفاوت ولا اختلاف. عالم الغرور يتلاشى في حضرة اللّه. فاعبدوا اللّه واخشوه لنجاتكم، ونجاة ذويكم، ونجاة الأمّة... ولا تنسوا الدّعاء لصاحب الجلالة الملك؛ أدعوا لصاحب الجلالة! والسلام عليكم».

بعد لحظة قصيرة من الصمت والتدبّر، تلقينا درساً آخر. وهذه المرّة تدخّل الرئيس ليفرض خطابه بالعربية الدارجة، تدعمه في ذلك تصفيقات الحضور الكثيفة.

ردّد ليتغلّب على مقاومة زملائه: «لا بدّ أن يفهم النّاس، أولئك الذين لم يتعلّموا، لم يعرفوا المدرسة، لا بدّ أن يفهموا. لا بدّ من الكلام معهم باللّغة التي يفهمونها والتعليم حتى بلغة الشارع!».

قام بتعداد شعائر الحجّ، مدققاً كل مرّة في التفاصيل: «الثوب الأبيض ليس للنّساء. الإحرام هو الاكتساء بالثوب والفوطة الأبيضين، من الوسط حتى الركبتين، وحول الصدر، مع كشف الكتف اليمنى؛ وحزام أبيض حول الوسط لمسك المجموع. ومع جيوب للنقود، لأنكم تحتاجون إلى النقود. والإحرام لا بدّ أن يلبس من غير ملابس داخلية. تقليم الأظفار وتقصير الشعر مع الاغتسال الذي يهيّئ للبس الإحرام. وبعد هذا تقول: «لبّيك اللّهم لبّيك حجّاً أو عمرة بحسب الاختيار»؛ الرجل يرفع بها صوته، وتفعل المرأة مثله لكن دون جهر. الطّواف سبعاً، ثمّ السعي سبعاً بين المروتين. إغفال هذا الركن، الذي تصاحبه تلاوة الآية المعروفة، يبطل الحجّ، وكذا سائر الأركان الأخرى. والثالث هو عرفة. يقول الحديث: «الحجّ عرفة». دائماً بالإحرام، وجوباً. إنّه موضع فسيح جدّاً، اختاره الله، أمامه جبل الرحمة. الناس يتدافعون ويتزاحمون لبلوغ ذلك الجبل. لكن عرفة كلّها أرض للوقوف؛ وفي الإحرام يتساوى الأمير والفقير. إذا كانت عندك الملايير، ستتركها هنا. عرفة هو يوم الجمع أمام الله، يوم الجمع العظيم أمام الله وهو يوم عظيم... عرفة للدعاء والصلاة؛ اللّه ينظر إلى ملائكته والدعوة مستجابة. بعد ذلك الرجوع إلى منى من طريق المزدلفة وجمع الجمرات للرجم، والهدي إذا كنتم في

التمتّع، لأنّه حينئذ تكون العمرة ثمّ الحجّ. لا تحتاجون إلى القيام بالأضحية بأنفسكم. يمكنكم إعطاء النقود لأناس ينوبون عنكم وسيُكتب لكم. الأضحية المباشرة لا تزيد شيئاً، فالجزاء هو نفسه».

ومثلما نُهج في الدرس الأوّل، فقد انتهى هذا الفقيه بالوعظ:

«كلّ حاجّ ينبغي أن يعين أخاه الحاجّ، لا جدال ولا خصام في الحجّ. لا تترك عداوة من ورائك وأدّ حقوق الناس التي عليك قبل السفر. لا رفث ولا فسوق في الحجّ. الحجّ يأتي بعد رمضان؛ في رمضان نتعلّم الصبر والتحمّل، لنعمل بهذا الصبر لفعل التقوى والأخوّة وحسن المعاملة! هذا هو شرع اللّه. تجنّبوا على الخصوص هذا: هناك من يذهبون أصدقاء ويعودون أعداء... من داسك سامحه! والأدعية دون صياح... الدعاء هو للشخص وأهله، وللأمّة ولصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. وخلال المناسك، أنصتوا إلى العلماء؛ أنصتوا كذلك إلى المطوفين! إذا بدّل أحد سيرته، «اللّه يعاونه»، لكن لا تقتدوا به. نحن في جهاد. نحن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم. نحن الآن قاعدون مع النبيّ. إذن لنلتزم بالأخلاق. نرى إخواناً بيننا يتخلّون عن هذه الأخلاق، ويظهرون القوّة والتكبّر... علينا أن ندخل من باب السلام ونقف أمام الكعبة... لا ينبغي اللصوق والتعلّق بالكعبة. لا صياح، يا إخوتي، هذه الأمور لا محلّ لها... المرأة لا تكشف عن شعرها، فالملائكة لا تقارب امرأة مكشوفة الشّعر. كلّ جهد يستحقّ الجزاء؛ اللّه يغفر كلّ شيء؛ ينبغي للحاجّ أن يكون طاهراً، منزّهاً عن الإثم بالفعل أو القول. أعانكم اللّه والسلام!».

بعد الدروس النظرية جاءت «الأعمال التطبيقية». كنّا حوالى خمس مئة شخص، ثلث كامل منهم من النّساء. قليل من الحضور سنّه تحت الثلاثين والأرجح أن أغلبهم فوق الخمسين. ناس معظمهم متوسطو الحال أو متواضعون، منهم رجال ونساء كثيرون من البوادي. حجّاج الطبقات الراقية ليسوا في حاجة إلى هذه الدّروس. كانوا يتابعونها على التلفزيون ويستطيعون قراءة النشرات التوضيحية العديدة جدّاً التي كانت في متناولهم دون مساعدة المطوّفين الرسميين ووكالات الأسفار. وضع شديد الاختلاف عن وضع الفئة التي تتمرّن على المناسك تحت إشراف مدرّبين كوّنتهم الدّولة.

دعونا للانتقال إلى الصّحن المغطّى. هناك تحلّقنا حول مجسّم كعبة مصغّرة موضوع في الوسط. خمسة متطوّعين، ثلاثة رجال وامرأتان قاموا بـ«تجربة» للشعيرة تحت إشراف «مطوّف»، كان في مقدمة الموكب، ويمثّل المراحل المختلفة للطّواف هاتفاً، بواسطة مكبّر الصوت، بالآيات والتلبيات المفروضة. وشرع مرّات عديدة في «الهرولة» داعياً إيّانا لمحاكاته، وذلك ما فعلناه بعدد المرّات التي دعانا إليها.

في ختام هذه التداريب، غادرت المكان، متعباً. كلّ ما أراه وأسمعه كان مألوفاً لي. لم أجد أيّ متعة في هذا التدريب ولم أتمتّع كذلك بتشارك حقيقي مع الآخرين. هذه الجلسات، ثم بعد ذلك كلّ تجربتي، بدل أن تأتيني بسعادة إيمان مؤكّدة أو فهم معمّق، تجبرني، بالعكس، على الالتفات نحو الماضي. كنت أعثر من جديد، مع الألفة المطمئنة ومسرّاتها، على كائن سالف في الأفعال، والكلمات، والاستعارات، والنّبرات، والحركات، والثياب، والفضاءات... أعثر من جديد على التنافرات والقساوات؛ أعثر من جديد على العطف، والثقة، والرّضى، وسكينة الانتماءات. لا التحليل النقدي، ولا المراجعات الفلسفية، ولا إعادة النظر في معجم الانفصالات (نساء/ رجال، مؤمنون،كفّار، طاهر/ مدنّس...) الذي يجعله نوع من النّفاق دائماً في الواجهة، لا شيء من هذا تمكّن من التغلّب على هذا الكائن السّالف. يدلّ على ذلك جيّداً الحبور الممتزج لتلاقينا: هذا الكاءن كان بعيداً في الماضي ومع ذلك فاعلاً في الحاضر. كنت أظنّه في الوراء حيث صرفته، لكنه مع ذلك يسكن الأفق. من منّا نحن الاثنين شبح للآخر؟

الأشباح يوجد منها دون شكّ أكثر من اثنين. تلتقي كثيراً، طامسة المعالم التي، في الاستعجال، كان ينبغي دائماً ردّها إلى مواضعها، تحت خطر الغرق خارج الأزمنة، في نوع من الحاضر الخامل، والممنوع من المستقبل. لكن كيف الحفاظ على الوجهة؟ خطواتي تعيدني دائماً إلى البلد، إلى لغاته، إلى شعائره، إلى نسائه، إلى رجاله، الناشبين في اليومي وخصوصاً في الممارسة الدينية. كان ذلك إحساساً بالرجوع إلى المركز، بعد كلّ الانفلاتات عنه. شيء ما يُجلّي عن نفسه هنا لا يمكن أن يجد حلاً في التفهّم. كان جهد

الإدراك العقلي نفسه يعطي انطباعاً بتخفيف الخناق حول وجود يدرك الامتياز النادر للتنفّس في مروج تسبق وجوده. لكن هذا الوجود، أمن الممكن أن يكون قد حُرِّفَ عن مساره فحسب؟ حركته المحتومة، وأشكاله، من أين كانت تأتيها هذه القدرة على التعبير عن أنماط وجود سالفة؟ أيكون الحجّ والدّين نافذة مفتوحة على أشكال المستقبل في الماضي؟ وجود مُعتم، كنت أحسّ جيّداً أنّ إرادتي الخاصّة تصدر عنه، باعثة الرّوح في شبح بعد آخر.

كيف التفكير أنّ هذه الإرادة في تشارك مع ها الجمهور الذي يتمرّن؟ لا شيء يمكنه إثارة رابطة انصهارية بين الأفراد، إلاّ في اللحظات الوجيزة ربّما، حيث كان الواعظ يذكر عرفة، وحضور اللّه، ويوم الحساب. كلّ واحد، مثلي، يُبقي على تحفّظه. كثيرون كانوا أمّيين ويهتّمون على الخصوص باستذكار ما كان الخطباء يعلّمونهم إيّاه. قلقهم، المفهوم جدّاً، صادرٌ عن المخاطر اللاحقة بهم إذا ما خالفوا «شرع الله»، وهو مكتوب في «الكتاب»، الذي لا يستطيع سوى العلماء قراءته وفهمه. حقاً، كان من المعلوم جدّاً أنّ بعض التفاصيل تتبدّل من مفسّر لآخر بحسب كفاءتهم المتفاوتة. لكنّهم، هم، «الجاهلون» لو نقصهم جزء من المناسك لكانوا ملزمين بإعادة الحجّ أو، في غياب الوسائل، أن يعيشوا مع هذا «الإخفاق» وأن يعبروا خطّ الآخرة دون تأدية خامس أركان الإسلام. هذا البحث تستجيب له مهنية الأطر التي تسهر على الإعداد للحجّ. قليل من الحماسة في الجملة، ولا انصهار للوعي في هذا المنسك المُنجَز ببرودة.

هذه المخاوف تغذّي إرادة عامّة في المعرفة لا تقلّ في شيء عن إرادتي. كنّا كثيرين، ربّما أكثر عدداً، نحن الذين عادوا يوم الجمعة من فبراير لمتابعة الظهيرة الثانية من الإعداد. خُصّصت هذه للإجراءات العملية و«الأوضاع القانونية». كان منسّق الجماعة قائداً من الداخلية. حذّرنا من أنّ الحجّ ليس «سياحة»، وأننا سنسكن ستّة أو سبعة في حجرة واحدة، النّساء والرجال كلّ على حِدة، وأنّ «البعثة السعودية للحجّ» تسهر بعناية خاصّة على هذا الجانب من الأمور، لأن المغرب مُنتقَد بسبب الاختلاط بين الجنسين. وأكّد أنّ النظام

سيتولاّه مرشدون دينيون يساعدهم رجال أمن سيرافقوننا. وكرّر لنا أنْ «لا ننسى الدّعاء لصاحب الجلالة». ثمّ جاءت تعليمات النظافة والصحة. نصحنا طبيب بغسل الفواكه والخضر، وبشرب كثير من الماء المعدني، وتجنّب التعرّض للشمس طويلاً لتفادي ضربة شمس، ونصحنا أخيراً بأخذ قسط كبير من الرّاحة:

«الصّلاة والمناسك تؤدّى أثناء النهار وفي بداية المساء. إذن استريحوا في الليل. الحجّ ليس هو العبادة في النهار والمحلات التجارية في الليل!».

الثرثرات، التي كانت قد استؤنِفت في البداية بخجل وتصاعدت حتى غطت على صوت الطبيب. لم أتمكّن من سماع ما كان يقوله وحركاته لم تسعفني بشيء. لكنه سرعان ما صمت، ومعه جميع القاعة، حين انتقل الميكرو إلى ممثل رابطة العلماء كي يلخّص الحجّ وواجباته الشرعية: «ما بين الأربعاء والجمعة، كما هو منصوص عليه في الجدول الزمني، من رغب في وضع أسئلة حول المناسك عليه أن يطرحها كتابة». أمّا أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة فقد استعانوا بخدمات كاتب. ثمّ إنّ العالِم، بعد أن بسمل، بسط الأجوبة على شكل قائمة:

- الوصيذة: واجبة قبل السّفر. أدّوا ديونكم وسجّلوا مديونيّتكم.
- لا بدّ من التخلّص من علاقات المال والدّيون.
- الصلاة: من لا يصلّي لا يذهب إلى الحجّ. مُروا أهلكم وأولادكم بالصّلاة.
- التوبة: التوبة النصوح لازمة.
- لا بد أن تصلّوا وتأكلوا وتترافقوا جماعة. والمغزى: أزمتنا أزمة أخلاقية. تصالحوا مع والديكم. لا رحمة لمن لم يكن على وفاق مع والده ووالدته.
- الحج أنواع ثلاثة: التمتّع؛ الإفراد؛ القران. في الحالة الأولى، ندخل في الإحرام قبل الدّخول إلى مكّة. ونعلن النّية: لبّيك اللّهم لبّيك عمرة! لأنه في هذا النوع من الحج نبدأ أوّلاً بالطّواف؛ ثمّ نشرب من ماء زمزم، ونصلّي في مقام إبراهيم، وأخيراً السّعي بين الصّفا والمروة. المنسك الأوّل والأخير هما الواجبان. العمرة كالحجّ، لكنّها لا تسدّ مسدّه، لأنّها لا تغسل سوى

ذنوب العام الفارط فقط.

- بعد السّعي هناك التقصير: أي تقصير الشّعر.

- نخرج من الإحرام. لباس الإحرام للرجال فقط. النساء: لباسهن العادي. ومهما يكن، بعد هذا الخروج من الإحرام، كلّ شيء يعود مباحاً. يمكنكم إتيان نسائكم، نساؤكم حِلٌ لكم. لكن اتّقوا الله، فلا رفث، ولا فسوق، ولا خصام.

- التلبية: هي الترديد جهراً: «لبّيك اللّهم لبّيكَ لبّيك اللّهم لبّيك! الحمد والنّعمة لك، لا شريك لك»! وما أن نرى الكعبة حتى نكفّ عن التلبية.

- ثامن ذي الحجّة ندخل من جديد في الإحرام، وجاهرين بالتلبية دون توقّف، نرحل إلى مِنى حيث نقضي اللّيلة.

- التاسع، في عَرَفة حتى مغيب الشّمس، ثمّ نعود عن طريق المُزْدَلفةَ. هناك ينبغي الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء وقصرهما على ركعتين [لكلّ واحدة]. [ثمّ جمع سبع حصيّات في المزدلفة، يليه جمع ثلاث مصبوعات من الحصيّات كلّ منهنّ تتكوّن من سبع، ثم ثلاث مصبوعات أخرى بمعنى ثلاث سبع حصيّات مضروبة باثنين، وذلك من أي مكان بالمزدلفة. ينبغي أن تكون في حجم فولة!

- العاشر صباحاً، نذهب لرمي الجمرة الثالثة ونعود إلى الخيام للاغتسال والحلق: هذا هو التحلُّل الأصغر. لكن انتبهوا، لا يجوز مسّ النساء، ولا الصيد، ولا استعمال الطيب.

- اليوم الثاني من عيد الأضحى: رجم جديد لكلّ من الجمرات الثلاث بسبع حصيّات.

- اليوم الثالث من العيد: الرجم. ثمّ السعي الثاني بين الصّفا والمروة والتحلّل الأكبر. وحينئذ كلّ ما أباحه اللّه فهو مباح.

- النوع الثاني من الحجّ، القران: الشيء نفسه ما عدا أنّنا لا نخرج من الإحرام إلاّ في النهاية.

- النوع الثالث، الإفراد: حجّ من دون عُمرة.

- في حجّ التمتّع الهَدْيُ واجب.

ـ الحيض يمنع من الطواف.

ـ الأذن المريضة: سدّها بالقطن [ثمّ الوضوء]. خارج الأذن؟ إذن التيمّم.

ـ خروج الرّيح أثناء الطّواف: إعادة الوضوء [والطواف]. إنْ كان الشخص مريضاً، إذن التيمّم.

ـ هل يمكن في التمتّع التكفير عن الإخلال (بالمناسك)؟ لا، كلّ منسك مستقلّ.

ـ الطّواف واجب في التمتّع والقران.

ـ الحاجّ ليس ملزماً بأضحية العيد. النّحر الواجب عليه يُسمّى هَدْياً وليس أضحية.

ـ الحجّ لشخص آخر باطل. حتى لو أُعطيت مالاً لأبيك لتنوب عنه.

ـ الأقراص لمنع الحيض أثناء الحجّ؟ نعم، مباحة.

ـ نقض الطّهارة بخروج ريح أو شيء آخر أثناء السّعي بين الصّفا والمروة؟ ليس مشكلة. الوضوء ليس واجباً للسّعي. إذا كان نقض للطّهارة أثناء الطّواف، فلا بدّ من إعادة الوضوء.

ـ الدّعاء قبل السّفر: الله أكبر! اللّه أكبر! اللّه أكبر! سبحان الذي سهّل لنا هذا!

ـ هل يمكن ترجمة الأدعية إلى العاميّة؟ نعم، جائز.

ـ قراءة الأدعية والسّور في كتاب أثناء الطّواف وكذا السّعي؟ نعم، جائز.

ـ إحرام؟ لا للطِّيب. قبل الإحرام نعم. لكن خلال الإحرام لا. ماء الورد؟ يوجد خلاف في هذه المسألة. كل عطر نسوي محظور لأنه يلصق بالجسم.

ـ العمرة لأب متوفّى؟ نعم، جائز.

ـ امرأة عاقر تطلب من امرأة أخرى القيام بالحجّ متمنطقة بحزامها من أجل البركة. هذا ليس بمحظور. قام أبو زيد القيرواني بالطّواف مع رسالته المشهورة للدّعاء للذين أعانوه على تعلّم العلم، وكسب الرّفاه. وبالتالي يجوز الطّواف حول الكعبة بحزام صديقتها من أجل البركة. كان من عادة الناس لبس ثوب النبيّ للبركة، وفي حال المرض للاستشفاء.

ـ الكفّارة في موضع آخر غير مكّة؟ الأفضل في مكّة، لأنّ الموت قد

يمنع منها. هذا بقدر المستطاع. وإلاّ يمكن تأديتها في البيت بعد الرّجوع.

ـ تغيير ثوب الإحرام في التمتّع؟ جائز.

ـ الأزرار؟ مباحة للنساء، محظورة على الرّجال.

ـ التمنطق بحزام؟ جائز.

ـ الاشتراك في الهدى؟ لا، وفق المذهب المالكي [الذي هو مذهبنا]، رجل، خروف؛ امرأة، خروف، في حال الحجّ مع الزوج. وبحسب المذاهب الأخرى، فالاشتراك في الأضحية بالضأن والإبل. ينبغي أن يكون الضأن قد أوفى العام على الأقلّ، والبقر ثلاثة أعوام، والإبل خمسة أعوام. وبالنسبة إلى البقر والإبل يشترط اشتراك سبعة حجّاج.

ـ الدّهن؟ محظور، سواء أكان العطر أم غيره.

ـ كلّ أمور الحجّ يجوز القيام بها في حال الحيض، ما عدا الدّخول إلى المسجد الحرام. الطّواف يكون بعد الحيض والاغتسال.

ـ الإنسان مذنب. نحن دائماً مذنبون، دائماً. حتّى المُزاح ذنب. إذن فالتّوبة واجبة، والندم على ما مضى.

ـ اتّقاء المعاصي وإصلاح الأضرار.

ـ تقبيل الحجر الأسود سُنّة. لكن تجنّبوا الازدحام. إذا لم نستطع الاقتراب من الحجر الأسود، نكتفي بالإشارة. أمّا البحث عن البركة باللّمس والاستلام، فليس واجباً، ولا سُنّة مؤكّدة. ينبغي تجنُّب ذلك.

ـ السّعي بين الصّفا والمروة؟ فقط بين العمودين.

لمّا رُفعت الجلسة قبل قليل من غروب الشّمس، هرع رجال ونساء نحو المنصّة لطرح أسئلة أخرى على المختصّين. رغم كلّ العروض، كان من العسير تمثّل دقيق لمختلف الشّعائر، وتتابعها والالتزام الصّحيح بها في كلّ الظروف. صادفت بعض المهندسين، وموظّفين، وأساتذة، بعضهم يعرفها جملة؛ وثمّة آخرون استقوا معلوماتهم من الكتيّبات التي لا تُحصى المعروضة للبيع أو في موضع آخر. كثير منهم، مثل معظم الناس، قد تابعوا عروضاً في الإذاعة أو التلفزيون. لكنّهم قلّة أولئك الذين لهم الكفاءة لمتابعة دراسة الوجوه العديدة جدّاً للمناسك التي كانت أسئلة وأجوبة هذه الجلسة لا تقدّم

عنها إلاّ مجرّد فكرة. تبادلت بضع كلمات مع أحد تلامذتي السابقين، صادفته هناك بصحبة والدته، حول المصاعب التي نعانيها، رغم أنّنا نحن الاثنين على معرفة لا بأس بها بالموادّ الدينية.

بالنّسبة إلى السواد الأعظم من الحجّاج، كانت الأُميّة تشكّل عقبة خطيرة. رجال ونساء يردّدون كثيراً على أنفسهم الأسئلة نفسها. «أفهمت كلّ شيء؟ أتعرف كيفية التصرّف؟» سألني رجل قصدني قلت: «لا، ليس كل شيء، لكن سأقرأ كتاباً. قالوا سيكون لنا مطوّف ينصحنا ويرشدنا، ويقطن معنا». هذا الرجل، الذي عرفت أنّه يتاجر في الخيول وينوي الذهاب إلى مكّة مع زوجته، ردّ عليّ: «يقولون هذا. لكن... الحاصل أنت تعرف القراءة. نحن لا. امرأتي ستتبعني. نريد أن نفعل كلّ شيء كما يقول كتاب الله؛ كيف ذلك؟ والجميع مثلنا، نتعلّم فقط بالسّمع ونبحث عن الفقيه...».

لم يكن عندي ردٌّ سوى نصحه بمرافقة حاجّ متعلّم. افترقنا ونحن ندعو بعضنا بعضاً للتلاقي في المدينة أو في مكّة، إن شاء الله! ثمّ قصد المنصّة ليطرح أسئلته.

أدهشني الطّابع التقني للعروض والأسئلة. ما عدا بضع هنيهات من الحماسة، كان الاهتمام كلّه مشدوداً إلى همّ تسجيل الأفعال والأقوال التي يلزم إعادتها في الأزمنة والأمكنة المقرّرة للحجّ. الوقت لم يكن لا للتأمّل، ولا للتبرير، ولا للحماسة. ينبغي قبل كلّ شيء تكوين فكرة دقيقة عن الالتزام الصّارم بالشعائر. وفي ما عدا بعض الملاحظات العامّة عن الخير والشرّ - «أزمتنا أزمة أخلاقية»، أو «نحن مذنبون» - كان الخطباء، وكذا المستمعون، يهتمّون على الخصوص بالأفعال والأوامر كما أوحى بها اللّه في الكتاب. من الواضح أنّ انشغالاتي كانت مرّة أخرى منزاحة عن انشغالات الآخرين، بسبب موقفي التأمّلي والتحليلي. ولمّا كان اهتمامي الفكري قد دفعني لاعتبار الدّين حقلاً للمعرفة، أدركت أنني في الواقع أساساً أمام أوامر وأفعال.

اعترضني حاجٌّ، مثل كثيرين صادفتهم، يبحث عن معرفة مفصّلة بالقواعد ليتّبعها بصرامة. أنا نفسي أعرف تقريباً هذه القواعد، لكنّي أبحث لها عن معنى. بالنسبة إليه المعنى هو الخضوع لأوامر اللّه كما قد عرضها

المختصّون، أمّا المعنى الخافي، فيعلمه اللّه وحده. وبالمقابل، كانت الأوامر المُطبَّقة تطمئنه بجعله في الطريق المستقيم. علاقة فعل بنتجية ـ بدل علاقة فعل بمعنى، أو كلمة ورمز بمعنى ـ، التقليد يربط الكلّ بمنبع حياة. مثل هذه «المناورة» لم تكن دفعة على الحساب من قرض كامل (سيأتي) للعقل. فمقاصد العناية الربّانية تظل محجوبة. إنّ معن «عقلياً» عاجزٌ عن إسعافي، حتى ذلك الذي يكون قد نتج عن الصّعوبة بالنسبة إلى الإنسان أن يحيط تفكيرهُ بتصوّره للعالم، وأن يلاحظ الغايات النهائية ومفارقاتها. استكمال ذواتهم هو ما يرغب فيه رفقائي. استكمال يُتوِّج ممارسة طويلة وحياة من التمرّن. والهمّة التي يجعلونها فيه ليست نابعة من تشكيل أركيولوجي للهويّة، بقدر ما هو جهد لانفتاحها على غيرها. الجميع بمن فيهم أنا، ذاهبٌ للبحث عن آثار. الشّعائر ترسم مسارات كانت تشتّتاتها معترفاً بها عن طيب خاطر. كنّا ذاهبين لنخلق، كلّ واحد لنفسه، جسدنا المقدّس.

الرّجال والنساء الذين أصادفهم يأتون ليتعلّموا كيف «يذهبون إلى اللّه». والقواعد التي يجتهدون في تذكّرها تستعمل في الحقيقة لإقصاء الحياة العادية. لكن ألم تكن هذه منتظمة سلفاً وفق الأوامر الأساسية للدّين؟ حقاً كانت كذلك، لكن ما كان ليجري فيها شيء إلاّ مؤطّراً بقواعد، وفواصل، وحدود. تستخدم الشّعائر تقنيناً لا نهائياً مبدئياً كان، بحصره لكلّ تفاصيل الحياة، يعترف للقلق بحقوقه. أعثر، في ما وراء المعتقدات والممارسات الأنثروبولوجية، على استلهام المتصوِّفة المسلمين الذين أعاشرهم: جلال الدّين الرّومي، وابن الفارض، وابن عربي. ألم يقل الأوّل إنّ الدّين كان حبلاً، وإنه من الضروري التراصّ جميعاً بفضله، لكنّ الحبل في حدّ ذاته لا وجهة له؟ كان إذن كلّ شيء يتعلق بالمعيش، بالإرادة الأخلاقية في ما وراء الدّيني وفي ما قبله. القلق، والعناية الدقيقة التي تفضحه، يجبرانني على العودة إلى هذه «التجربة المعيشة» للتصوّف الإسلامي التي عرف ويليام جيمس وهنري برغسون جيّداً كيف يعثران عليها من جديد.

«ماذا يقول الكتاب؟» الانزعاج والاعتناء يُستشفان من هذا السّؤال المتكرّر باستمرار أثناء أيّام التمرّن هذه. هنا كنّا نتلاقى جميعاً: ناس الشعب، من

البوادي ومن المدن، أساتذة، موظّفون، مهندسون، حِرفيون، تجّار... كان التداول اللامنقطع بين هذا «المكتوب» والشفهي، والعكس بالعكس، هو الحدث الأساسي، وأهمّ من الانتشار المحدود للكتابة. الجميع يعرف النطق بالشّهادة، والصّلاة، والصّوم، إلخ. لكنّ الزّكاة تطرح مشاكل «تقنية» وتضطرّنا إلى اللّجوء إلى «العلماء». الحجّ كانت له خصوصيته: ليس واجباً إلاّ مرّة واحدة في العمر، وإذا كان في استطاعة المؤمن فقط...

الجمهور الحاضر له طلب محدّد: تسجيل أوامر اللّه. هذه الأوامر «مكتوبة»، «مقيّدة»، «مُعيّنة» في «كتاب». ما المقصود بهذا؟ المقصود بالضبط «الاستماع»، و«الإصغاء» إلى كلام موثوق بصدد هذه الأوامر. عبور إذن بواسطة الشّفهية لسلطة، هي السّلطة بعينها. سلطة استقامة المعتقد من حيث هي احتكار لمعرفة الأصل. هذه السّلطة المتجسّدة في الشفهية، بدل أن تتعارض مع الكتابة، تضيف إليها هالة وتأتي لتعميمها بالمعنى الذي يُؤسِّس فيه مجتمع «المكتوب». كنّا مجتمع كتابة، مُنظماً بواسطة المكتوب وعلى المكتوب، وهكذا ينبغي تعريفه، اليوم كما في الماضي. في جلسات التّدريب هذه، يمكن أن تكون مهندساً أو أستاذاً، أن تقرأ العربية، أو الفرنسية، أو الإنكليزية، ومع ذلك يلزمك المجيء لسماع ما يُبيحه قولٌ مُدوّن في شكل خطّي. إنّه وضع مقابل لما يجري في مكان آخر يتعلق بدوْر الكنائس والمفسّرين... الطّلب هو هو ووحدهم أولئك الذين يستندون إلى سلطة «الكتابات المقدّسة» بمقدورهم الاستجابة للطلب. وبهذا المعنى، لم يكن يوجد مؤلّفون، و«العلماء» يستمدّون سلطتهم من ممارسة النّص المؤسِّس وتأويلاته. لزمن طويل، تعايشت السّلطة الكتابية، في علاقة غير مستقرّة، لكنّها محدّدة المعالم (التي تبدو على طول المدّة، وبعد انقضاء الأوان، على أنّها ناجعة) مع الحكم ووسائله للهيمنة، والدّفاع، وتمثيل الأمّة. واليوم تمدّ الدّولة التسلطية حكوميّتها المُعمَّمة إلى تنظيم المعتقّد المستقيم نفسه.

الإعداد للحجّ يتوجّه إلى جمهور قد شكلته القوانين المستنبطة من تلك المكتوبات، وقد صارت تلك القوانين منذ زمن بعيد ممارسات، بمعنى تراث مُتَمَثّل. ومن جهة، يمكن ملاحظة أن هذا التمثل لم يحدث بشكل متطابق

عند كلّ الأشخاص. ومن جهة ثانية، بداهة أنّ أقوالاً مغايرة، أُدمجت هي أيضاً، تُشوّش كلّ السّلطات النصّية. مثلاً، احترام علماء الدّين وكذلك اتّهامهم، الحضور إلى التدريبات بثياب تَشي بتفصيلات الجسد، وجمال العنق، والوجه، والشعر. ما يبدو حاسماً ليس سلطة النصّ، ولا تمثّله على مدى حياة كاملة - سيرورة هي في آنٍ لا تقبل الجدل وعامرة بالثقوب، والاختلافات، والتفكّكات -، وإنّما واقع أنّ كلّ هؤلاء الأشخاص الموجودين من حيث هم كذلك كانوا حاملين لطلبات إلى النصّ.

استبان هذا أيضاً باحتفالات الوداع التي تسبق السّفر، وهي مرحلة أخرى من الإعداد للحجّ. كانت لي مناسبة الاشتراك فيها في جماعة بجبال أطلس مراكش، بعيداً عن الرّباط. دعاني إليها صديقاي القديمان لحسن وفاضمة. كانا قد ساعداني في أبحاثي في هذا الجزء من الجبل المغربي، في السبعينيات. لحسن، الذي يعرف القراءة والكتابة، الورع والمنفتح، يؤدّي مهامّه بأمانة. فتح لي باب أسرته، وفاضمة، زوجته، أحاطتني بعناية الأخت للأخ. كلاهما كانا يعملان بهمّة وانطلقا بنجاح، كما قلت، في مشروع سياحي. كان لحسن وفاضمة قد شاركا فعلياً، لمعرفتهما الجيّدة بالموارد المحلّية، في إنجاز شريط سكورسيس، كندون، ومن هذه المشاركة يحتفظان بصور، وأشياء، وتذكارات، وعناوين... لمّا عزمت على القيام بتجربة الحجّ واقترحت عليهما مرافقتي، قبلا قائلين لي: «سنكون سعيدين بأن نذهب جميعاً ونتناقش، كالعادة، معك. ستفعل ما تريد. المهمّ هو النيّة، ونيّتنا نحن هي أداء واجبنا نحو الله...».

في الرابع والعشرين من فبراير ١٩٩٩ وصلت عندهما. في يوم أربعاء، وقت العصر. أجلْتُ بصري في القمم المحيطة التي تميل إلى الورديّ. هذا الجبل، مرّة أخرى، له القدرة على تهدئتي. تلقّاني صديقاي بحرارة أعادت لي الحياة بعد يوم طويل من السّفر والاستبطان. بعد الشّاي، قدّما لي هديّتهما: ثوب إحرام كامل بحزام أبيض، وجلباب أبيض، وبُلْغَة صفراء. «قمنا بهذا لتربح عناء الذهاب لابتياعها بنفسك». عانقتهما معترفاً في بهجة بهبَة الصّداقة. وأنا أشكرهما، قلت إنّني قرّرت الحصول على لباسي هناك،

في عين المكان. ردّت فاضمة: «آه، غالٍ جدّاً هناك! كلّ شيء شديد الغلاء في مكّة....». أخبراني أنّهما ذهبا للبحث عن هذا اللّباس في مرّاكش، في المواسين السوق المعروفة، عند بائع ثياب الإحرام، وهو نفسه كان حاجّاً. ثمّ شرحت لي فاضمة كيفية ارتدائها، وشجّعني لحسن باسماً.

أنزلني لحسن وفاضمة في حجرة لأستريح قبل حفل الوداع. أغمضت عينيّ مفكّراً في لباس الإحرام هذا. يبدو لي جنائزياً، ولِحُسن حظّي، لم يكن عليّ تكفين جسدي فيه حالاً. لم أستطع التآلف مع هذه الفكرة. وبقدر ما كانت قراءاتي عن الحجّ تتقدّم، كان تداعي هذا اللّباس مع الموت ينتهي بالاستحواذ عليّ، وبشكل ملموس أكثر فأكثر. الإحرام: الكفن؛ لا شكّ في المعادلة. حين دوّنت هذا في يومياتي، فكّرت أيضاً، وبشكل طبيعي جدّاً، في الشّبح. وآنئذ أدركت أنّه قد انضاف إلى تعاسة التخلّي عن الأمل في حياة خالدة، ضرورة التخلّي هنا في الدُّنيا عن حياة من جزء واحد. ألم أصبح شبحاً لنفسي من فرط التغيّرات؟ أحياناً كان مجموع حياتي يجري أمام عينيّ كرحلة عبر عوالم غريبة. قبائل، مدن، بلدان. نقص، وفرة، جهل، معرفة، لغة، حياة زوجية. بورجوازية، فلاّحون، جماهير حضرية منهارة. وماذا نقول عن أشكال الفكر والإحساس، وإعادة النّظر، وفي المقام الأوّل، عن الدّين المُلقن؟ بناء هشّ لهويّة مجموعة بجهد العناء، مشروخة دوماً. كان لا بدّ دون هوادة من تجميع قوى، ومبادرة للإمساك بالحياة بين اليدين. يلزم أوّلاً أن تحتفظ بها، ثمّ أن تصنع منها شيئاً بعد ذلك.

جاء لحسن، نحو السّابعة مساء، ليقودني إلى الحفل. كان الهواء بارداً ومظلماً حول بيت المضافة الكبير الذي يديره الزّوجان. قصدنا الحجرة الكبيرة المستطيلة الموجودة مباشرة على يمين المدخل؛ كانت مؤثّثة على الطراز المغربي، بسدّاريات على طول الجدران. على الجدار، رسوم مائية أهداها سائح إنجليزي، وهذا أمر نادر هنا. يجلس رجال على السّداريات، ستّة منهم من الطُّلبة حفظة القرآن، في مؤخّرة الحجرة؛ أحدهم، في طور التكوين، لا يتجاوز الخامسة عشرة. سي محاند، حافظ للقرآن ومدرّس بكتّاب تاركة، أي الطّالب بالعامّية، لم يتعرّف عليّ فوراً، فذكّره لحسن بنقاشاتنا التي تعود إلى

أكثر من عشر سنوات. عانقني. كنت متوتّراً والمزاج العامّ هو الصّمت والتصنّع. كلّ هؤلاء الرّجال كهولٌ منغمرون في جلابيب رمادية، على رؤوسهم طاقية أو عمامة، مدسوسة في قبّ الجلباب. كان الشّتاء والهواء باردين. وبالتدريج وعيت أنّني كنت مكشوف الرّأسن ببنطلون وجاكتة أميركيين... تقبّلت، ليس دون تحفظات، الصّورة التي أعرضها وعليّ التسليم بهذه النقطة: الرجال الحاضرون لديهم صورة عنّي لا أستطيع التحكّم فيها.

ذكر سي محاند أحاديثنا الدّينية الماضية عن الأضحية وصورة إبراهيم، «أبونا المشترك مع اليهود. هم الذين كانوا الأوائل في الاستفادة من الرّسالة التي تقرّب في ما بيننا... هذه الأولوية لهم... حتى الرّسالة التي لنا ختامها...». وأضاف مستخلصاً: «لكن أيّ تقارب اليوم؟ مع ظلم الفلسطينيين وإذلالهم، وسلب حقوقهم...». قليلاً قليلاً صار الحديث جماعياً. كلّ واحد ذكر على طريقته حروب الشّرق الأدنى. سي محاند وأنا استعرضنا معارفنا، منهم الطُّلبة حفظة القرآن: سي عبد الكريم من القرية «الفوقانية»، الذي مات منذ سنين، سي سعيد وسي عمر من طريقة سيدي فارس، على المنحدر الشمالي الغربي لهضبة الأوكايمدن، وهو مركز نشيط في الماضي، مهجور اليوم. «الجميع رحل إلى مرّاكش أو الدّار البيضاء»، قالها سي محاند في الختام.

بعد قليل وصل الشيخ، مع مدير المدرسة وكذا رجال آخرين. استقرّت جماعة من النساء مع فاضمة في حجرة مجاورة. بدأ الحديثُ مع المدير الذي التقيه للمرّة الأولى. «زوجتي تقطن في الدّار البيضاء مع الأطفال... أنا آخذ الطريق، هذا يدوم منذ سنوات... أتعرف الأمازيغية؟» أجبت «قليلاً». هو نفسه يتحدّث بالعربية مع المدعوين، الذين يجيبونه على سبيل الاحترام باللغة نفسها. استقرت البورصة المعتادة للّغات: أهل البلد يتحادثون بالأمازيغية ويخاطبون المدير ويخاطبونني بالعربية. يصل رجال آخرون، مرتدين الجلابيب نفسها من الصّوف الرمادي: جميعهم كهول، ما عدا شابّين، بلحية مقصوصة بعناية على طراز السّلفيين الراديكاليين الجدد، الذين صار من المعتاد تسميتهم بطريقة غير ملائمة بالإسلاميين أو الأصوليين. أكّد لي لحسن في ما بعد انتماءهما إلى جماعات سرّية لم تُحدّد لي أسماؤها:

«نعم، إنّهما من «الإخوان»؛ كانا في ثانوية مرّاكش. ويذهبان كثيراً إلى المدينة. يحاولان الكلام مع النّاس، لكن لا أحد يريدهما. أحدهما ابن خالي. لمّا يقترب منّي، أبتعد عنه على الفور. ديانتي، هي أمر بيني وبين الله. في هذا الجبل، لا يريد النّاس أشخاصاً من هذا النوع». استقرّ الشابّان قريباً من المدخل متجنّبين السّلام عليّ. سرى الدّفء في الجوّ وبلغ الأمر تبادل بعض النّكات. نحو الثامنة والنصف، ساد الصّمت. شرع طالب، شابّ متين، في تلاوة القرآن، فاحتذاه الآخرون جميعاً على الفور. تلوا ثلاث مرّات ربع حزبٍ من القرآن. دام ذلك نصف ساعة، ولمّا توقفت القراءة، استؤنف الحديث. رجل من تاوريرت نوفلا مازح المدير حول الضيافة البيضاوية. فردّ المدير: «أستضيفك عندي أربعين يوماً!». أجاب آخر مخاطباً ذلك الذي كان يمازح المدير: «نعم، المقاهي، والفنادق، والمطاعم رهن إشارته!» ضحكات. تابع المدير: «أنت ضيفي ثلاثة أيام وبعد ذلك أعطيك مطبخاً منفصلاً!» ضحكات. ختم الشيخ: «ثلاثة أيام، ضيافة النبيّ!». استمرّ احتساء الشّاي وتناول الحلوى المرّاكشية باعتدال. ثمّ تلاوة جديدة، متبوعة بلحظة توقّف جديدة، متبوعة بتلاوة جديدة: هذه المرّة آيات معروفة عن الحجّ، والسّاعة، والحساب، وجهنّم بكلّ فظاعاتها. تلوا كذلك الآيات التي تذكر «آيات» توالي اللّيل والنّهار بحساب معلوم وعلم الله بـ«ما في الأرحام»؛ آيات تُفْحِمُ الكفّار والمشركين، مؤكّدة أنّ الله لا شريك له، محيط، بصير، عليم، عنده علم السّاعة «لا ريب فيها». طفت مسحة من الكآبة على الوجوه بعد هذه القراءات. صلّينا العشاء، ليس دون تردّد حول اتجاه القبلة. كان جسدي يقاوم الرّكوع والسّجود، لكنّي تمكّنت من السّيطرة عليه بطريقة ما. وعلى الفور قال سي محاند خطبة. ذكر الحجّ، وكذا الأماكن الأخرى التي تجب زيارتها: المدينة، القدس. ثمّ جاء عرض الأركان الأربعة، وفي ما يخصّ الحجّ وجوب «صدق النيّة»... وذكّر: «إننا هناك أمام الله لا وسيط، لا قوّة، لا مال...». «لا شيء يحميكم... لا شيء تمتازون به». نطق سي محاند هذه الأقوال بقوّة كي تتمكّن النّساء كذلك من الاستماع. خاطبنا بالأمازيغية، وكان يورد بالعربية الآيات والأحاديث التي اختارها للاستدلال. الحجّ «ركن واجب

لمن استطاع إليه سبيلاً». وحثّنا على الشّهادة، والصّلاة، والصيام، والزّكاة. الزّكاة «حقّ الفقراء» ميّز سي محاند فئتين من الذّنوب: ذنوب في حقّ الخلق، وذنوب في حقّ الخالق. «الأولى، اللّه يغفرها إذا غفرها المخلوق. والثانية يغفرها اللّه لأنّها بينه وبين الإنسان» فمن الواجب إذن إصلاح الضرر وطلب الصّفح من أفراد الجماعة قبل السّفر.

ثمّ فصّل سي محاند الحديث عن الأُسس الثلاثة للإسلام: الإسلام، الإيمان، الإحسان. «الإسلام: هو أن تشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسوله، تلك شهادة بأنّه تعالى لا شريك له. الإيمان: هو الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته وبيوم الحساب. الإحسان: هو العمل بالقواعد الأربع وفعل الخير. إنّه أوسع من الإيمان. أمّا يوم الحساب فلا شكّ فيه لكنّ ساعته لا يعلمها إلاّ اللّه وحده». تغيّرت النّبرة حين بلغ سي محاند علامات «قيام الساعة». أشهدنا، وذكر «هذا الخلط الذي لا تعرف فيه الرّجل من المرأة... وهذا البنيان الذي يغطّي الأرض، هذا التطاول في البنيان الذي هو من أشراط الساعة». ثمّ توقف فجأة ورفع كفّيه إلى السّماء، حركة حاكيناه فيها جميعاً، وتوجّه إلى اللّه بدعاء طويل للمغفرة.

تلا صمت عميق هذه الخطبة. هيمن ثاناتوس (إله الموت) على الكون بأسره: وجوه قاتمة رصينة... لمّا قُدِّم الكسكس دبّ قليل من الحياة والبهجة أعاد النشاط إلى مجلسنا. لاحظ لحسن كأنه يقصدني بالكلام: «الكسكس وحدة يليق بالصّدقة». كثيرون تناولوه بالملعقة، لكن الطُّلبة لم يستخدموها، ورفضها سي محاند بحسم، بحركة واضحة، دون تبجّح. كان الأكل بتحفظ، دون إفراط. وفي نهاية الطّعام، جمع سي محاند بعناية حبّات الكسكس التي سقطت على الموائد وازدردها بكلّ تواضع، شاخصاً باستقامة إلى الأمام.

نُظّفت الموائد لتوضع عليها من جديد أدوات الشّاي. افتتح سي محاند جلسة الدّعوات. دعا أوّلاً للحسن من أجل دينه، وصحّته، وأسرته، ومتاعه وبالتوفيق في حجّه الذي توسّل إلى اللّه أن يقبله. ودعاه تعالى أن يجازيه على الصّدقة وتوسّل إليه أن يُرجعه سالماً غانماً، ويهبه الصّبر والتحمّل اللازمين. أثناء ذلك وضع لحسن بتكتّم مبلغاً من المال في يدي الدّاعي الذي واصل

دعواته لزوجته فاضمة، ولازدهار «الدّار» وسعادة الأبناء. دعا لي أيضاً. لكن التّعداد كان بوضوح أشدّ اختصاراً، الأمر الذي ضايقني جداً. ثمّ دخلت صديقة لفاضمة لتقدّم صدقة وتتلقّى دعوات جديدة لها، ولابنتها وزوج هذه الأخيرة الذي منح هبة للطُّلبة.

وسط هذه الدعوات، أشار لي لحسن بأن أتبعه. قال لي: «هيّا لترى الآخرين في صحن الدّار». هم «الصّغار» مجتمعون هنا كالعادة. الجمع الكبير الذي غادرناه يتكوّن من «أرباب الأسرة»، ما عدا الشّابّين «السّلفييْن»، اللذين لم يرغبا، رغم صغر سنّهما، في الاختلاط بهذا «الجمع الأصغر»، كما يُسمّى عادة. هنا ينكّتون ويدخّنون كثيراً. لحق بنا بعض الطُّلبة فدَعَت هذه الجماعة طويلاً للحسن. عدنا على الفور إلى الحجرة حيث الجمع الكبير. قرأنا الفاتحة، ثمّ انصرف الناس وهم يعانقون لحسن. بعضهم، ومنهم سي محاند، فعلوا مثل ذلك معي. توادعنا طالبين المغفرة بعضنا لبعض. تخلّفت جماعة من الرّجال لبعض الوقت. شربنا قهوة معهم، بصحبة فاضمة ونسوة أخريات، وقوفاً جميعاً، في الفناء الخارجي للبيت.

بقيت هناك، مع لحسن وفاضمة، بعد أن أجبت عن بعض الأسئلة التي طرحها عليّ فتى فلاّح، مسؤول عن جمعية للتنمية القروية. كنت أنظر إلى الكتب والنشرات التي خلّفها الزّائرون الأوروبيون الذين كانوا يقصدون هذا الوادي العالي، غير بعيد عن قمّة توبقال. ألبوم للصور يُظهر قرى قد تحوّلت إلى ديكور من بلاد التبت، لفترة تصوير فيلم. «هؤلاء النّاس الذين في الفيلم هم مثلنا. جبليون مع زعيم ديني يُجلّونه... أهل السينما، أيّ قوّة! لقد أقاموا كلّ شيء هنا، كان ينبغي أن ترى عدد السيّارات، والهيلكوبترات... ملايير!...». ذكرت فاضمة تصوير الفيلم الذي حوّل لفترة، بطريقة باهرة، الفلاحين الأمازيغ إلى تيبيتيين متلّقين حول دالاي ـ لاما. غيّرتُ الموضوع بتهنئته على هذا الحفل الناجح. ردّ لحسن: «الصّدقة شيء جيّد. لا حجّ بدون صدقة... تدعو الناس. هنا كان ستّة وثمانون شخصاً في المجموع؛ من قريتنا، لكن أيضاً من القرى الأخرى للقبيلة. وحين العودة، سيكونون معك [...]. إذا لم يأتوا، إذا لم تفعل هذا، فلا حجّ لك... سترى، طوال أيّام وأيّام سيأتون

إلى هنا راقصين، وينصرفون بالطّريقة نفسها. تلك هي العادة؛ ثمّ كلّ واحد يفعل ما ينبغي له فعله. الطُّلبة، أولئك الذين يأتون لقراءة القرآن، ماذا تظنّ؟ ياتون أيضاً لأنّهم يربحون نقوداً». ابتسامة «أنا فرحان بأداء هذا الحجّ. ليتقبّله الله!». غادرت لحسن وفاضمة في يوم الغد، وقد طمأنتني صداقتهما والرّابطة التي تستديم معهما وكذا مع غيرهما، مثل سي محاند، الذي بدأ شعره يشيب مثل شعري.

وأنا أكتب هذه السّطور، استعدت قراءة فقرة من يومياتي، حول ذهابي إلى الجبل. في اتّجاه الجنوب، على الطّريق السيّار الرباط ـ الدّار البيضاء، أدركت أنّ ردود أفعالي بطيئة، وأنّ يديّ وقدميّ، بدل أن تُشَغِّلَ بشكل طبيعي مقابض الآلة، لا تفعل ذلك إلاّ بتفاوت خفيف. وعيت الخطر. كنت متيقناً أن البحر حقاً علي يميني (كالمعتاد)، ومع ذلك أتحرّك دون معالم. هكذا كان العالم ينسحب. قدرتي على التفكير مركّزة فيه، لا أنا. انسحاب الأشياء هذا في الواقع هو انسحابي. هذا النوع من المنفى في الفراغ دام حقاً ساعة. لمّا فارقني أخيراً، تنشّقت سعادة حضور متجدّد. على مدى أعوام طويلة، جهدت في جعل أشكال حياتي المغربية على مسافة، مع الحفاظ معها على رابطة جوهرية. لكن دون شكّ لانشغالي زمناً أطول ممّا ينبغي باستكشاف تقاطيع هذه الأشكال، تهت فيها وفقدت مراراً معنى الخارجانية ذاته. كانت هويّتي مهدَّدة آنذاك بالتطابق مع «عودة» للأشياء في طبيعتها المُطَلْسَمة؛ اللامكترثة لنداءات الموت. لكن في الحال، كما بعد التدريبات الطقوسية المتابعة في الرّباط، أنقذني شيء ما. أو، على الأقلّ، ذلك ما أحسست به. أشترك مع رفاقي، في ما وراء التساؤلات والخيارات البعيدة عن العقل الديني، في شيء يتّصل بشكل خاصّ من الإنسانيّ: إنساني منذ قبل الإنسيّة، نوع من المُسْبَق الذي منحني هِبَة الحياة، وإرادة الحياة القائمة فيه وأمامه.

كانت الطقوس تُوصل إليّ رعشات هذا الإنساني المُسبَق، دون زعم بالكونية، كم تحفظ في الذاكرة تكوّناً وانتشاراً دون ذاكرة. باختصار، تربطني بنَسَب يمكن القول عنه إنّه رمزيٌّ لو توجّهت العناية إلى البحث عنه في خارجانية مُستعادة، في التعاصّرية الدّائمة الحضور لكينونتنا الجامعة. تراث

اتّخذ صورة نصّ أصلي ومَتْنٍ من النّصوص، بمؤسّساتها من سلطة، وإسناد، وممارسات ومعارف تتّخذ في التعلّم المستمرّ بداهة أشكال الحياة. ومهما قيل، فإنّ هذه الوشمات أو التدوينات، في البصمات الجسدية وبواسطتها، لم تكن نتيجتها قط الرّتابة الموصوفة بها. أولئك الذين أتاحت لي الفرصة مخالطتهم لم يكونوا بتاتاً يعيشون الخصائص الإسلامية في الرّتابة. التراث ونصوصه لا تكفان عن التناسخ في تيّار النقل الشفهي الذي هو كالمادّة ذاتها للطّقوس. هذه الشّفاهة لا تُعيد إلى أصول، وإلى مصادر فحسب؛ فهي بإنتاجها لكلّ هذه التّبدُّدات إنما تُعيدنا إلى زمانيات وجودنا.

الفصل الرابع

عبادة وبضاعة

المدينة! المدينة المنوَّرة! عند الغروب، تحرّكت الحافلة الحاملة للعلم المغربي، في طريقها إلى المدينة. المدينة الموشّاة بكلّ صور الجاه، مدينة النبيّ، وبيته، ونصْرُ حياته وعمله. أتخيّلها دائماً في عمق واحة مخضرّة مع حشد لا نهائي من المنائر التي تبثّ بعيداً أنوارها والوحيدة التي احتفظت بقوّة الأصول.

حافلتنا، التي استأجرتها شركة للحجّ، كانت ممتلئة. وعدونا بواحدة مكيّفة الهواء. هي كذلك، لكن مقاعدها الضيّقة والعدد المرتفع للركّاب تجعلها على الفور غير مريحة. لمّا غادرنا حدود مطار جدّة، كان لا يزال ضوء الشّمس الغاربة يغمر السّهل الصّحراوي الرّمادي الكبير تحت سماء صافية. لكنّ اللّيل هبط سريعاً واختفى كلّ شيء في الظّلام. رُحْنا نسير ببطء على الطريق السيّار، غير المرئي، كأنّنا في سفينة تغوص في الظّلمات. من وقت لآخر كنت ألمح هيكل شجرة أو شكلاً من التضاريس. تعب السّفر في الطائرة، والحرارة الرّطبة، وروائح العرق، وبطء الحافلة والرّتابة، كلّ هذا ينهك الحجّاج الذين ما أسرع ما غلبهم الخمود والنّوم.

إلى أين نسير إذن؟ حركة الحافلة البطيئة، صوت المحرّك، تلاوة مستمرّة للقرآن. أعلم أنّنا نتقدّم نحو الشمال، لكن إلى أين؟... نحو المدينة المنوَّرة! تلك التي كت أظنّ أنني أعرفها جيّداً، التي كنت أستطيع وصف واديها وجبالها؟ تلك التي أرى في هذه اللّحظة ذاتها القبّة الخضراء تؤطرها منائر من طراز عثماني؟ تلك التي أتخيّل فيها دوماً القبر تحت الكسوة الفاخرة... تلك

المدينة، التي آوت النبيّ، مدينة سِيَرهِ، والمعارك والانتصارات، والتكوين المتعدّد الأديان، أعرفها جيّداً؛ أحيا فيها دوماً، أو، إذا شئنا، هي تحيا في ذاتي.

في الطريق، كانت مدينة أخرى تباغتني. هل أملك أيّ وسيلة لتخيّلها؟ سرعان ما أدركت أنْ لا. ما يعود دائماً، هو الرّؤيا السّاطعة للرّحلات المقروءة أو المسموعة. ها أنا إذن أُبحر نحو مكان مجهول، يكسوني العرق، والأذنان عامرتان بضجيج المحرّك الممتزج بالترتيل القرآني. تضاعفت وحدتي لمّا أفضيت لجاري بما أحسّ به. لم يُخف دهشته وأفهمني بفظاظة قطعَ حديثنا. أن لا تعرف شيئاً عن هذه المدينة؟ هل هناك معنى لمثل هذا الاعتراف؟ ألم تكن عندي معرفة، مثل كلّ مسلم، بالمدينة المنوّرة؟

هكذا طُرِدْتُ إلى ذاتي فامتنعت عن كلّ محاولة جديدة. كنّا نتقدّم دائماً. بعد الترتيل جاءت المواعظ. في كلّ مرّة، كان السّائق أو أحد الركّاب هو الذي يتبرّع بشريط التسجيل على المسافرين. وبسبب الضجيج، من المستحيل متابعة الدّروس والمواعظ. من حين لآخر أتمكّن من تسجيل نُتَف ومقاطع، تتناول شعائر الحجّ، من المبالغة القول إنّي أصغيت إليها، إذ كانت تصلني بالأحرى بشكل متقطّع وأنا بين اليقظة والنّوم. كان الصّوت يقول: «الرّجال لا يُصلّون وراء النّساء، والنّساء يصلّين وراء الرّجال. أمّا الإحرام فهو للرّجال، النّساء يلبسن لباساً عادياً، اليدان والوجه مكشوفة دون تبرّج... والتلبية جهراً للرجال فقط؛ والهرولة للرّجال فقط».

كنّا نسير منذ ساعتين وقليلاً قليلاً أخذت أتعوّد هذا الوضع الجديد. حاجٌّ يسافر، مع حجّاج آخرين، باتّجاه المدينة المنوّرة. عليّ الاكتفاء بهذا. من النافذة لا أبصر شيئاً، ما عدا، هنا وهناك، بعض بنايات قليلة مُضاءة بالنّيون، غير بعيد من الطّريق، تبدو لي مثل ديكور معلّق فوق الأرض التي لا أراها. كذلك اللّحظات التي أتخيّل فيها نفسي معلّقاً في سفينة سابحة نحو مدينة ذات إحداثيات مجهولة، مخبوءة في أخرى مألوفة جدّاً عندي. أثناء الطّفولة وشرخ الشّباب، تعلّمت فحص العالم على ضوء نورها. أدعو أبطالها بأسمائهم الشّخصية، والمخالطة الدّائبة مع سكّانها عرّفتني بأمورهم: طبائع

فردية، أسر، عشائر، أحلاف، أحزاب، دسائس... أعرف إنّ كانوا مخلصين أم خونة، مؤمنين صادقين أم منافقين، مهاجرين أم أنصاراً...

كنت منقولاً هكذا، مصروراً كصُرّة بين صُرّرٍ أخرى، نحو مكان مجهول يحجبه، مثل نور معاكس، نورُ المدينة الوهّاج. بضاعة، حاجّ لا غير ولا شيء آخر، مسلوب من كلّ هويّة أخرى: بطائق، جواز، تذكرة الطائرة، كلّ ذلك قد لقطته الشّركة التي تدبّرنا حتى نهاية السّفر. حاجٌّ يُتعرَّف عليه بالاسم، والجنسية، والعنوان في المدينة. مُسجّل بعناية وفق الإجراءات، العديدة والمتقاطعة، للأمّة السّعودية. خاضع لسوق الحجّ، مقذوف به على الطّريق لتلافي مصاريف ليلة في جدّة، وفق قانون رأسمالية لا حدّ لها سوى الحدّ الذي يمليه «كتاب اللّه» - وفق التأويل الوهّابي. غادرنا المغرب هذا الخميس صباحاً. وبعد طيران دام خمس ساعات، قضينا بقيّة اليوم في المطار بين الصّلاة والانتظار، في الأماكن المخصّصة للمغاربة. وكسائر القوميات، كنّا مُؤطّرين برايتنا، تحت حراسة «البعثات الوطنية» والبيروقراطيات المحلّية.

في ساعة متأخرة من اللّيل غادرت حافلتنا الطّريق لتتوقف أمام بعض البنايات المضاءة بالنّيون. ثلاثة أو أربعة مقاهٍ شبيهة بالمباني «الحديثة» التي قد نصادفها في كلّ المدن العربية اليوم. هياكل من الإسمنت وجدران مصبوغة بالبياض. مشارب مُرتجَلة في عمق قاعات مزحومة بموائد وكراسيّ من خشب، وحديد، وفورميكا. اخترقت إحدى هذه القاعات لأقصد المراحيض الموجودة في العمق. لم أستطع بلوغها بسبب التّزاحم فانصرفت للبحث عن دورات مياه أخرى. وأنا أخترق أرضاً خالية، كان عليّ المرور بين تحويطات صغيرة تحميها جدران بارتفاع متر تقريباً يتميّز بياضها بقوّة في عتمة اللّيل. علمت أنّ هذه المعالم تُخصَّص مُصلى للنّساء، فتعجّبت. ليس ذلك بسبب الفصل بين الجنسين، الممارس بشكل واسع في المغرب، فنمط حياتي الشّخصية لم ينفلت من ذلك الفصل إلاّ أخيراً، هو حاضر دائماً، في كلّ مكان وكلّ لحظة، في أماكن الحياة العامّة كما في أماكن العبادة. التعجّب جاء بالأحرى من أنّ هذا الفصل له مظهر شيء لم تسبق لي رؤيته، ويتجسّد في نوع من الصّنع الغريب. كان بالفعل تأسيساً فريداً، تستمدّ منه المكعّبات

البيضاء قوّة خاصّة: شكل غير مسبوق يتّخذ مكانه في حقل المرئيّ وبين طرائق الصّلاة. تتوجّه النّساء هكذا، منفردات، في فضاء لا مقارنة له بفضاء الرّجال. في المسجد، يُستحضر وجود نهائي في مكان مشترك؛ حتى إنْ كان هذا الأخير منقسماً، فهو يظلّ مع ذلك مشتركاً. هنا، كان متشظّياً. أيّ نظام كان يُراد بناؤه بواسطة هذه التحويطات؟ هل تقرّر أنّ الله يلقى النّساء منفردات؟

بعد انتظار طويل، استطعت بلوغ المراحيض. الرّائحة لا تُطاق، والقذارة لا تحتَمل، على الأقلّ بالنسبة إليّ. توضّأت وضوءاً أوّلياً، وذهبت مع بعض الحجّاج للصّلاة في مسجد يعلوه الغبار. اقتصر العشاء على بعض الفاكهة، وفي المشروب كان لنا أنْ نختار بين فانطا، وبيبسي كولا وبعض المشروبات الغازية من أصل أميركي شمالي.

واصلنا الطريق في وقت متأخّر من اللّيل. يبدو لي لا نهاية له. وعيي بالزّمن يترنّح. يستقرّ الصمت قليلاً قليلاً بقدر ما كان النوم يهبط على المسافرين. لست أدري إنْ كنّا لا نزال في يوم الخميس الرابع من مارس أو في الساعات الأولى من يوم الجمعة الخامس منه. اليومان يتداخلان في نوع من المزيج الذي تتدبّق فيه الذاكرة. الوجود نفسه، وجودي، أخذ يقتحمني من الخارج: قراءات للقرآن بأصوات سعودية حارقة، ومصرية زاعقة، ومغربية متأمّلة؛ خطب ودروس عن الحجّ يلقيها رجال وزارة جديدة ابتدعها الملك فهد، «خادم الحرمين الشّريفين، لمراقبة العبادات والمعاملات، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقمع كلّ تلاعب بالدّين». أصوات القارئين، والخطباء، والوعّاظ تشكّل مع هدير المحرّك احتباكات صوتية تُسمع على مدى البصر، وعلى مدى السّمع. وفي إغفاءتي، أيقظني مرّتين توقف الحافلة من أجل «التحقيقات الجاري بها العمل»: كان ممثل للشركة السعودية وشرطيّ يقومان بعدّنا، ومراقبة أسمائنا الشخصية والعائلية، بعد ذلك يتركاننا نستأنف الطّريق إلى المدينة.

استيقظنا جميعاً عند حاجز أمني يقطع الطريق في مدخل المدينة المقدّسة. بعد التفتيش المعتاد، سارت حافلتنا مدّة على طريق جديدة. توقفنا أخيراً عند

بناية إدارية. لم يُطلب منّا الهبوط. من النافذة، رأيت للمرّة الأولى المدينة: حافلات مركونة في صفوف، حتى الأفق... وُزّعت علينا شارات عليها رقم الجواز ومكان الإقامة. بعد هذه الإجراءات، ودون تفسير آخر، ساقونا، عبر شوارع عريضة محاطة ببنايات من الإسمنت، إلى خلفية عمارة كبيرة. حجّاج آخرون يغادرون حافلتهم الجهنّمية في الوقت الذي نغادر فيه حافلتنا. ترتيب الإقامة استغرق وقتاً، فقد كان لازماً تشكيل مجموعات من ستّة أفراد مع العناية بفصل الرّجال عن النّساء. انضممت إلى مجموعة من زوجين وامرأة شابّة وحيدة. أعرف الرّجلين. تقنيّ وحِرَفيّ، كانت لي بهما قبل نحو عشر سنوات، صلات مهنية. عشية السّفر، اقترحوا عليّ الانضمام إليهم. كانت مجموعتنا مختلطة وكان على رفيقيّ أن يتفاوضا طويلاً كي لا ينفصلا عن زوجتيهما، رغم سريان هذا «القانون». حصل تدافع يتعذّر على الوصف في الأروقة، والسّلالم، والمصاعد. الجسد لا يتخلّى عن حقوقه، حتى على مسافة عشرات الأمتار من قبر النبيّ. كلّما تمّ توزيع شيء أو خدمة، كان يلزم بلوغ هدف، فدين الأنا، الأنا قبل الكلّ وقبل الجميع، يجعل الإسلام على الهامش. إنّ لدين الأنا طقوسه، وتراتيله، ولحظات حماسته.

تقرّر أن نقيم، مثل المجموعات الأخرى، في غرفة هي جزء من شقّة. كلّ واحد منا حصل على قطعة من الإسفنج بطول متر وثمانين سنتمتراً وعرض ستين، وأربعة أو خمسة سنتمترات سماكة، مع مخدّة من المادة نفسها، وغطاء.. عُلّقت قطعة نسيج من جدار إلى آخر، لتقسم الغرفة إلى قسمين. هذا السّتار يؤمّن انفصال النّساء أثناء النوم وارتداء الملابس.

هذه أوّل جمعة لنا في المدينة! الدّخول إلى مدينة النبيّ في يوم الجمعة فرصة نادرة! بعد لحظة قصيرة من الرّاحة مشفوعة بوجبة خفيفة، ذهبنا ننتظر دورنا أمام الحمّام المشترك: دوش، ومرحاض، ومغسلان. كنّا ثلاثين. بعد التوضّؤ، غادرنا العمارة لصلاة الجمعة. عمارتنا تطلّ على الشارع المركزي الذي ينطلق من المسجد النّبوي. مشينا لحظة مواجهين هذا المشهد... إنه هنا، هذا المسجد الذي يسكن ذاكرتي دوماً، يعرض علينا، للحظةٍ، أحد وجوهه العديدة. وتلك الوجوه، كما في مِشكال، تتبدّل، وتتفكّك، وتتركّب،

لتترك المجال لتجلّيات جديدة. هو هنا، في شساعته، بمنائره مثل شمعدانات عملاقة تقتحم السّماء. بدا لي لحظة أنّه يسبح في الفضاء، معلّقاً فيه بقبّة الضريح الخضراء. مشكال ذاكرته، هو الذي يطبع، دون شكّ، بنوع من حركة قويّة للمجموع، سكونيته بحركية غريبة، هي نفسها، ربّما، التي تنقله عبر الأجيال، والكلمات، والصّور. هذا المسجد، أراه حقاً للمرّة الأولى. في أبعاده الحالية، بالطّراز المغربي الأندلسي لأبوابه، والشّرقي لقبابه، أعلم أنه حديث، ومدين بوجوده، في هذا التجسّد الجديد، للتجديدات المثيرة التي قامت بها أسرة آل سعود. لكنّ يقيني بأنّ خطواتي الحالية تسوقني إليه للمرّة الأولى لا تمنع في شيء أن يكون هذا المشهد ثانياً، أن تأتي الصّور «الأولى» لتسكن تلك التي كنت أراها بقدر ما أتقدّم.

اخترقنا الحشد المرتدي الأبيض، وتركنا النّساء اللّواتي دخلن من باب جانبيّ، جهة الجنوب، لينفذن إلى المسجد الذي بلغناه نحن، قاصدين جهة الشّرق، من الباب الرئيسي، تلقّانا ظلّ رئيف، بعد لسعات الشّمس، والضّوء الذي يجرح الأجفان. بحثنا لحظة عن مكان بين المصلّين، الذين كانوا مقرفصين في صفوف مرصوصة، بين أعمدة الرّخام ذات التيجان المذهبة، أو تحت القباب الواسعة المنقوشة، التي كانت نوافذها البيزنطية تخفّف الضوء، وتنفث فيه صفاء معلوماً. تقدّمنا بقدر ما استطعنا لنقترب من قبر النبيّ في وسط الجزء الجنوبي الشرقي من المسجد. بعد أن اتّخذنا موقعنا تحت قبّة، مكثنا طويلاً نقرأ القرآن في الطّبعة الرّسمية للمملكة الوهّابية. ثمّ حلّ الأذان، والخطبتان قبل الركعتين المفروضتين. وراح الصّوت العالي للخطيب يدوّي في الصّمت، مُحتّداً: «الإسلام هو الاستسلام إلى اللّه والشّهادة لذلك بعمل التقوى، وقمع شياطين الجاهلية، عهد الجهل والشّرك. وبين أعمال العبادة يتوّج الحجّ جهاد التّوبة والرّجوع إلى اللّه. يجب أن يكون من المال الحلال، لأنّ وعد اللّه قريب». هذه الخلاصة مهّدت لموضوع الخطبة الثانية: «الأمّة الإسلامية ظلّت متعلّقة بدينها وطموحها الشّريف رغم المؤامرات، رغم ما يُحاك ضدّها. اجتماع الحجّ يجمع الماضي المجيد بالحاضر؛ بالحاضر الأليم للأمّة المهدَّدة، المنقسمة، التي يتحدّاها أعداؤها». علا الصّوت أكثر، حادّاً

مكلوماً. كان يجد في هذا الجمع دليل رسالة الإسلام الخالدة: اجتماع كلّ الشّعوب على اختلاف أجناسها، وألوانها، وألسنتها، حول المبادئ العليا لهذا الدّين التي هي «العدالة والمساواة». لا فرق إذن بين الأمم، ولا بين الأغنياء والفقراء، جميعهم متساوون أمام اللّه وأمام شريعته. والحشد المجتمع جاء يربط الماضي المجيد بالحاضر، ويعبّر عن ديمومة الرّسالة والأمّة، والجهر بالتلبية «بلسان عربيّ مبين».

في قداسة اليوم، كانت الفرصة مناسبة لزيارة قبر النبيّ. قصدناه من باب السّلام، جهة الجنوب الشرقيّ، منضمّين إلى الطابور البشريّ الذي يتضايق بقدر ما كانت العتبة تقترب. قدماي لا تكادان تلمسان الأرض. التقدّم كان بطيئاً، تحت يقظة حرّاس بالزيّ العسكري. في الدّاخل، كنّا متلاصقين، كلّ واحد ينتظر فراغ مكان ليشرع في الصّلاة. وقريباً من موضع صلاة النبيّ، المغطّى بسقف على أربعة أعمدة من الرّخام، مقابل المنبر، يتزاحم المصلّون إلى حدّ التراكم بعضهم فوق بعض. ورغم الخطر الماثل دائماً، كانت الصلوات تؤدّى في هدوء مطلق. كنت، وأنا مستغرق في التأمّل وقد استبدّت بي تساؤلات حادّة، أسمع الذين في جواري يتضرّعون ويبكون، أحسّ بالصّدور مغمورة بالتأثّر. كلّ واحد يريد بأيّ ثمن الركوع حيث ركع النبيّ، ووضع جبينه حيث جبينه قد مسّ الأرض، علامة خضوع مطلق للأبديّ... ما تبحث عنه النفوس المندفقة هنا، ليس تعميق أفكار أو نظريات حول الإلهي، أو البشريّ، أو الوحي، أو الآخرة، ولا حصيلة معتقدات أو دلائل؛ وإنما هو بالأحرى، إذا شئنا الاحتفاظ بأيّ ثمن بهذا التعبير، تعميق الإيمان، وتأكيد الخيار الذي اختاره كلّ واحد، بواسطة الشّهادة المتبادلة، وهو الدّليل على أنّ الطّريق المتّبع يفضي حقاً إلى الخلاص.

بعد الصّلاة، مشيت قرب السّياج الذي يفصل المسجد عن الضّريح وحاولت أن ألمح شيئاً من الثقوب المعدّة لذلك. ظننت أنّي رأيت شيئاً مثل قبر كبير، ثمّ اثنيْن آخرين أصغر حجماً، تضمّ، إلى جانب جدث النبيّ، جدثي صاحبيه أبي بكر وعمر. لكنّي لا أدري إنْ كانت هذه الرّؤية حقيقة أو نتاجاً خالصاً للخيال الذي غذّته سنوات التمرّن.

تعرّفت تأثّر المصلّين حولي. تأثّرت بتأثّر صاحبي عبّاس، وضاعف منه شعوري بتزايد هشاشتي. على باب الحرم، بقي عبّاس وحده معي، هزّنا عرفان متبادل. قلت:

«بكيت كثيراً، طلبتُ شفاعة سيّدنا محمّد؛ الإنسان، في شبابه، لا يفهم شيئاً... يفعل أشياء... يشرب الخمر، يغوي الغلمان، يشهد بالزور... ليرحمنا اللّه!». نظرت إلى عبّاس. هو شابٌ من مدينة صغيرة في الشمال، متعلّم نجّار. بحسب قانون جيله، هاجر مبكّراً إلى مدينة ساحلية كبيرة ويكافح ليجد له مكاناً في المجتمع المغربي الجديد. ثمّ النّجاح، المتواضع لكن غير المأمول بوظيفة صانع حرَفيّ في الوظيفة العمومية، والباقي يتبع: الزّواج، الحصول على مسكن، وتعليم أطفال بعضهم بلغ دراسات طويلة وواعدة.

حياة تفضي إلى غايتها وتبدو راضية عن نفسها. لا أستطيع أن أزعم ذلك عن حياتي. مع ذلك يبدو أنّ الصّخب الذي كان يجرفها يلتئم، منبعاً لهدوء نسبيّ. أدركت بغتة لا جدوى جهودي لهجرها. ينبغي لي دون شكّ تهيئتها أوّلاً بأوّل كي أستمرّ في العيش فيها. ذلك هو الإجراء الوحيد الذي بإمكاني اتخاذه للاستمرار في وهم ديمومة على طريق المجهول؛ الذي يظلّ سرّاً حتى حين انكشافه. تلك مراهنة على مواقع تنسبها ألسنتنا إلى اللّه، على مباهج نزهة أرضية في حاشيتها، على النسخ السّلبية لصورها. شروط هذا الرّهان تتوضّح الآن بشكل باهر وغير متوقع. هناك في الجوار المباشر لجدث النبيّ، بالسيّر على نحو ما على خطاه، أقرب ما يكون من إرادته، حيث تتوحّد بإرادة خالقه، تخطّت إرادتي البواعث التي علّلتُ بها نفسي على مدى السنين.

هذه اللّحظة الوجيزة من الحدس تزرع أمامي ضوء انفراجة ومفارقاتها. فرحي لم يشبه أيّاً من أفراحي السّالفة. كنت، بفضل هذه الإنسانية النّوعية المستعادة أخيراً، أمارس تجربة ما كان يُقال في ذاتي بكلّ الأسماء التي تلخّص الكون: الأرض، والسّماوات، والنّبات، والحيوان، والحيوات القصيّة والمتخيّلة، والأشياء والآلات، الحاضرة هنا سلفاً أو التي ستأتي.

للأسف! سرعان ما حلّ الضيّق محلّ النّشوة والشّفقة حين عادت الذكرى الطريّة لخطبتيْ هذه الجمعة. أأنا حقاً في المدينة؟ من دون شكّ. وسط

الجماهير المصلّية في الضريح، ومن حوله. لكن هذه الشّوارع وهذه الخطب؟... لم يكن ذلك اكتشافاً تماماً.. أُلفة غريبة، تهَبُ نفسها بتفاوت ضئيل يلوّن كلّ شيء... أسمع هنا لغات تشبّع بها وجودنا منذ عقود: العدل والمساواة أمام اللّه وأمام القانون بينما في كلّ مكان تنفجر الاختلافات، في المكانة، والجنس، والنّوع. عدل؟ تطبيق القانون، ذلك الذي تقنّنه الشريعة؟ لكن كيف الوثوق بتقوى القاضي والموثّق وحدها؟ وماذا يُقال عن مساواة الشّعوب، والأعراق واللّغات إذا ما كان واجباً، للاستجابة لدعاء اللّه، القيام بذلك «بلسان عربيّ مبين»؟ فماذا يكون حال الفارسية، والتركية، والأوردية، والكردية، والأمازيغية، والسواحلية، والولوفية، والماليزية، والأندونيسية، والصّينية، والرّوسية، والفرنسية، والإنكليزية، والألمانية، والإسبانية؟ ولغات أخرى على الأرض، صارت جميعها تقريباً لغات لمسلمين؟ وماذا يُقال عن الآرامية، واللاتينية، والعبرية، والنفاخوية، والكويتشوية لنوقف هنا هذا التعدّاد؟ أأنا في المدينة أم في مكان آخر؟ في مسجد بالدّار البيضاء، أم الجزائر، أم القاهرة، أم الخرطوم، أم كانو، أم هامبورغ، أم ليون، حيث يعلّموننا «الماضي المجيد» و»الحاضر الأليم» لـ«الأمّة المنقسمة»، و«مؤامرات أعداء الدّاخل والخارج»؟... حيث «قوّة الإسلام» تُقاس بكثافة الحشود؟

العرفان المتبادل يصادف هنا تعاسات المؤسّسة. وإذن، في غياب ممارسة الأفكار، نفضّل تجذيرها إلى مُثل. وفي غياب الوحدة، يُعرض الحجّ باعتبار أنّه هذه الوحدة ذاتها. تعزيمة وحدة أو تعزيمة التهييء لها. تعازيم تُغطي على كلّ الأصوات الأخرى؛ أصوات القادة، والتلاميذ، والطلاب، والعمّال، والتجّار، وجماهير الرّجال والنساء... بدا لي فجأة أنّه لا يوجد بلد على قدرٍ من البعد والخلاء يمكن أن أهرب إليه من هذه اللّعنات. هذا الخطاب السّيادي نفسه، المنفصل عن كلّ إنسانية وكل شخص، وقد صار الأرض نفسها التي أجرّ عليها، نهاراً، خطواتي، وتتلقاني ليلاً لنوم مضطرب، خطابٌ يحتلّ الأجساد ويندلق فيها وفق إيقاعاته ومنطقياته الخاصّة. هنا، قريباً من قبر النبيّ، أتلقاه مباشرة، في عنفه الوهّابي، سالباً المسلمين أيّ حقّ في أن يعيشوا إيمانهم بطريقة أخرى. أتقبّل جيّداً أنه أمام كلّ هذه الأخطار، تفرض

نفسها عودة إلى الماضي ومنابعه. علينا استعادة الطّاقة الضرورية للبقاء أحياء ولتجديد أنفسنا لنقدّم شيئاً للعالم، ولمعاصرينا. وهذا التجمّع الفريد هو دليل حيوية خارقة. لكنّ كلّ شيء يشير إلى أنّ هذه القوّة المتبادلة التواصل، في مسرحتها الحالية، تولّد العجز في كل مكان. ولحسن الحظ، فالأسئلة والأجوبة، هنا كما في مكان آخر، تتباين؛ في شبه الجزيرة نفسها، كثير من المواطنين والمواطنات يعانون في صمت تحت نير هذه الكلّيانية. طمأنت نفسي بالقول إنّها لا شكّ ستنتهي إلى السقوط. وصلافتها ونفاقاتها نفسها تقدّم ضمانات انهيار محتوم. أثناء ذلك، لا بدّ من معاناة سيف أصوات هؤلاء الوعّاظ، المحتجبين في كوفيّاتهم، بلحاهم الطويلة أو القصيرة، بحسب السياسة المعمول بها. هذا النّوع من دولة الدين ودين الدّولة يحاصرنا من كلّ مكان، فارغ من الشّفقة ودون رحمة بالمخلوقات. كلّما حاولت تخيّل هذه الأمّة الوهّابية، كما تتجسّد في النّسق السّعودي، ممتدّة على مجموع كوكب الأرض، أستسلم للفزع. لحسن الحظّ، كان الغضب يعقب ذلك الاستسلام.

قطع صوت المؤذّن أفكارنا. عاودت اللّقاء بصاحبيّ عبّاس وصالح لصلاة العصر. بعد الرّكعات الأربع المفروضة، دُعينا إلى صلاة الجنازة. هذه المرّة كان الميّت طفلاً. ثمّ، منتظمين واحداً خلف الآخر، غادرنا المسجد. انسابت الموجة البشرية ببطء عبر الأبواب، في سكون وصمت.

مررنا، دون أن نتوقف، أمام المتاجر التي تجاور، على الجانبين الشّمالي والغربي، فناء «بيت الله». واجهات مكتظّة بالذّهب، والماس، والأحجار الكريمة، وكلّ أشكال الحليّ والسّاعات الفاخرة. نساء ورجال يندفعون إلى المتاجر وينتشرون في الشوارع المحاذية. فوجئت بامتداد هذه الأسواق. ذلك فوق ما كنت أتصوّر. بعد أن اخترقنا هكذا أكداساً لا نهاية لها من البضائع، رغبت في التأكّد من أنّ أماكن المتاجرة هذه كان لها حدٌّ وأنّه بالإمكان بلوغ «مدينة عتيقة». كنت أغذّي الأمل في زيارة موضع يجعل خيالي في صلة مع «المدينة المنوّرة»، وفي ما وراء ذلك، يثرب العتيقة: المدينة التي تقدّمت اختراع الزّمن. غير أنّه لمّا كانت الأسواق تتلوها أسواق، قصدت سائق تاكسي

لأسأله أين توجد المدينة العتيقة. «تريد أن تقول المدينة المتواضعة؟» سأل مكرّراً هذه الكلمات مرّتين أو ثلاثاً، وأشار لي إلى الأحياء الشّعبية، الواقعة على الجهة الأخرى من طريق سيّار. منظر مألوف. مكعّبات من الإسمنت تثقبها نوافذ وشرفات خالية يزيّنها ما لا يُحصى من الصحون المقعّرة. قلت: «لا، المدينة العتيقة!... الأبنية العتيقة، المساجد العتيقة، آثار، معالم خلّفها الأسلاف... كما عندنا في فاس». أضفت هذا التّدقيق لأنّ الرّجل كان يبدو عليه أنّه يفهم عباراتي دون أن يعرف إلى أيّ شيء تعود. كلمة «فاس» لم تكن تعني له كذلك شيئاً. ألقى إليّ وهو يبتعد: «هذه هي المدينة!».

غُصنا في الأسواق. كان صاحباي يتفحّصان البضائع، يتمعّنان في كلّ مظهر، ويناقشان في الجودة، والثّمن، والمصدر... لم يكن الباعة السّعوديون والباكستانيون يقبلون بخاطر طيّب هذه اللّعبة. المساومة على الطّريقة المغربية لم تكن على ذوقهم. أمّا صديقاي فقد رأيا في هذا التحفظ انعدام لطافة مضاعفاً بالعجرفة. ففي نظرهما، المساواة على الطّريقة المغربيّة لا يمكن أن تكون إلاّ عالمية... انطلق عبّاس في نقاش مشدود بخصوص لباس إحرام. ولأنّا التاجر ظهره واهتمّ بزبائن آخرين. جذبنا عبّاس نحو دكّان آخر وعاود من جديد. لكن التاجر الباكستاني ظلّ في صلابة الحجر. تسكّعنا هكذا أمام الواجهات ومناضد البضائع: سجاجيد، طاقيات، ملاءات، عمامات، صنادل، أحزمة، ساعات، بوصلات، راديوهات، أطقمة شاي، أطقمة قهوة، قمصان، فساتين، أغطية، أحذية، تلفزيونات، آلات فيديو، كومبيوترات، حاسبات، عطور، بخور، نباتات عطرية، خطٌّ فنّي تحت الزّجاج، مراوح، شمسيات.... كان عبّاس وصالح يتغلّبان على إرهاقي بكثير من التشجيعات والحركات الودّية. هكذا، بلغنا سوق الأمتعة؛ دخلاه بلهفة. كانا في حاجة إلى حقائب لنقل متقنياتهما. استغرقنا برهة في معاينة الأكياس والحقائب والمحافظ؛ وتثمين جودة الجلد، والقماش، والحديد؛ وتجريب الأقفال. كان على عبّاس وصالح استشارة زوجتيهما حول مبلغ مشترياتهما. فكان من الضّروري إذن القيام بهذه التجارب في مرحلة أولى، والعودة بعد ذلك إلى الشّراء... انقطعت جولتنا بصلاة المغرب.

عدنا إلى مسكننا لنودعه المشتريات وللوضوء. ما أن انقضت صلاة المغرب وصلاة الجنازة، حتى غادرنا المسجد لنغوص من جديد (على غرار آلاف الحجّاج الآخرين) في الأسواق. هذه المرّة كنا برفقة النساء: زوجة عبّاس التي تدير صالون حلاقة، وزوجة صالح، وهي تقنية، وفريدة، وهي طبيبة من أسرة حضرية من الوجهاء، جاءت للحجّ في حُرمة صالح، صديق زوجها. غادرتنا فريدة سريعاً إلى حوانيت الصّاغة الرّفيعة، الواقعة في أروقة تذكّر بالمتجر الكبير والبازار المتخصّص. وقصدت جماعتنا تجّار النّسيج الذين يحتلّون حيّاً بأسره غير بعيد من المسجد. هناك، فحص الأزواج أنسجة القطن، والصّوف، والحرير؛ والحياكة، والألوان، وحجم الكوبون.... واستُعرض المقصودون بالهدايا: أقارب، أصدقاء، جيران، زملاء. كان يلزم ملاءمة قيمة الهديّة بالعلاقة. دار النقاش أيضاً حول الصّالونات والغرف، وأنسجة الأثاث وأغطية الفراش. وكان اهتمام بلوازم الأطفال.

لم يكفّ الباعة عن الاقتراب منّا صائحين: «دودة! دودة! حرير دودة!». فهمت أنّ الأمر يتعلّق بـ«الحرير الطبيعي»، منتوج دودة القزّ. شرح لي تاجر أنّ المغاربة يبحثون دائماً عن هذا الحرير الطبيعي. سألته: «هل تعلّمت العربية المغربية؟». أجاب بالإيجاب بينما كنت أسمع آخرين يتحادثون مع رفقائي بتلك اللّغة، وأنّ آخرين أيضاً يلفتون انتباه الجائلين بذكر هذه الدّودة التي كانت تجذب أهل وطني. وسرعان ما اكتشفت أنّ تجّار المدينة يتكلّمون كلّ لغات الأرض: المغربية، والمصرية، والفارسيّة، والأوردية، والتركية، والأندونيسيّة، والإنكليزية... لكنّني حين أردت التعمّق، حصلت على توضيح تكرّر لي باستمرار في ما بعد: «معرفتنا [باللّغات] لا تتجاوز ألفاظ التجارة». بعد تخطّي المفاجأة، كان لا بدّ من التّسليم بالبداهة: طوال القرون، وزّع الحجّاج وقتهم بين المسجد والتجارة. إنّها ممارسة طويلة قد خلقت تقنيات وطقوس اتصال، تكاد تساوي في تشكيل قواعدها طقوس «زيارة الضّريح». وعيت هكذا أسلوب العلاقات التي ينبغي لي إقامتها مع أناس البلد طوال إقامتي: مختصر، عملي، لا يذهب إلى أبعد من مسائل النّقل، والسّكن، والأمن، والمشتريات. المدينة لم تكن إطلاقاً بابل... لا اختلاط للّغات. كلّ

شيء بثمن. وعلى ما يظهر، كل شيء مُتصوّر بوضوح والكلمات لقوله تأتي بيسر. كنّا في ذروة «موسم» الحجّ، حيث عدد الحجّاج يبلغ أقصاه، مؤدّياً إلى تصاعد باهر للتعاملات. ألسنا نحن بأنفسنا بضاعة بين أيدي وكالات البلد؟ منذ الآن، ليس بمقدوري إلاّ أن أكون عابداً أو مشترياً.

أعادتنا خطانا إلى المسجد لصلاة العشاء، متبوعة دائماً بصلة الجنازة. بعد ذلك مشينا على طول الشّارع المركزي في المدينة، بحثاً عن مكان نتعشّى فيه. استقرّ رأينا على الشّواء على الطريقة السورية اللبنانية. بعد الطّعام، قمنا بنزهة ليليلة في الأسواق، هذه المرّة مع الرّجال فقط، قصدنا الأحياء الشمالية الغربية، بعيداً جدّاً عن عمارتنا. هناك أيضاً، وفي هذه الساعة المتأخرة، عدد لا نهائي من المتاجر يعرض ألواناً من المستلزمات والآلات. توجد كذلك متاجر للألبسة الجاهزة، ومكتبات، وبائعو «ملصقات» المدينة ومكّة، المتشابهة دائماً: حشود من النّاس تصلّي أو تطوف بالكعبة، المغطّاة بكسوتها السّوداء المطرّزة بالذهب. في هذه السّلسلة المتوالية من المتاجر، سجّادة الصّلاة كانت هي الملكة... أسواق المدينة لا تعرف النّوم.

يوماً بعد يوم، اتبعت حياتنا إيقاعاً لا يتغيّر: استيقاظ في الفجر، قبل الخامسة؛ انتظار طويل أمام الحمّام المزدحم دائماً؛ صلاة الصّبح في المسجد، المضاء من كلّ مكان في هذه السّاعات الصبّاحيّة؛ عودة إلى المسكن لأجل فطور على الطريقة المغربيّة: شاي بالنّعناع، وزيت، وزبدة، وعسل، وحلويات. تتبع ذلك فترة من النّوم والرّاحة قبل صلاة الظّهر والغداء. وبقدر امتداد الإقامة، يتكرّر الذهاب والإياب اللانهائي بين المسكن والأسواق بعد الظّهر أو في المساء. والصّلوات تقطّع الزّمن؛ في كلّ واحدة منها، نتقدّم في تلاوة القرآن.

اكتشفت شيئاً فشيئاً أروقة تجارية أخرى تشغل عمارات فاخرة على طول الشّارع الرّئيسي، بمصاعد، وهواء مكيّف، ومطاعم، وكافتيريات، ومحالّ مبرّدات، والكلّ على الطريقة الأميركية: خدمة ذاتية، صحون وأقداح من الورق، وملاعق وشوك وسكاكين من البلاستيك، وكذا الأكلات والأثمان المعروضة على لوحات مُضاءة بالنّيون. تناولت الغداء يوماً في أحد هذه

المحلات، حيث كان عليّ أخذ مكاني في الجناح المخصّص للرّجال. ولمّا تعوّدت عيناي العتمة، لاحظت موائد محجوبة بستائر. وثمّة رجل يأكل، بصحبة امرأته. ويوجد فضلاً عن ذلك عدّة أزواج، مع أو دون أطفال، يتناولون طعامهم في هذا الجناح الخاصّ، مفصولين بعضهم عن بعض وعن الرّجال المنفردين. كانت الأمْرَكَة المكتنِفة تتكيّف هكذا وفق موضة رجال «الخليج» منفردين مع زوجاتهم. وفي ما عدا ذلك، فأميركا المنقولة هنا لا تسلّم في أيّ من أذواقها، بما في ذلك السيكار الذي يستمتع به بعض الأزواج في هدوء.

بعد القيلولة الطّويلة التي أخصّصها منذئذ للكتابة، دعاني صاحباي للذهاب معهما للصّلاة. كان الانتظار طويلاً أمام المراحيض والدّوش، حيث الرّوائح تتزايد قوّة. كان استعمال الحجاج المستمرّ للمرافق الصحية (دورات المياه) يتلفها، ولم نلمح قط أيّ جهد لإصلاحها. بعد الوضوء. ذهبنا أنا وعبّاس وصالح قاصدين المسجد. يتقدّمنا صالح. ولمّا كنّا نخترق الحشد تحت شمس حارقة، سألني عبّاس إنْ كنت أصلّي في الحياة العادية. أجبته بأنّي قد توقفت عن ذلك منذ سنّ الخامسة عشرة أو السّادسة عشرة، ما عدا بعض المناسبات مثل الأعياد الدّينية أو الجنازات. فاكتفي بأن ألقى عليّ دون الذّهاب أبعد في الحديث: «ليغفر اللّه لك». تدبّرنا أمرنا، على عادتنا، في الوصول مبكّراً إلى المسجد. اخترنا موضعنا بعد أن تناولنا مصحفاً من الرّفوف المعدّة لهذا الغرض. وهكذا أعدت قراءة مقاطع اخترتها، وأحياناً سوراً برمتها، أستعيد جمال النصّ، والصّور التي تسكنني، والإيقاعات البارعة واللامتناظرة في سموّ. أبتعد عن هذا العالم بالسير في هذه القصص نحو آفاق تهبني الطّراوة السليمة للبدايات... صلّينا الصبّح، ثمّ صلاة الجنازة. زد على أنّ هذه الأخيرة لم تعد تفارقنا قط. بعد كلّ صلاة، كان يُعلن عن وفاة واحد، أو اثنين، او ثلاثة أو أكثر. رجال، نساء، أطفال. كانت الصّفوف تنفرج قليلاً فتؤدّى هكذا الرّكعتان المعتادتان.

لكنّ الصّلاة وحضور الموت لا يخفّفان من حميّة التعاملات التجارية. نغوص فيها بمجرد الخروج من المسجد. بحثت عن ساعة لزوجتي. تنقلنا من

واجهة إلى أخرى حول المسجد. داخل أروقة تنشط فيها النّسوة من الزّبائن. لاحظت خصوصاً الأندونيسيات، بلباس أبيض بالكامل، ما عدا الوجه بالماكياج والشّفاه بالأحمر. كثيرات انتعلن أحذية رياضية أو على الموضة (الغربية). وكثير من أهل المغرب، رجال ونساء معروفين جيّداً بلباسهم، وبالنّسبة إلى النساء، بتفضيلهنّ المتميّز لـ«حوانيت الذهب» كما يُقال. وبالمقابل لا أرى إلاّ نادراً النساء التركيات. وأما الإيرانيات اللّواتي أراهن فقط حول المسجد، فكنّ ومن بعيد، متلفعات كلّياً بالسّواد ومحاطات برجالهنّ.

وصلنا إلى شارع كثير الرّواج، فصادفنا حشداً من المغاربة منهمكين في اختيار أنسجة حرير وأقمشة أثاث، من الواضح أنّها مرصودة للتجارة لا للهدايا التي يقدّمها الحجّاج لزوّارهم حين الرّجوع إلى البلد. بعض هؤلاء الحجّاج ـ التجّار هم دون شكّ على صلة منتظمة بتجّار المدينة. كثيراً ما نجدهم مستقرّين في عمق المتجر، يتحادثون مع صاحبه بينما المستخدمون منشغلون بالرّزم، كالحال في الدّار البيضاء، أو مرّاكش، أو فاس. قصدت أحدهم، وهو رجل متعلّم، في أناقة الستين، فأخبرني، دون أيّ تردّد، أنه من سوس، وقد حجّ عدّة مرّات، وهذه المرّة رحل بنفس النيّة: أداء واجبه الدّيني وممارسة أشغاله التجارية. لفت نظري إلى أنّه لم يكن الوحيد في ذلك: «الجميع يعلم أنّه لا ضرر في الجمع بين التجارة والفريضة بقصد البركة».

بعد صلاة المغرب، ذهبنا إلى «سوق الحقائب»؛ اشترى صاحباي سلعاً عديدة ورجعنا بسرعة لإيداعها الحجرة قبل الإسراع إلى صلاة العشاء. بعد انقضاء الصّلاة، اختار عبّاس دجاجتين مشويتين لعشائنا في الحجرة التي أخذت الأمتعة تجتاحها بقدر ما كان المقام يمتدّ. أمّا أنا، فلم أشتر شيئاً. حقائب وجرابات صاحبيّ تتكدّس بعضها فوق بعض في كلّ مكان، وفضاء الاستراحة يضيق. وكثيراً ما صارت الحقيبة أفق أحاديثنا: حقيبة صغيرة، كبيرة، متوسّطة، حقيبة يمكن حملها، حقيبة من الحديد؛ حقيبة ذات زوايا مقوّاة، أو زوايا غير مقوّاة، حقيبة بقفل أو برقم سرّي... أينبغي شراء كلّ الحقائب من المدينة أم الانتظار لاختيار أخرى في مكّة؟ هل سيوجد مكان كاف للعودة إلى المغرب بجميع الحقائب؟ أولئك الذين لا حقائب لهم ولا

بضائع أخرى ينبغي أن يساعدوا الآخرين على حمل أمتعتهم. الحبّ المتبادل، الذي تغذّيه العبادات المشتركة، يمرّ هكذا بشكل طبيعي عبر الحقيبة...

حينما أخذ المقام إيقاعه العادي، ذهبنا ذات مرّة إلى البازار، في وقت متأخّر من اللّيل، في جولة أخيرة. وفيما كنت أجرجر خطوي وراء الآخرين فقدت، من جرّاء، التعب والسّأم، تمييز الزّمان والمكان. وما عشته يتمثّل لذاكرتي كشريط بالعرض البطيء: صفوف من المتاجر لا تنتهي، نتف من عبارات، وكلمات، وأصوات منهمكة في تعاليق، ومساومات، وأزياء وطنية مختلطة الألوان، وجوه تتوالى بعضها إثر بعض، لحىً طويلة، قصيرة، صغيرة، عقديّة، سوداء، شمطاء، بيضاء... والكلّ مغلّف في التّلاوة القرآنية، والتّنغيمات المصرية، والعظات والخطب التي تتسايل من كلّ مكان وتستبدّ بالسّمع. لم أشعر بأنني عدت إلى نفسي إلاّ حوالى الثانية صباحاً، وأنا متمدّد أخيرا على قطعتي من الإسفنج، عندما أنقذني النّوم من دين السّوق.

في اليوم الثالث من مقامنا، أيقظني صاحباي في الثالثة والنّصف صباحاً. كنّا نريد التنقل مبكراً قبل الصّلاة المفروضة. بدا لي المسجد منذ أن جاوزت خطواتي باب العمارة. كان مغموراً بالضّوء، كأنه يطفو على سطح تيّار بشري. وما أن جلسنا وسط الحشد، حتى تملّكني إحساس برهبة دينية. إذا كنت أعرف جيّداً هذه الحال، فإنّي لم أكن قد جرّبتها بتاتاً منذ ثلاثة عقود. حاولت التعقل. لكن عبثاً. كنت قد درّبت نفسي على عدم الخوف من رغباتي، من العواطف التي قد تستثيرها. في هذه المرّة، كان هذا الانبثاق يتعدّى قدراتي. هل الأنا العقلاني يستسلم لفتنة؟ لحظة مصيريّة. من إذن كان مأخوذاً ومجذوباً بغتة؟ أهو الوجه الذي كنت أعتقد اكتسابه يتبدّد بمسّ الصّلاة، بمسّ الأرض؟ المبارزة تعود بحدّة لا سابق لها. أأنا إذن مجرّد اسم علم، وأيّ اسم علم؟ عبد اللّه، عبدٌ لله، عابد للّه... الاسم ينفجر إلى شظايا باترة، قاتلة. لكن ماذا تمزّق؟ ألا يزال هذا جسداً؟ هذه الدوّامات، هذه الفيوض الممتدة والمنحسرة (التي تتصادم في قلب المسجد، بجوار الرّسول، الملهم الحيّ للإسلام) تلاها رعب شالٌ: الأرض ستنفجر من لحظة إلى أخرى تحت قدميّ وتهبّ ريح حارّة وعنيفة ناثرة في كلّ الجهات الألياف المتيبّسة لهذا الجسد الذي لم

يعد جسدي... عسيرٌ الإمساك ببداهة العدم، فغالباً ما يُتخيَّل كأنه فراغ. غير أنّني أحسّ بالاقتراب منه في ملموس هذا الغبار الذي تذهب به الرّياح. وفي كلّ مرّة تستحوذ عليّ مثل هذه الصّورة، يتخلّى الجسد عن رغبات البقاء ويرفض الإنصات إلى خفقات القلب... الجسد الذي كانت أطلاله تُسوّى بالأساسات، على مستوى الأرض، ما عاد سوى تجسُّد بين تجسُّدات أخرى، لذاتٍ تسير، وتتكلّم، وتصلّي، وتأكل، وتنام، وترافق الآخرين في وثباتهم نحو البضاعة.

ازدردنا الفطور سريعاً. علينا، صالح وعبّاس وأنا، قضاء الصّبيحة في السّوق بحثاً عن حقائب جديدة. أكّد لنا الجميع أنّ المدينة مدينة المشتريات بامتياز وأنّ ناسها ألطف وأكثر تأدّباً من قريش، قبيلة النبيّ، تجّار مكّة. لمّا بلغنا الدّهاليز، فاجأتنا رائحة طاجين يُطبخ على مهل في الحجرة المجاورة، التي تقطنها مجموعة من الرّجال، جاءوا جميعهم للحجّ دون نسائهم. تقنيون من مصالح الزّراعة، سائق مستخدم في مستشفى بالصخيرات، وكسّاب يتاجر في الماشية من منطقة الرّباط. كانوا يتسوّقون ويطبخون بالمناوبة. لاحظ عبّاس متوجّهاً إلى صالح: «آه! لا بدّ أن تعزم النّسوة على الطّبخ! عندنا كلّ شيء بالله! الكسكس، واللّحم المحفوظ، والزّيت والزّيتون من كلّ نوع. والكلّ من وزّان، الأجود!». كنّا قد ناقشنا أمر الطّبيخ من النّساء. فريدة، الطّبيبة، أكّدت أنّ الوقت ينبغي أن يُخصّص للعبادة، وأن المجاهدة تطالب بأن نقنع بطعام الكافتريات. ألحّ عبّاس: «كما هو الحال في مجموعات أخرى، على النّساء أن يبذلن مجهوداً» ويهيِّئن الطّعام. وبالفعل كانت ثمة جارات يستيقظن قبل رجالهنّ، ويقدّمن لهم الفطور ويرتّبن الحجرة قبل الذّهاب إلى المسجد. وبعد صلاة الصّبح، يشرعن في إعداد وجبة الغداء قبل أن يقصدن الأروقة التجارية.

صالح متفق مع عبّاس لكنه لا يرغب في مجابهة مباشرة مع هذه المرأة سليلة البرجوازية، التي كان يترضّاها. أما أنا فلم أقل شيئاً ذا جدوى؛ لكنّي كلّما طُلب إليّ ذلك، أدافع عن الحزب المضاد للمطبخ... هذه المسألة كانت تنغّص العلاقات بين الرجال والنّساء، وبين عبّاس وصالح. الأوّل يعتبر نفسه، لأنّه أمّيّ ومن مستوى متواضع، تحت سيطرة الثاني، لأنه تقنيّ من مستوى

رفيع ويملك «فيلا فاخرة» كما يقول.

«آه! التمتّع بأكلة صغيرة مغربيّة...» هتف صالح باسماً، «طاجين صغير أو كوارع... والكسكس اللذيد!». تدخّل تاجر الماشية: «نحن سبعة. نشتري ديكاً بعشرين درهماً. يذبحونه لنا ويريّشونه... بعد ذلك، معنا كلّ شيء: الزيت البلدي، وحتى زيت لوسيور، السّمن، التوابل، والبصل. كلّ شيء. الطّبخ المغربي لا بدّ منه. خصوصاً لا تشتروا لحم الخروف هنا، سمين فوق المطلوب. الدّجاج أو قليل من البقريّ للكفتة».

«هذه رائحة الكاميلا! لكن فلنذهب لنرتّب أمورنا في السّوق. لا بدّ من شراء حقائب أخرى»، قال صالح وهو يقصد الباب.

ألحّوا علينا لتقديم شاي سريع. وبينما كنت أدخّن سيجارة مع «السّائق»، عاودني مُتخيّل الحقيبة بقوّة.

الكلّ يعلم أنّ عدداً «معقولاً» من الحقائب يتحكّم في عودة ناجحة إلى الوطن. في المطار، ستهبط الحقائب من الطائرة، قبل أو بعد الحاجّ الجديد، أمام الجمهور الذي جاء «لتلقّيه» وكذلك الأمر طبعاً في مدخل القرية أو الحيّ.

في العودة، وجدنا النّساء راقدات في الحجرة. كنّ مريضات بسبب تناولهنّ حبّة لمنع العادة الشّهرية. وهي طريقة لأداء المناسك «في حال طهر». أيقظناهنّ لتناول وجبة سريعة قبل صلاة الظّهر. كان اختراق الحشد يتمّ دائماً بالطّريقة نفسها. أمام واجهة المسجد، وتحت الشّمس الحارقة، نتلقّى سيولاً من الخطب التي تصبّها مكبّرات الصّوت. يوجد مطوّفون، منتصبون على باب كبائنهم المتحركة، يصوتون بإنذاراتهم، ويردون على أسئلة المصلين، ويعرضون على مناضد كتب «المذهب» عن الحجّ والموضوعات الأكثر تنوّعاً. غادرتنا النّساء قريباً من جدار الواجهة ليقصدن بابهنّ. ولمّا دخلت، لاحظت هذه المرّة أنّ عازلاً من الخشب يفصلنا عنهنّ. لم يكن بالإمكان رؤية أيّ شيء. وأبواب هذا النوع من التسويرة مغلق بالأقفال، ويفتحه المستخدمون فقط لتنظيف مجموع المسجد، كما علمت بعد ذلك.

ارتفعت الأصوات والهمسات بين الأعمدة وملأت أروقة المسجد

الفسيحة. تصعد وتتموّج في كلّ مكان تحت السّقوف والقباب: قراءات، دعوات، صلوات، وتضرّعات. ولأوّل مرة لاحظت بعض الاختلافات: هناك من يكبّر عند كلّ ركوع، ومن يصلّي مبسوط الذراعين على الجنبين ومن يقبضهما على البطن، والمالكيون الذين يسلّمون في ختام الصّلاة برفع السبّابة، والآخرون الذين لا يعرفون هذه الممارسة...

جوّ التقوى القويّة والمكبوتة تكسره من حين لآخر أدعية وتشهّدات. جاري يكرّر باستمرار أنْ «أجل، السّاعة آتية لا ريب فيها...». البكاء ينتشر، عميقاً ساكناً. لم أستطع معرفة إنْ كان ذلك تعبيراً عن الندم، أم عن صراحة مع النفس، دون حدود ولا قيود، أو حُكماً بدون محكمة ولا قضاة ولا محامين... هو أيضاً، كما قيل لي عدّة مرّات، بكاء الشّوق: حنين واستشراف للتلاقي، يرتسم الغياب فيهما محفوراً، تلاق متناقض، كالبكاء عشيّة الرّحلة إلى مكّة حين الذّهاب إليها أوّل مرّة. بكاء على زمن البراءة؟ أو لأجل زمن الخلاص؟ في هذا القصر الفسيح الهوليودي شيئاً ما ترتفع أصوات المسلمين، تنقذه من الأباطيل وأشكال المحاكاة، تنتزعه من مقاصد السّلطات التي شيّدته. ترتفع إذن، هذه الأصوات، تسكن هذا المبنى، وتتملّكه، متحابكة في صعودها إلى السّماوات.

عند الأذان، جمّد الصمت الصّفوف المتراصّة في الخضوع، وذكّر الصوت الصافي للإمام كل واحد منا بحضور ما. ثمّ جاء التّرتيل الرّقيق والحالم. ظننت أنّي أرى السّلهام الأبيض لأبي ينفرج وينضمّ على الطّفل المتشبّث به. لقد لعب بهما المكان والزّمان هذه المرّة.

تلت صلاة الجنازة، كالمعتاد، الصّلاة المفروضة. وفق الإعلان، كانت الصلاة هذه المرّة على «رجال، وطفل، وامرأة». عرفنا بعد ذلك أنّ بين هؤلاء الأموات ستّة مغاربة ماتوا في حادث مصعد. وبحسب الرواية الشائعة، فقد أجهز التكدّس والتّدافع اللذان يروقان مواطنيّ، على حبل الآلة التي هوت تحت الثقل من الطابق الرّابع أو الخامس لترتطم بالأرض.

كما يحصل كثيراً، كان الفرّوج المشويّ على الجمر في الموعد للغداء. كنا قد جرّبنا معظم المطاعم، وبدأت وجباتها تنفّرنا. كثير من هذه المحالّ

يحاكي الماكدونالدز أو البرغر كنغ؛ وأخرى لا تقدّم سوى قطعة من الشّاورما بأسعار باهظة، بينما المحالّ البلدية تعرض مظاهر حوانيت - معالف، طويلة، وضيّقة مزدحمة دوماً. وكان لا بدّ من قبول الجلوس إلى مائدة ملطّخة بالدّسم لأكل الفرّوج السّرمديّ، المشويّ على الفحم أو الكهرباء. أو، للتغيير، طبق أرز بخضر متبّلة على الطريقة الباكستانية، تعوم في مرقة حمراء أو صفراء، ثخينة، تحرق الحلق... لا مجال للحديث، خصوصاً في محضر النّساء. على أيّ حال، كنّا نتعجّل مغادرة حرارة المحلّ الخانقة، حيث تكون محصوراً بين نيران المشواة الموضوعة في المدخل والمطابخ الواقعة في العمق والخلف. فضّلنا، أكثر فأكثر، حمل هذا الطّعام إلى مسكننا، بعد ابتياع شاي أو بيبسي كولا من دكّان النّاحية. فاجأت نفسي مفكّراً في أنّ هذه المحلات تستجيب لهدف محمود: أن تقدّم للمؤمن، من أجل وعظه، نسخة غير مخفّفة عن جهنّم.

بعد القيلولة، وصلاة العصر، وصلاة الجنازة، اخترقنا الأسواق التي كنّا قد استكشفناها في اتّجاه شارع الستين. ابتعت من هناك مروحة حمراء مرجانية تنفتح على الشّهادة. قضيت بعض الوقت في النّظر إلى اللّعب، والسّاعات الجدارية، والصّواني التي تمثّل مساجد المدينة، ومكّة، والكعبة. توجد أيضاً سبحات من خشب، أو عاج اصطناعي، أو أحجار فوسفورية؛ بالطّبع، كما في كلّ مكان، سجاجيد الصّلاة التي كان بعضها مجهّزاً ببوصلة ترشد، في كلّ حين وظرف، إلى جهة مكّة... كلّما غادرنا الأروقة المغطّاة نجد أنفسنا في الدّروب الخانقة، دائخين بالشّمس، والنّاس، وضوضاء السيّارات والشّاحنات؛ دون الحديث عن الاختناق الذي يسبّبه لنا الغبار الممزوج بغازات المحرّكات. الأصوات المصرية التي «تغنّي» القرآن، وتلقي بحقيقة مّا متفقهة عن الدّنيا والآخرة، أو بأخلاقيات فارغة بقدر ما هي طنّانة! أصوات واعظة، مقذوف بها من استوديو ما مغبرّ في القاهرة، لاقتحام العالم الإسلامي. أعرف أنّ هذه الأصوات تغطّي كلّ أسواق الإسلام... هل هي مسموعة حقّاً؟ إنّها، بالتأكيد، تُشبّع الجوّ بتديّن مفرط كئيب.

الفصل الخامس

دروب مسدودة

قرّرت يوماً الذهاب وحدي إلى قبر النبيّ لزيارة جديدة، بعد صلاة العصر. بعد التأمّل، قصدت المقبرة الكبرى المسمّاة بالبقيع. لم أكن أريد بأي ثمن أن أغادر المدينة دون الوقوف على قبور أصحاب النبيّ، مؤمّلاً بذلك خلق صلة معهم؛ رغبت في الاستفادة معنوياً، رغم الأزمنة التي تفصلنا عن فضيلتهم وعلمهم. المقبرة الشّهيرة محاطة بسور كبير في نصف دائرة، يحاذيه ممشى واسع. وثمّة فتحات عظيمة قوطيّة الشّكل، مجهّزة بدرابزين حجريّة، تكسر شيئاً ما رتابة الحيطان، تتيح الإطلال، من خلال نوع من المشربيات الإسمنتية، على ما لا يُحصى من الشّواهد السّوداء المميّزة للقبور. كانت نسوة يتعلّقن بهذه الدّيكورات من السّواتر المخرّمة للنّظر إلى داخل المقبرة المحرّم عليهنّ دخولها.

توقفت لحظة قرب ما قيل لي إنّها قبور عدد من أئمّة الشّيعة منهم جعفر الصّادق. من هذا المكان المرتفع، يحيط النّظر بالمجموع. دوائر، أو مربّعات، أو مستطيلات من أحجار سوداء كبيرة في المقدّمة؛ في ما وراءها تمتدّ أدنى منها آثار قبور أخرى، لا تكاد تُرى. سرت على طول الممشى الرّئيسي. حاجّ هندي، لديه خريطة ذات رموز بالإنجليزية إلى قبر إبراهيم، الابن الوحيد للنبيّ، المتوفّى صغيراً؛ ثمّ قبر عثمان، الخليفة الثالث، المُغتال، مخلّفاً وراءه سمعة رجل تقوى ومحسوبيّة للأقارب؛ وأبعد منه، قبر زينب، التي أرضعت الصبيّ محمّد بن عبدالله في مضارب الصّحراء؛ في المدخل، إلى اليسار، ترقد عائشة، محبوبة «رسول اللّه»، «أمّ المؤمنين».

وبينما تجول بين القبور حمامات يلقي إليها الزّائرون بالحبّ، تسهر الشّرطة الدّينية، بقميص أبيض، على منع أدنى علامة على «عبادة القبور»، بحسب المصطلح الوهّابي.

توقفت قريباً من جماعة من الإيرانيين، يقودهم بعض الملالي، متحلّقين حول قبور أئمتهم هنا، بعضهم جلوس، وبعضهم وقوف في حلقات حولهم. أنشدوا في البداية أشعاراً بالفارسيّة، وشيئاً فشيئاً تحوّلت الأنشاد إلى نواح تعزية وندم يقطعها البكاء والنشيج. جذب التجمّع الشرطة الدّينية التي جاءت لتفريقه، دون هوادة. أمرني شرطيّ بالحركة والحذر من «ممارسات هؤلاء الشّيعة العجم ومن تأليه الإنسان وعبادة القبور». غادرت المقبرة، خجلاً من أنّ فرقة من فرق الإسلام يمكنها بلا عقاب أن تقمع ممارسات إسلاميّة أخرى، وتُبدي كل هذا الاحتقار للحساسية الدّينية لمسلمين آخرين وتنعتهم بالعجم. قبلت عن طيب خاطر أن أتحدث عن ذلك مع مُلاّ قصدني تحت ظل السّور المحيط.

«كنتَ حاضراً، لمّا طردونا. أأنت شيعي؟»

ـ نعم، رأيت. لا أوافق. لست شيعياً، أنا مغربيّ.

ـ آه! سنّة. ربّما لا تعلمون. إنّها المؤامرات دائماً ضدّنا، أنصار عليّ...

ـ مؤامرات؟

ـ أجل، مؤامرات، الأمس كاليوم؛ أنت رأيت بنفسك. في زمن النبيّ، كانت المؤامرة تُحاك سلفاً. كان أبو بكر والآخرون يحرّفون كلّ شيء، ويعطون لكلّ شيء الاتجاه الذي يريدون لتنحية الخليفة الشّرعي، عليّ...

هكذا تلقيت أوّل تلقين مباشر لي عن تاريخ «فجر الإسلام» من وجهة نظر شيعية، وبالعربيّة الفصحى. لقّنني إياها هذا المُلاّ الذي دعاني لزيارته يوماً بشيراز. اقترحت عليه أن يعتبر أنّ الخلافة وخصوماتها صارت متجاوزة؛ وفي أفضل الأحوال لا يمكن ربّما استحضارها إلاّ كمرجع ينبغي تأويله في مؤسسات ديموقراطية.

«أتعتقد حقاً هذا؟ سألني مخاطبي، محدّقاً فيّ.

ـ نعم.

ـ ننتظر نحن، عودة الإمام المستور. الإمام المهدي في بطن أمّه. وفي الانتظار، يلزم العلماء أن يسهروا على الدّين. سيعود لإحياء العدل. عودته لا ريب فيها. في إيران، لدينا اليوم ولاية الفقيه. هي المؤسّسة الأهمّ؛ تحمي الإسلام بفضل الأمر بالمعروف».

قبل أن نفترق، ردّدنا أن لا فرق بين المسلمين. سرت بمحاذاة السوق المكشوف المجاور للمقبرة، ومررت بما لا مفرّ منه من مناديل الرّأس، والطّواقي، والأسورة، والمناجد، والسّبحات، والشّموع، والعطور، والبخور، والسّجاجيد، إلخ، والتقيت الآخرين. قصدنا على الفور شارع الستين، في استكشاف آخر كان لازماً لاستكمال المشتريات. أملت كذلك العثور على مكتبة لطلب بعض المؤلّفات الهامّة في المذهب الوهّابي.

هذا السّوق الواسع جدّاً، مؤلّف من عدّة مجاميع، بعضها يشغله الأفغان كلّياً. «أنا من أفغانستان، لكن لست من الطّالبان»، أجابني أحدهم عن سؤالي عن أصوله. شرحت له أنّنا مغاربة، الشّيء الذي بدا أنّه لم يفهمه جيّداً. نحن بدورنا لم نكن نعرف كيف يقال مغرب بالأفغانية. كان جاره يلتهم بكلّ أسنانه خبزاً أثار شهيّتي. قدّم لي على الفور كسرة «خبز التنّور، خبز أفغاني، خبزنا»، قالها وهو يشير إلى الفرن القريب جدّاً.

انتظرنا طويلاً جدّاً أمام هذا الفرن. كان الرّجل يخدم أوّلاً، متجاهلاً وجودنا. سُخطنا لم يغيّر شيئاً. احتججنا بقوّة متزايدة ضدّ هذه «التصرّفات غير الإسلامية». انزوى إخواننا الأفغان في لغتهم واستمرّوا هكذا في نشاطهم. اهتمّوا بنا لمّا غادر مواطنوهم المكان مع طلباتهم تحت آباطهم. ذكّرني الحادث بما كنت قد لاحظته: نادراً ما يختلط الحجّاج، كلّ واحد يظلّ مع مواطنيه ويتكلّم لغتهم. كنّا، مهما يكن من أمر، موزّعين بحسب الجنسيات. وبالطّبع، تحتفظ كلّ مجموعة أيضاً بزيّها الوطني. فالزيارة، هذه الرّحلة للصّلاة في مسجد النبيّ والوقوف على ضريحه، بخلاف الحجّ، لا تتطلّب زيّاً شعائرياً. ومن السّهل تمييز الأندونيسيين بقبّعاتهم، والأندونيسيات بفساتينهنّ البيض الناصعة والمزوّدة بغطاء للرّأس، والباكستانيين بسراويلهم الفضفاضة والفستان ـ القميص، والأتراك بالبدلة الكاكيّة والعلم الوطني في

العروة، والمغاربة والمغربيات بالجلباب والطّاقية البيضاء، والإيرانيين بالعباءة، والإيرانيات بالتشادور الأسود، وناس الجزيرة بتنوّع الكوفيات، دون نسيان جلاّبية المصريين... اللّغات والهويّات الوطنيّة تفرّق بين هذه الحشود المسلمة التي تتحاذى دون صدامات مفرطة. وكالحال مع بائع الخبز، كان لا بد من استحضار الحديث، المتكرّر باستمرار، «لا جدال في الحجّ»! لم يكن النّزاع إذن مجهولاً، لكنّ التمرّن على الحفاظ على السّلم مستمر. والعبادة والتجارة، بتعبئتهما للطّاقات، تسيران في هذا الاتجاه. كانت الاتصالات والنقّاشات مع حجّاج الأمم الأخرى وجيزة ومتفرّقة. لا يجري الحديث إلاّ في ما يجمعنا ونفترق بعد العناق أو المصافحة الأخويّة. على الأقلّ، هكذا كانت تجربتي كرجل. أمّا من جانب النّساء، فقد أكّدت اللّواتي رافقننا هذا الانطباع.

لا شيء ينقص هذا النّشاط الدّائم والكثيف، حتى التسوّل والشّحاذة. أوقفني فتى باكستاني دعا إيماني لمساعدته. وبحسب أقواله، فهو يريد العودة إلى وطنه، لكنه وحيد بلا موارد. قنّاصون آخرون للصّدقات يأتون بحثاً عن الأظرفة السّمينة التي تهبها عوائل سعودية ثريّة. عند اقتراب الحجّ، كان هذا الجمع للصّدقات يشتدّ ويجذب أحياناً متسوّلين وشحّاذين من نوع غير متوقع. هكذا علمنا أنّ برلمانياً مغربياً سابقاً قد قُبض عليه متلبّساً بالتسوّل العلني.

تداول البضائع يرافق تداول الحجّاج ويحرّك سوق عمل نشيطة جداً. نقل الحجّاج ومتاجر المدينة تشتغل أساساً بفضل تشغيل غير السّعوديين، من الأفغان والباكستانيين، ومسلمين غيرهم من البلدان الفقيرة. يسوق المصريون الحافلات المكتظّة بالحجيج في «موسم الحجّ». ويفتح الباكستانيون متاجر وفق عقد مع المموّلين السّعوديين أصحاب الرّأسمال. تعارفت مع أحدهم، يفتح دكّاناً للسّاعات والصوّر: رجل لا يزال شاباً من منطقة كراتشي. أكّد لي أنّه يفتح هذا المتجر مقابل مبلغ ثابت بمئتين وثمانين ريالاً سعودياً في الشّهر، والمسكن والطّعام على نفقة صاحب المحلّ. وأضاف أنّهم عديدون يتناوبون على الخدمة، كلّ شهرين، هو، وأخوه، ووالده. وأنا أمعن في استكشاف أسواق المدينة، صادفت باكستانيين آخرين، وأفغاناً وهنوداً مأجورين أو

يعملون وفق «العقد» نفسه. وتكفّل المالك السّعودي بالطّعام والمسكن يفترض غالباً بالنسبة إلى هؤلاء «العاملين» المهمّة الإضافية للأشغال المنزلية.

كلّ شيءٍ في حركة: الكتل البشريّة، وتيارات الأفكار، والبضائع، والصّوَر، وضروب الحكمة العميقة أو السّطحية، والمذاهب، والخطابات، والأحكام المسبقة والمسكوكات. تنوّع الأمم واللّغات يأتي لنزع مُطلقية الأمّة واللّغة. العربيّة، لغة المُقدس، مرتبطة بالعبادة، وتنطبق على مجال خاصّ من حياة المجموعات غير العربية. مع الأندونيسيين، والباكستانيين وغيرهم من حجّاج جنوب شرق آسيا، أتكلّم بالإنجليزية. وفي المسجد، نرتّل القرآن في الطّبعة الرّسمية للمصالح الدينية السّعودية. نحن نعلم مسبقاً ما جئنا لنقوله بعضنا لبعض في هذا الموضع المقدّس، ونتواصل بطرق أخرى غير الصّوت المعتاد. لكن ماذا كنّا نقول بعضنا لبعض؟ اللّه، رسالة، توحيد، إيمان، إسلام... هذه الألفاظ تنتشر في حوارات لاهوتية وفلسفية، أو في تعليقات على حياة المسلمين وتواريخهم. شعائر العبادة تضع حدّاً للانتشار. حينئذ يحضر التدرّج نحو اليقين، نحو الله، الإيمان، الإسلام، دون نقاش. بهذا يمكن التلاقي دون التّمازج، والتّوافق دون الاتّفاق. لا أحد بتاتاً يُخفي ذلك فيتواصل مسار الكلمات.

تتمركز ألفاظ تراث في موضع، في مركز كثافة. كذلك الأشياء التي تعمُر الفضاءات التي تحيط المسجد بوفرتها الهُجاسيّة، وبالنسبة إليّ، لا تُطاق. إفراط في البضائع، التي تعني رغبات تخترق شيئاً ثمّ آخر بلا انقطاع. من بين جميع كائنات الخليقة، وحده الإنسان هو من يستهلك العالم في الصّورة ويهلك فيه. الأرواح والملائكة محرومة من ذلك وموقاة. الشّيطان، مثلنا، ليس كذلك على الإطلاق، وسنذهب، لهذا السّبب، لندمّره رجماً.

للمدينة قلب يخفق بشعبتين: المسجد والسّوق. بعض البضائع ذات صلة بلغة القرآن: كتب، سجاجيد الصّلاة، آيات مطبوعة على المرآة بحروف مذهبة. لكنّ تكاثرها يميل للإعلان عن نفسه بالإنجليزية، والفرنسية، واليابانية، والكورية، والصّينية... وإذا فكّرنا في الرّأسمال، في تمركزه ولا تمركز الصّناعات، في عصر التداول المُعمَّم هذا، يصير ممكناً تبيّن كيمياء

خفيّة تذيب جميعاً لغة القرآن، ولغة التوراة، واللّغات الإنجيلية، والكنفوشيوسية وأخرى غيرها...

كلّ هذه البضائع، التي تعرض نفسها دون تحفّظ على البصر، والشمّ، والسّمع، واللّمس، والذوق والحاسّة السّادسة، تتخفّف في المدينة من منشأها، ومن هويّة صانعيها. كتاباتها نفسها، بفقدها ما لها من الأهمية، لم تعد تُفكّ رموزها إلاّ لتقدير المزايا والأثمان. نجاعتها المقبلة وهيئات الوسيط الإلهي التي تتخذها كانت تنتزعها من منتجيها، مطروسة في كتابات اللّطف التي تتلقاها من صلاة الذّاكرة ودعائها. كانت هذه البضائع، وهي في حال عبور، على غرار الحجّاج، تضطلع بقوة التمائم النّافعة. غير أنّ «تميمية البضاعة» أو فتشية السلعة هنا لا تحجب العمل؛ بل بالأحرى تفضحه باسم أفعال الهبَة والدَّيْن السّالفة.

لم يكن هذا ظاهراً للنّظر، في الوهلة الأولى، لسبب جيّد هو أنّ الهبَة كانت تكمن في مُنتهى السلعة، في منتهى تكوّنها من حيث هي سلعة. موضوع للحلم، موضوع للإنتاج، موضوع مُنتجٌ، موضوع للمساومة، موضوع للاستهلاك. ما حدث من قبل يتظاهر بالتدخّل في ما بعد والعكس بالعكس. ولأنّها آلات للرّحلة عبر الزّمن، وتشخيص الماقبل في المابعد، فهذه السلّع تضع بين قوسين أثر الإنسان في المادّة. لم تكن الهِبَة ولا الذبيحة ترسمان هنا الحدود التي ترسمانها في مواضع أخرى. وليس ممكناً، إضافة إلى ذلك، أن تتبيّن فيهما أيّة فعالية، بافتراض أنّ هذه اللّغة هي أبداً لغة دين من الأديان. لا يمكن كذلك متابعتها لتعيين الحدّ بين البشريّ والإلهي، والعمل والرّاحة، كما كان الشّأن في اليونان. وفي الذاكرة العمليّة للمدينة، فالنصيب الذي يعود، في ما وراء العمل، إلى النّساء والرّجال، يقوم على الأخذ والعطاء كي يمكن التعرّف إلى الحدّ الثالث: الهبَة بدون سابقة. أي، بوضوح، على اختلاف يتحوّل - بالمكيدة والعنف - إلى مُتعالٍ وتراتبيّة.

المتعالي يتحقق في الأمّة. هي هنا، مجتمعة كلّ يوم في مسجد النبيّ. تأخذ شكل الحشد المتحرّك، والمسجد، والقبر، والقرآن... تستمرّ كسلطة، تُفوّضها وتقنّنها المعرفة الدّينية. ومن ثمّ تراتبية تظلّ بهذه الصّفة مدينة للتراكم

الجنيالوجي وللمجهود. العلماء في القمّة؛ يتلوهم بالتفويض رجال السّلاح، ثمّ الشّعب. كان هذا الأخير متراتباً بالمولد أو بالمهنة، لكن لا توجد طبقات مغلقة ولا شيء من أمور العالم مستقرّ. بالعكس، يعرض كلّ فرد حقوقه وفق قواعد عدالة تتعامل معه شخصياً بحسب ما تسهم به وضعيته، نظرياً، للمجموع. الدَّيْن والهبَة يحوّلان السلعة التي بذلك تشترك في الوجود الإنساني المنقذف مشروعاً لا نهائياً. نسير معاً، متقبّلين خسارات زمانياتنا المشتركة، مقذوفين في ما وراء ذواتنا. حَدْسٌ بنظام يتطابق مع شيء ضروريّ، لا باعتباطيةٍ قد تخفى علينا.

المدينة، كما أدرك ذلك يوماً بعد يوم، تضع حدّاً للتداول العامّ للسلع من حيث هي سلعة لمصلحة تداول متراتب للمعاني. ولذا بإمكان كمٍّ من الألفاظ الأخرى أن تترجم لفظ «زيارة»، زيارة القبر والمدينة المنوّرة، وكذا الصّلاة «بجوار الرّسول». هناك، دائماً، يتلاقى العالم كلّه، كلّ الأمم مجتمعة تحت شعار عالميةٍ عقيدةٍ. وآنذاك، كاليوم، يحجب تداول هذه الأخيرة التداول العالمي للأشخاص، والمعاني، والسلع...

بعد العالمية الإمبريالية والاستعمارية، أخذت البضائع، واللّغات، والصّور، والمُتخيّلات تتداخل وتتشعّب في الأشكال الأقلّ توقعاً. والتّرجمات والكتابات تهيّئ سُبلاً مختصرة. «زيارة»؟ تجمّع، عبادة، سوق، نقاشات... توتّر نحو معنى قادم أو مطلوب. بالتأمّل؟ بالتّرتيل؟ بالهتاف؟ بالبكاء، أو جميعها معاً؟... أشكال لا مستقرّة تتلو أشكالاً أخرى لا مستقرّة، كلّ واحد ينتهز لحظة نسيان، فترة تشكيل منبثق. «زيارة»: زيارة غريبة جدّاً. تزحزح وتدفع ألفاظاً أخرى: زورة، رحلة، عبور، سياحة، تجمّعات، أعمال... كانت كذلك تجمعها. «زيارة»، مرحلة أولى نحو مُنتَهى و«بيت اللّه»، على منتهى العالم والعولمة. على منتهى معاني الرّحلة، والتّداول، والعبور. منتهى «الزّمن العالمي»، وهو يستعيد علاماته لينطلق من جديد. الرّحلة إلى المنتهى ترسم شكلاً ينفتح على النّقص، أي إرادة حياة، شاملة.

كلّ رفاقي في هذه الغرفة الضيّقة، ما عدا اثنين، سافروا إلى أوروبا وغيرها. كانت إقاماتهم ممتدّة، إمّا لمتابعة دراساتهم العليا، وإمّا لتداريب أو

عطل. يتقنون الفرنسية أو الإنجليزية. من هذه الزّاوية، لست مختلفاً كثيراً عنهم، إذ عشت ودرست بفرنسا. وأعرف، بالطّبع، عن كثب، عدداً مهمّاً من البلدان العربية وحملتني خطاي إلى أميركا الشّمالية حيث أعيش وأدرّس في الجامعة. وجعلتني إقامات عمل على أُلفة مع بلدان أخرى من أوروبا، ألمانيا خصوصاً، وإسبانيا، وإنجلترا، وإيطاليا.. وأتاح لي اليابان وغينيا الجديدة الغوص لحظة في مجتمعات غير توحيدية، والمكسيكُ المراوحة بين عالمي المايا والأزتيك، وأنماط المسيحية الإسبانية الطّابع، وأنماط العروبية الأمازيغية الواضحة، والمكبوتة مع ذلك. أركيولوجية كان يقابلها، بنوع من السّخرية غير المقصودة، الدّم الجزائري المحقون هنا تحت الإمبراطورية الثانية، والشّتات السّوري اللبناني. كنت، قبل سنة تقريباً من رحلتي إلى الحجاز، أتناول الغداء ذات يوم في بورتو ريكو، مع الأسرة، في مطعم فلسطيني مكسور زجاج النّوافذ، كما قيل لنا، بسبب الهايتيين، «العبيد»، بتعبير صاحب المطعم. هذا المحلّ يجاور مسجداً صغيراً متواضعاً. البنايتان - كتْفٌ آخر - تندمجان بتكتّم في فوضى قذرة، وذلك بلا شك لتبعثا على تناسيهما.

نشأت في الإسلام، رأيت المسلمين تارة ظافرين وتارة منكمشين ومنزوين، تارة متسامحين هادئين وتارة انتقاميين غزاة، تارة مُضطهِدين وتارة مُضطهَدين يُقتلون بالآلاف. آلات حرب حديثة تسحقهم، ومنذ بعض الزّمن، تبدو حياتهم أرخص من الحيوات اليهودية المسيحيّة. رفاقي يقاسمونني هذا الشّعور. لكن، إضافة إلى اليقينيات التي قد يرمي بها إيمان فطري جانباً، يقترحون عليّ مذاهب سياسية واجتماعية لا أقبلها. كلّ يوم يمرّ يزيد من إظهار اختلافاتنا. انتهيت إلى التّسليم، رغم الذعر، أنّ الوهم والحلم هما الوسيلتان الأكيدتان لتخليصي من اللاهوتيات العقلية والحسّ السّليم المتسلّط. أعلم أيضاً، منذ زمن معيّن، أنّ حياتي تتحوّل بفضل تكثيفات لا أدرك معناها إلاّ بعد فوات الأوان، وبصيغة الماضي. إنّ الزيارة والحجّ نفسيهما، وهذا ما أحدسه الآن، يقذفان بي في واحدة من هذه التكثيفات التي، بنوع من التركيب الضّوئي، تحملني نحو صور من حياة أعايشها كالآخرين. لكن، مرّة أخرى، ما يبدو أنّه سيحدث قد حدث سلفاً، ونضارة الحياة لم تعد تعرض نفسها إلاّ

بألوان ناصلة. الألفة الغريبة التي قد عشت بها كلّ لحظة منقضية من سيرتي حاضرةٌ هنا لتقنعني بأنّ أشكال المستقبل هذه ليست كذلك.

في المدينة، أجد إذاً مألوفاً لم أكن مع ذلك قد عرفته. ليس ذلك لأنني قدمت هذه المدينة ومعي المدن المنوّرة التي كنت قد تخيّلتها فحسب، والتي انطبعت بعضها فوق بعض، مشكّلة بذلك ترسّبات وغطاءات. رأيت المدينة في أطلال هذه المدن... هذا الوجه المألوف ينضح بغير المألوف، وعليّ الصّمود للبقاء في مدينة «زيارتي» لتلافي التعثّر المميت على العتبات التي تفصلها عن المدن المنوّرة الأخرى فيما هي توحّدها بها.

كنت بهذه الرّحلة، مقذوفاً في العابر، والهشّ، والمُترحّل. لا شيء مشابهٌ للسياحة بمبادلات كليشياته وفردوس الفتّوة، أو لسعي متبعثر يذهب بالهويّات في الانزياحات اللامنقضية للترجمة. خرجتُ من بيتي، وأنا ذاهب نحو بيت منصوب على منتهى. هذه الرّحلة لا تتميّز ببساطة عن الأخريات بوجهتها. طابعها اللامسبوق والممتنع عن الوصف يكمن في واقع أنّ المُقدَّس يسكن مكاناً؛ وأنّ هذا الأخير هو في الموضع الآخَر وفي المنتهى وأنّه لا يتحقق إلاّ بحركة البشر، قديماً على الأقدام، واليوم بفضل النّقل المُمكنَن وتقنيات الاتصال التي تتوقف عند أبوابه، كالمصعوقة. هذه الحركة تتجمّد على حدّ القديم وتلمس هنا شيئاً ليس بمقدورها رسم تكوينه، لكنّها تعلم أنّه هو الأصل. كنت، وأنا حاجٌّ، أغادر هكذا بيتي لأقصد بيتي الأسطوري، الوحيد الذي بمقدوري أن أسكنه، ويقبلَ انجرافي للعالم: بيت الأبد لأنّي فيه دوماً مع القديم. المسكن الأوّل والأخير: من كان إذن غلافاً للآخر؟ ما أبعدنا عن بابل الجديدة وزعمها الحفاظ على اللّغات منفصلة.

المدينة توفّر الأئمّة والتجّار. وبإمكان حسّ الرّبح أن يطلق العنان لنفسه وتدعم أهواؤه مدينة التجارة والخدّام الذّين نذروا أنفسهم لعبادة هذه الإلهة. إنّ شمولية مثل هذه العمليّة تتيح في الآن ذاته التجمّع والعزلة، وأنواع الاندماج والانفصال. بإمكاننا المساومة باللّهجة المغربية مع تجّار سعوديين، أو باكستانيين، أو أفغانيين، لكن ما إن يغادر السّوق كلّ فرد، حتّى ينطوي في منطقته. في كلّ مكان تميّزنا الأزياء بعضنا من بعض. زيّ الأمم الإسلاميّة

العتيقة، تُعاد إليه الحُظوة في الحياة الدّينية للدّولة ـ الأمّة، في علاقة توتّر، وتوفيق، وترقيع مع الزيّ الغربي الذي يرتديه، مع بعض التقويمات، الأندونيسيون والأتراك.

مناسبات السّخط المتبادل، الصّريح أو الضّمني، عديدة. ومن العسير عليّ جدّاً الدّخول في اتّصال مطوّل مع سعوديين أو حجّاج من أمم أخرى، باستثناء بعض الإيرانيين والأندونيسيين الذين استطعت التحادث معهم بالعربية الفصحى الحديثة، أو بالإنجليزية. وبالمقابل، تزداد العلاقات دائماً وثوقاً بين رجال مغاربة، رفقاء وجيران، في حين أنّ الاتصال مع النّساء محدود جدّاً ومتقطّع. في السّوق كما في المسجد، نعرف كيف نعامل بعضنا بعضاً باعتدال، لا بإنكار الآخرية، بل بتنظيم علاقاتنا وفقاً لها. فريضة الصّلاة جماعة تتعاقب مع الاتحاد الآخر، اتحاد السلّع، مع احتفاظها بتلك الأولوية التي تتيح الوحدة والتشتّت.

عاداتنا تنتهي بالتجمّد. وللتغيير، قرّرنا ذات يوم الذهاب إلى سوق التّمر. أحد جيراننا قد سمع به في المغرب، فالحجّاج، كما هو معلوم، يستخبرون كثيراً قبل السّفر. سرنا في الاتجاه المشار إليه، بعد صلاة الظهر. كنّا قد غادرنا المسجد من باب السّلام، في اتّجاه ذلك السّوق. مباشرة على يسارنا، بين المقبرة الكبرى والطّريق السيّار، تمتدّ البناية الهائلة لمحاكم الشّريعة، تخفق رايتها. وكالمعتاد، اقشعرّ بدني لرؤية هذه المؤسّسات. لا من الخوف، وإنّما بسبب إحساس جرّبته أثناء السّفر بالطائرة. كنت، مع مجموعتي من الحجّاج، تحت رعاية شركة الطّيران السّعودية. وفي مكان ما من السّماء، بين وادي النيل والهبوط في جدّة، فتحت المجلات الفاخرة للشّركة: صور جميلة على ورق صقيل، مقالات مضجرة وإشهارات. بدأت أغفو، حين لاحظت نصّاً لم أكن قرأته قط في مجلات من هذا النوع: تصريح ينذر بأنّ كلّ من أدخل مخدّرات إلى «الأراضي السّعودية» سيكون مستحقاً لعقوبة الإعدام. عند هذه القراءة، كاليوم أمام محاكم «العدل» هذه، شرع خيالي في تأليف شريط عن الإعدامات على الطريقة الوهّابية؛ شريط لا يزعم تصوير مشهد حقيقي، معايَن، بل إنّ سرياليته تجعلني ألمس واقعاً معيّناً: عملاق بعضلات فولاذية،

شاهراً سيفه؛ المُنكّل به مقيّد، جاثياً، لا يدرك شيئاً عن موقع ملك الموت. ثمّ سريعاً جدّاً ينخس سنّ السّيف أسفل الظهر، والعنق الذي يتمدّد ويلاقي حدّ السّيف الهابط رمشة عين... حرفية المذهب الرّسمي تزعم اختزال كلّ استعارة، فارضة بذلك شفافيتها، القاتلة. لا تخشى مطلقاً أن تدّعي، مثلاً، أنّ الـ«سيف» ـ بالمعنى الحقيقي! ـ لا يعني شيئاً آخر سوى «الآلة الحادّة» المستعملة في تطبيق العدالة... أمام هذه البنايات المخيفة، أخذت أفكّر أنّني ربّما ارتكبت جرائم وأنّه يمكن في أيّ لحظة أن أسلّم بين يدي قضاة مدرّبين جيّداً، بالمعنى الحقيقي، وجلادين بأسياف خالصة.

وأنا أسير في اتّجاه السّوق، استبدّ بي التقزّز. تقزّزٌ من إمكان أن يُساق إنسان هكذا أمام قاضٍ يقرّر حياته أو موته وفقاً لما يروق فهمه من الأحكام الإلهية في زمن النبوّة. تقزّز من أنّ البعض يعترفون لأنفسهم بالحقّ في تأويل مطلق للسّوابق النّبوية التي يمنحون أنفسهم بها سلطة إصدار أحكام مطلقة. ثمّ هذا القرب الكبير أكثر ممّا ينبغي بين بيت اللّه وبيت القضاة. ألم يعد المسجد مكان السّلام وزمانه، والرحمة التي هي أسمى من القانون؟ ألم يعد المسجد ذلك المكان وذلك الزّمان حيث يكتشف المصلّي كلّ نواقصه، وكلّ أخطائه، لا كجرائم، بل كذنوب أمام اللّه، أمام الرّحمة؟ منتظراً الغفران، لا شفرة السّيف؟

قطعت الطّريق السيّار بخطى سريعة لأخلّف ورائي هذه الرؤيا التي تفظعني. الدّروب الاولى من الحيّ الذي نقصده على مرأى منّا. يا لسكينة وعزاء سوق التّمور هذا! فضاء واسع ذو جدران ودعامات بأحجام متواضعة! حين الدّخول، تكتشف ردهة واسعة مقسومة، طولياً، بدكّان حجريّ مبنيّ على جهتي حاجز مشبّك. وحوله حوانيت يغطّيها رواق مفتوح. كان النّشاط في الآن ذاته كثيفاً وهادئاً. والتّمور، في كومات سخيّة، تتألّق في النّور، وتعرض علينا ألوانها: ذهبي، عسليّ، أسمر مخملي، أصهب يميل إلى الباذنجاني، أسود حريري، عاجيّ يعقبه الأمغر... كلّ الأشكال: طويلة، رفيعة، قصيرة، سميكة ومضلّعة قليلاً، ضخمة ومستديرة تقريباً، مسطّحة، عريضة من طرف ومدبّبة من الطرّف الآخر مثل الفليفلة؛ كلّ المجسّات: صلبة، متماسكة، رخوة،

لزجة... أيّ خلاص! التّمور المتوهّجة بأنوارها المتكتّمة والرقيقة! أيّ شفاء!... بعد أشكال الذّهب، والماس، وخردة الإلكترونيك العالمي، والهامبرغر، والشاورما، ومحلات الخدمة الذاتية، والمطاعم - من فصيلة ماكدونالدز، والويمبيز -، والسّيتي السّعودية... حجّاج، كثرة من الباكستانيين والهنود، يشترون تموراً للتبرّك، وللزّاد. لمّا شاهدت وجوهم الهادئة الرّاضية، نسيت للحظة أولئك الذين ينبشون ليلاً ونهاراً المجرّة التّجارية.

تذوّقت تمرة، ثمّ ثانية، وثالثة؛ السكّر المعطّر يوقظ لهاتي على مذاقات راقدة، منطبعة فيها منذ زمن طويل. تشعّ، كالألوان، وفي سيري متمهّلاً بمحاذاة رواق، توقف نظري على لافتة، معلّقة فوق باب مكتب: «شيخ تجّار التّمور»! تأمّلت هذا الوجه الذي تؤطّره الكوفية المشدودة حول الرّأس بعقال أسود: وجه رقيق بقسمات نبيلة. البسمة الطيّبة تؤكّد رهافة القسمات. هذا الوجه، مثل السّوق، ينضح بالبركة.

كلّ شيء، كلّ كائن يمكن أن ينطوي على البركة. كلام كثير قيل عن هذه الكلمة. لكن ربّما لم يُلاحَظ بما فيه الكفاية واقعُ أنّها تحيل على مبدأ فاعل. يكون تارة في رقود، وتارة يقظاً نشطاً، وتارة هابطاً، بل في حال فقدان للفعّالية. وربّما كذلك لم يتمّ التأكيد بما يكفي على التباسه: اسم، نعت، مع صيغ فعلية متعدّية ولازمة. منفعل/فاعل إذن: بالتماسّ والاحتكاك، يسكن الكائنات بمجرّد الجوار أو بالانتقال. نافع وخطير على السّواء. مثل هذا المبدأ يتنقل في حرّية، بلا ضابط. لا يمكن تلقّيه إلاّ في بعض الظُروف. حركات، وظائف تيسّر هذه الانتقالات: مسٌ، قبلة، ملامسة، إدخال إلى الجسد. أشكال توزيع وإدخال.

التّمر، الشّعير، الحليب، موادّ مشبعة بالقداسة، موصىً بها على الخصوص في هذه المواضع. لست أبحث عن هذا النّوع من الصّلة وأنا أتذوّق التّمور التي أعجبت بها في سوق المدينة، مع أنّ دينية الفيض، المتجذّرة في تراث سحيق، تلائمني أكثر من الدّين الوهّابي. إنّ غُلاة الوهّابية، في ذهابهم بالتّوحيد، الذي لا يعرف عنه البشر شيئاً في العمق، إلى حد العبث، يحوّلون الموجود إلى تجريد بسيط. إنّهم يهبطون بالقرآن

والنّموذج النّبوي إلى مرتبة كُناش وصفات يُعهد بتطبيقها إلى الميليشيا. بدل أن يكون اللّه مبدأ ودعوة، يصير جنرالاً بقميص وكوفية، قاسياً متوحّداً. وهذا الإصلاح، الذي يزعم استعادة القوّة للإبداعية والعقلانية الإسلاميتين، هو في واقع الأمر قد نفى قدسية الكائنات على هذه الأرض. ما من شيء يفلت من هذا الدّمار: لا التّلال، ولا رمال الصّحاري، ولا نخيل الواحات، ولا الحيوان، ولا الأضرحة، ولا المدن ذات العتاقة الجليلة. ولا حتى المدينة نفسها. يعاملون دون إحساس الأراضي التي أوجدت الزّيوت الحيّة؛ ويهدمون الأضرحة، ويسوّون بالأرض المدن القديمة مع مساجدها العتيقة، وشوارعها، وبيوتها، وكلّ تلك الإبداعات التي تحمل آثار نظرات، وانفعالات منذ آدم؛ يحيلون إلى رمادِ العظامَ التي تأمل في صمتها نفسه البعثَ بالكلمة. كأنّ الاعتراف بإله منحبس في القوّة وحدها يفرض بكلّ ثمن نبذ جمال المقابر التي تعود، بفعل التحلّل البطيء، إلى الطبيعة، كأنّهم يعطّلون قوّة الأجيال الماضية التي يُمدّنا بها القبر والمقبرة!

التّمر والنّخيل ينقذانني؛ إليهما ألجأ. ذاك منذئذ هو موضعي، الموضع الذي بمقدوري الثّبات فيه، الموضع الذي كان العمران الكلّياني والبوليسي عاجزاً عن تشويهه. النّخيل والتّمر يكادان يعزّيانني عن كلّ شيء. عن مسجد قُباء، أقدم مسجد بناه الرّسول، المسمّى بذي القبلتين حيث سُنّ التوجّه في الصّلاة نحو الكعبة، عن مقبرة أُحد، التي لم تعد تُرى منها إلاّ كوم حجارة وسط تسويرة من الحديد الخردة. يعزّيانني عن اضطراري لأشاهد كلّ هذا خطفاً، وفق إرشادات سائق تاكسي من الحجاز، جشع إلى المكسب ومهووس جنسياً برفيقاتنا. مساجد تُسوّى بالأرض ويعاد بناؤها. مقبرة حيث دُفن أصحاب النبيّ الذين سقطوا من أجل إيمانهم، محظور التخشّع فيها ومحاطة بالبضائع. في ما بعد، فكّرت في ذلك التّمر، وأنا تائه في المدينة المنوّرة ذات الشوارع على الطّريقة الأميركية، متأمّلاً الأحياء الفاقدة لأيّ ملاحة للطّبقات المتوسّطة للحداثة العربية، مفتّشاً الأماكن دون جدوى للعثور على بقيّة من الحقب الغابرة، شيء يمكن أن يسدّ مسدّ أصولٍ ومسارات. المدينة الوهّابية تتفنّن في طرد المدينة. مدينتي وجميع المدن الموجودة. لكن

هذه الأخيرة لا تختفي البتّة. تنزوي في فضاء حيث سخريتها السّماوية ستأتي دون شكّ لتصعق المدينة الجديدة.

المدينة بيتي. لا أثينا بركليس، ولا أورشليم الهيكل أو أورشليم قسطنطين، ولا روما الآلهة الكادحة والقدّيس بطرس، ولا باريس مربّع ساحة الكونكورد المقدّس، حيث دُفن الملك الذّبيحة تحت مسلّة (في الطقس العظيم للجماهير الثّورية حول المقصلة)... لا شيء عرف كيف يُسقِط المدينة، بيتي الأسطوري. تسكن كلّ مدن الإسلام. وستعرف كيف تُحبط المدينة التي تأبى عليّ النّظر حتى إلى قبر النبيّ، التي تمنع عليّ كلّ شيء أرغب في أن أراه، وألمسه، وأنتشقه، كلّ شيء قد يتعاقب مع الصّلاة والتّرتيل القرآني ليقذف بحبلٍ جسديٍّ نحو معجزة ميلاد تراث. وفي غياب دروب يثرب العتيقة، وأبنيتها، وأماكن عبادتها، النّخيل والتّمر وحدهما يفتحان إلى ذلك المكان. النّخيل والتّمر يقدّمان لي ما كانت الأمّة اللّدُنيّة قد أبصرته واستطعمته، وبمقدوري أنا بدوري أن أبصره وأستطعمه. يعيدان كذلك ربط الصّلة بأولئك الذين قد عاشوا في هذه الواحات، قبل أمّتي اللّدُنيّة: لغتهم، دياناتهم، معابدهم التي أحرزها من قراءة القرآن، والتي استعادها لي كأشياء محسوسة ابن الكلبي وعلم الآثار الحديث. هكذا تذوّقت تموري وتأمّلت منذئذ كلّ نخلة يحدث لي أن أصادفها. كأنّني أحادث النّاس الذين كانوا، قديماً، قد استذاقوا هذه التّمرة واطمأنت روحهم برؤية السَّعَفات، على ذروة الجذع، ساكنة، منفتحة، مشدودة نحو الأفق.

ما إن انتهت زيارة هذا السّوق، حتّى عدنا، آخر المساء، إلى المسجد. بدت مآذنه متأرجحة بين السموّ والدّيكور، بمنائرها الشرقية التي تشقّ السّماء، وقبابها النّحاسية، وأبوابها الأندلسية. الصّلاة الهائلة الهادئة تستولي عليها مع ذلك لتعيدها لبدائع السّماء. غادرتها بعد الصّلاة، كأنّما تحملني الجَلَبة الهادئة المتلاشية بقدر ما أصعد الشارع. أخذت دون اهتمام في البحث عن مطعم.

قبل حوالى ثلاثين سنة، كنت قد شاهدت، بغيظ مكتوم، عمل الجرّافات التي كانت تبقر الهفوف، العاصمة العثمانية القديمة لشرق الجزيرة العربية.

كانت المدينة، ذات الأغلبية الشيعية، تقع في واحة جميلة، وسط منخفض تطلّ عليه أجراف متلوّنة بشيات الذهبي والوردي النّاصل. واحات نخيلها ترويها مياه انبثاقية متوسطة الغزارة. في تلك الفترة، كان السقي يتعصرن وأشكال التدمير المتسارعة في المدينة تجري باسم تلك العصرنة نفسها. أحياء كاملة تختفي: بيوت ومساجد ترابية جميلة الصنع تستحيل إلى غبار. بعض الأشخاص يتهامسون بأن العملية موجهة خصوصاً لـ«ترتيب» الطائفة الشيعية، وبعبارة أخرى لمراقبتها. إذا كانت المدينة الشيعية الأخرى، القطيف، لا تزال تفلت من هذا المصير، فالهوس المدمّر لم يبق على الدمام، المدينة السنية في شرق المملكة، على مسافة نحو الجنوب. «العصرنة» تدمر كل شيء. لم تعد توجد سوى شوارع عريضة، مهيّأة للسيارة؛ طرق سيارة، شوارع تمنح شبكتها لمدن هائلة، منفصلة بعضها عن بعض. أحياء من العمارات تنبثق في كل مكان، شبيهة بتلك التي في المدن العربية الحديثة، بمصحات، وأسواق ممتازة، ومطاعم، وفنادق... الظهران، المدينة . القاعدة الأميركية، المتحصّنة وراء حواجزها المنيعة، تسهر على هذا كله. فيها تتركز القوة العسكرية، والإدارة النفطية، وعرض «الحياة على الطريقة الأميركية» التي يأتي أفراد النُخب لتذوّقها مع زوجاتهم، متزيّين باللباس الغربي، متخلصين خلال أوقات الفراغ هذه من الحجاب، والقميص الأبيض الطويل والكوفية.

في الدمّام، التقيت عدداً من طلبة معهد النفطيات. معظمهم كان سنياً، مثل غالبية كل الذين كانوا، في ذلك الحين، يتولون المراكز الأساسية ولديهم منفذ ممتاز لبلوغ التعليم التقني من مستوى عالٍ. كان الشيعة يأتون للعمل في الدمام ويعودون مساء إلى «مدينتهم»، القطيف. حصل لي أن تبادلت بعض معلومات وآراء مع جماعة من الطلبة الذين يعملون تحت إشرافي. بعضهم، حين ينطق بلفظ «شيعة»، حتى في حضور رفيق ينتسب إلى هذه الفرقة من الإسلام، لا ينسى أبداً تقريباً أن يتبعه بصيغة لعنة مُكرَّسة. كانت انقلابات عميقة تهز كل مجتمعات «الشرق العربي» زادت من سرعتها دون شك نتائج حرب ١٩٧٣. وكانت إيران القومية الفارسية للبهلويين تعرف انقلابات أشد سرعة. في مثل هذا المناخ، كان هذا النوع من العادة الكلامية يتخذ هيئة عادة

مقصودة، ملقّنة ويُعاد تلقينها. غالبية الشباب الذين التقيتهم، الشديدي الصلابة في التعاملات، المهتمين بالرياضة، يؤدون الصلاة بحكم «الواجب»، أو كما يقولون لي باسمين، «لأنك بدون هذا لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان... ثمّ... الشرطة الدينية». كانت هذه تمرّ دائماً؟، وبمواظبة نادرة المثال عند أوقات الصلاة، بالمسدس على الخصر، تدقّ بالعصا أبواب الحوانيت هاتفة: «صلاة! صلاة!» كانوا يطرحون عليّ قليلاً من الأسئلة عن بلدي، ما عدا السياسة والنساء. «صحيح أن عندكم تستطيع الطالبات اللهو مع الطلاب؟» سألني أحد مخاطبيّ. أجبت: «نعم، طبعاً، يحدث هذا»، «دون أن يدفع، يستطيع الولد...» تابعت: «نعم، يحدث هذا أيضاً». «منذ زمن طويل وأنا أريد الذهاب للمغرب! أنت ترى... هنا صعب جداً، لا بد من الزواج!». مع بعض البالغين، كان تبادل طقوسي لقليل من الكحول، وبعض وجبات الهمبرغر والبطاطا المقلية، والتعليق الخالد: «كل بلد وعوائده، لسنا كالآخرين؛ هنا يلزمك أن تفعل كالآخرين؛ أنتم في المغرب فرنسيون أكثر مما ينبغي». أو أيضاً، هذه الملاحظة من موظف سامٍ: «في المغرب، ديمقراطيتكم تفسدكم. تخلّصوا منها!». ملاحظة تركتني مبهوتاً. في تلك الفترة، كنّا في صميم حالة الاستثناء، كان البرلمان معلقاً والقمع في عنفوانه...

الحراسة المعمّمة، اللغات المزدوجة، «الرفض المستور»، الامتثاليات... كل هذه الأعذار، كل هذه الآلام، أنساها من وقت لآخر حين تجود علي السماء بلقاء غير متوقع. تلك حال عشية جميلة مع قاضي الدمّام. تخطّى الستين، سنّي، استقبلني بالفصل الصارم بين الرجال والنساء؛ مثقّف، لطيف، أليف، بطيبة مكتومة، كما وجدت ذلك كثيراً عند العلماء التقليديين في بلدي. حين صلاة الظهر، ابتعد نحو ركن من الحجرة دون أن يسألني شيئاً، وبعد أداء الفريضة، عاد فوراً إلى حديثنا أمام فنجان قهوة طيّب. تحدّثنا عن الدّين والشّريعة، لكن أيضاً عن الأدب. حثّني على العودة لزيارته، وفي لقائنا الثاني، استودعني مؤلفاته «لعرضها»، كما قال دائماً بالنبرة نفسها من الرقة الجادّة، «على رأي علماء فاس». صادفت مرفأ الطمأنينة والتهذيب نفسه أثناء دعوة للغداء من مثقف شيعي من القطيف في بيت كبير من عدّة طوابق،

من التراب. تحدّثنا طويلاً، رأساً لرأس، في الطراوة التي يحفظها سريان الهواء، الذي توفّره بحذق فتحات أفقية في جدران الصالون ـ المكتبة الفسيح. رفوف جميلة التناسق تشغلها مجموعة وفيرة من الكتب، منها ترجمات لكارل ماركس، ومزينة بتحف هندية وصينية. كانت القطيف لوقت طويل ميناء صيد للؤلؤ وللتجارة مع إيران، والهند وما وراءها. كان مضيفي يدعو إلى التسامح ويشكو السياسة الدينية الوهابية. غادرت المدينة وأنا أتساءل إن كان سيبقى منها شيء مع امتداد الموانئ والتمدين الرسمي الذي لا يعبأ باللياقات.

هذه الذكريات التي أحتفظ بها من مقام عمل طويل نسبياً في الخليج تعود إليّ بقوة فريدة في هذه الأيام الأخيرة بالمدينة. فالحجاز يحتوي دائماً على الموارد الكبرى للحج، ومنطقة الخليج، منذ نصف قرن، على موارد نفطية هائلة. ورغم هذا الاختلاف، فإن اختفاء المدينة العتيقة يشهد على إرادة المحو الشامل للماضي نفسها، تلك الإرادة التي أزالت الهفوف العتيقة أمام عيني من قبل ثلاثين سنة. كانت الشركات الكبرى العربية، والأوروبية وغيرها قد استفادت من هذه الغزوات في «مدن الملح». لمدة طويلة، فسّرت ذلك بالجشع إلى الرّبح، وانعدام الكفاءة التاريخي للبيروقراطيات والتصرفات الخرقاء التي تحاول البرهنة على شيء ما للآخرين: حداثة ردّ فعل تعويضي، مكسوة بالعباءة والكوفية، وإبحار قصير النظر في اتجاه اللحى الطويلة، أو القصيرة والشوارب المقصوصة بعناية. قد يكون في هذا بعض الحق. تيه المدينة كشف شيئاً آخر: نسيت أن الأمر يتعلق في الواقع بنوع من الكليانية الحديثة، أقرب إلى النظام السوفياتي الراحل منه إلى ميثاق المدينة أو اللاشكليات البدوية. صيغة لا ترحم تديرها بنية تقنية بوسائل فائقة التطور للاتصال والتجسس، وتقنيات الترهيب اليومي، وقوة دعاية تعرف كيف تعيد تركيب التقاليد والضغوط الاجتماعية لحسابها... وهي في المدينة، كما في غيرها، تقدم لنا نسختها الحصرية للمدينة المقدسة وللمدينة. نسختها ولا شيء غير ذلك.

أثناء الأيام الأولى من إقامتي بالمدينة المقدسة، عجزت عن التخلص من إحساس أنني كنت الوحيد الذي يرفض «زيارة» المدينة الوهابية؛ ويتابع «حلم

«المدينة المنورة». غير أنه، مع الزمن، أخذت تتجلى للإدراك أنواع رفض أخرى. أفكّر في المُلاّ الذي صادفته قرب المقبرة والحجاج الإيرانيين الآخرين. كان أولئك الرجال يبكون الأئمة الذين ضحّوا بأنفسهم، في رأيهم، من أجل قضية المعرفة المطلقة والعدل على الأرض. كانوا يحتازون أسراراً يتعذّر بلوغها على العامة، فمدينتهم المنورة هي مدينة الشفاعة إلى الله بفضل النبي. مدينتهم المقدسة هي مدينة الحضور الحي بيننا لهذا الفضل المحيي. الزيارة، والمديح، ونشيد ملامة الذات، كل هذا يستدعي ويذكّر بالعودة التي لا ريب فيها للمخلّص المغيَّب.

لامبالاة الإيرانيين بالمدينة الأخرى، تلك التي تحاول إنكارهم، ساعدتني شيئاً فشيئاً على فهم لامبالاة الحجّاج الآخرين بمشهد المدينة هذا نفسه الذي يؤدون فيه طقوسهم والوظائف الأساسية للحياة. يقولون لي: «كل واحد جاء هنا ليؤدي حق الله». والباقي لا اعتبار له... فهم منشغلون أكثر بأن يتبعوا بأقصى تدقيق ممكن قواعد حج مقبول من الله. وانحراف السلوك الذي يجازف بإبطاله أو إضعاف قيمته (خصومات، أنانيات، اغتيابات، غياب التواضع عند الرجال والنساء) هو موضوع شتى الأحاديث. وعيب التبرّج، الذي كان الخوف منه محصوراً في النساء، لا ينفك يثير انتقاد الرجال. هُجاس يومي، وكذا ضرورة فصل صارم بين الجنسين. جيراننا يعاتبوننا بتهذيب، لكن بحزم، على اختلاطنا. وتحت رقابة تقني كنت قد عرفته منذ سنوات والذي اعتنق السلفية الوهابية، يسهرون على حصر «نسوتهم» في «فضائهن الخاص».

تبيّنت منذئذ أن اللامبالاة كانت على ما يكفي من التعميم، وأنها تعود لبعض الخيارات: مثلاً، انفصال عن المدينة السعودية، أو على العكس، انضواءٌ لا هوادة فيه إلى مسلكها. في الحال الأولى، يتم اختراقها ببساطة للالتجاء إلى النور النبويّ؛ وفي الأخرى، تكون الإقامة في هذه المدينة الجديدة من الإسمنت والممنوعات بيقين يكف فيه هذا النور نفسه عن إنارة المسالك الخطرة للروح. أولئك الذين كانوا على استعداد لحمل هذا الدرع الرهيب كثيرون. صانع تقليدي أعرفه أمرني بستر ركبة قد انكشفت بحركة

مباغتة من جسدي. حاج مصري، يدخّن سيجارة، سدّد سبابته نحو بطني: كان زرّ من قميصي، على مستوى السرّة!... غير مزرّر. كنت ألبس ملابس داخلية تحت هذا القميص. ردّد: «لا يهمّ، لا بد من تزرير القميص!». المدينة المنورة تتوارى هكذا وراء مدينة الذين يكتشفون لأنفسهم مهمة وكيل لله على الأرض. أما الحجّاج الذين يقصدون ينبوع الحياة، فقد واصلوا طريقهم، غائبين عن خريطة الرقابة هذه. آخرون أيضاً يكتفون بفرحة أن يوجدوا هنا، منفلتين من كل مسؤولية وكل انشغال، متذوّقين حفلاً شعبياً، لحظة من عطلة، أو راضين بطعم أولي للجنّة.

بما أن الدين يولد التيارات الأشد تناقضاً موفّراً تعايشها بواسطة نوع من القبول بتجاهل متبادل، كان متاحاً لكل واحد التحرك في مدينته. الحاج مبارك، جاري، سائق «بيكوب» في إدارة، يقضي معظم وقته في الصلاة، والتدخين، والسخرية من «جشع هذا البلد». قال لي يوماً: «إذا كان الله واحداً، لماذا نرحل من موضع لآخر لملاقاته؟ لماذا يذهبون بنا إلى أماكن مختلفة؟ أليس ذلك ببساطة لتشجيع التجارة؟...». كنت، أنا نفسي، أحسّ بالتعاسة في شيكاغو الزائفة هذه، بشوارعها «أبو ذر الغفاري، عمر بن الخطاب»، الخ، ومتاجرها، وفنادقها ذات الأسماء مثل «التقوى أنتركونتننتال».

لم يكن المسجد يفعل سوى أن يُحيل كلّ واحد على ذاته ويعمل على أن يخضع الجميع لأشد الإكراهات لامقبولية، مع الانفلات منها. لا شيء يمنع على الرجال والنساء مقاربة الله والنبي بالقناعة الحميمة الأشد تنوعاً. لا حضور للعسكر قرب الضريح، ولا الشرطة المدنية التي تستربع فضاء الصلاة المقدس وأبوابه. عبثاً يكرر الوعّاظ الوهابيون التأكيد بصوت عالٍ على أولوية الرجال، آمرين النساء بالبقاء في الخلف؛ عبثاً يعتقدون بسط الطهارة المطلقة بأن يفصلوا، بسور عالٍ مقفل الأبواب، أماكن عبادة الجنسين، فأولئك الذين هم في حماية دينهم يوجدون في بُعد رابع، بُعْد الصلاة، التي تفلت بهذا من إدارة الدين وقدرتها على الانغلاق.

هذا الاختلاف في المقاربة، وجدته في صميم الأسئلة المتصلة بالعلاقة

مع الله. بين المغاربة والجزائريين الذين أتيح لي لقاؤهم، كانت الآراء الوهابية حول التوحيد مثار جدل شديد. في ختام مقامي بالمدينة، بعد صلاة الظهر، تحلّقنا في مجلس الوعظ والأسئلة والأجوبة. كنا مجموعة صغيرة تتابع هذا المجلس على سطوح المسجد. الحرّ خانق والتنفس أفضل في الهواء الطلق. شاب مغربي . الصوت والنبرة يتيحان التعرف إلى أصله . سأل إن كان جائزاً أداء الحج محل والدين ميّتين، وطلب الغفران من الله عن بعض ممارستهما مثل زيارة قبور الأولياء. سؤال شائك، يناقش كثيراً بين المغاربيين، يزيد من ذلك أنّ الدعاية الوهابية لا تكفّ عن التشنيع ضد «الزيارات والقرابين للأضرحة». هبط الجواب، لاذعاً: «إذا كان الأبوان قد تلقيا مذهب التوحيد واستمرّا رغم ذلك في زيارة الأضرحة، وتقديم ذلك النوع من القرابين، فلا فائدة من أداء الحجّ مكانهما. لقد كانا على الشرك. وذلك حرام، وإثم، ومن يفعل ذلك فهو من حطب جهنّم!. رويت للحاج مبارك، في المساء ذاته، الصدمة العميقة لرجل شيخ، على أثر هذا المجلس، جاءني يقول: «إننا ضائعون، نحن، المغاربة الذين يعبدون الأوثان!...». حاولت تفهيمه أن الوهابية ليست سوى تأويل من بين تأويلات أخرى. فلم يفهم. ثم سألته: «حين يذبح المغاربة للأولياء، هل يذكرون اسم الله أولاً قبل نحر الذبيحة؟» أجابني متردداً «نعم». «إذن ألا يجعلون الله قبل الولي؟» صمت، مطمئناً بعض الشيء. خاطبه شخص آخر بعد دقائق: «ماذا يعرف هؤلاء العلماء الذين هنا؟ هل هم حقاً علماء؟ اللحية والكوفية على الرأس، نعم، هذا نراه؛ لكن ماذا تحت ذلك؟».

الفصل السادس

تحريم الذات لذاتها
أو الطريق إلى مكّة

«الزيارة»، كنّا نعلم ذلك، ليست هي الحج. مقامنا في المدينة يقترب من نهايته. ويوم الجمعة ٢٤ ذي القعدة ١٤١٩هـ (١٢ آذار/مارس ١٩٩٩)، ذهبنا للمرة الأخيرة إلى صلاة الجماعة. توقفنا عند شباك، على ساحة المسجد، لأداء ثمن الأضحية. كانت جمعية للأعمال الخيرية تتكفّل بشراء خروف لنحره بمنى، باسم كلّ واحد منّا.

لا شيء يميز صلاة الجمعة هذه عن تلك التي حضرناها الأسبوع الفائت. كانت الخطبتان موجزتين قاطعتين. أولاهما ألحّت على «ضرورة تجنّب كل سلوك يؤدّي إلى الإشراك بالله الواحد، مثل التقرب بالأضحية لغيره، وقصد الأضرحة واللجوء إلى العرّافين والسحرة... عقاب جميع هذا هو النار...». صوت الخطيب قاطعاً مثل شفرة سكين. لحسن الحظ جاءت الخطبة الثانية لتطرد هذا المشهد. دعانا صوت، أكثر هدوءاً وذو نبرة أبويّة، إلى الصّدق، وفعل الخير، والتمسّك بالعدل. والخاتمة كانت دعاء تقليدياً بالتوفيق لجميع قادة المسلمين. جاءت احتفالية هذه الصلاة الجامعة لتختم الدور الذي بدأ عند الوصول، بتحقيق الحساب المضبوط الذي يفتح أبواب الجنة. لم تنفك الخطبة عن التأكيد على وحدانية الله، في تكرار يكاد يكون هوسياً. لكن، دون شك، بسبب الجوار نفسه للضريح، كان الأمل في شفاعة النبي يسكن الحشود، رغم اللعنة الوهابية التي تنفي كل تدخل ثالث بين الله والمؤمن. الضريح هنا، ولمّا يكد ينجو من مشروع الهدم الذي كان همّ به «الإخوان» لحظةً وأثار مجموع العالم الإسلامي.

آخر المشتريات أجبرتنا على الغوص من جديد في جموع منشغلة حيث علينا التدافع كي نتقدم. كثيرون كانوا يهيّئون «الرحيل». اشتكى عباس، الصانع التقليدي، رفيقي: «لا إله إلا الله! أينما ذهبت لا بد من التدافع. التدافع في كل شيء... وهؤلاء المصريون أي فوضى!». اشتكى أيضاً من المغاربة، وعجزهم عن انتظار دورهم، واحترام الطابور والقواعد، وخصوصاً المصاعد التي صارت فخاخاً حقيقية. لا وسيلة لإقناع مواطنينا بأن لا يتجاوزوا العدد المسموح به من الأشخاص. في هذه الجمعة يوم الرحيل إلى مكة، منذ الصباح الباكر، انحبس أحد عشر حاجاً في مصعد زائد الحمولة، ونجوا من الموت بفضل التدخّل السريع للإسعافات السعودية. «كيف تفهم أولئك الذين يرضخون لطلب آبائهم العواجز ويأتون بهم هنا، أحياناً على الكراسي المتحركة... وزيارة كل هذه الأماكن المقدسة، التي هي كذلك أسواق»، رمى بذلك الحاج مبارك، السائق الذي بعثته إلى الحج مصالح وزارة الصحة المغربية. اكتفى رفاقه بالتعبير عن عدم موافقتهم والانهماك في الاستعدادات دون جدال.

لكن الانتقال الحقيقي من مجرد الزيارة إلى الحج، هو الإحرام بالنسبة إليّ كما لرفقائي. تعاونّا نحن الرجال على ارتداء الثوبين، الأوّل معقود عند الخصر ويهبط حتى الساقين، والثاني على الصدر، كاشفاً الكتف اليمنى والذراع. ساعدوني على جمعهما بحزام عريض، أبيض هو أيضاً، مزوّد بجيوب للمفاتيح، والنقود، والأوراق. رأسي ينبغي أن يظلّ مكشوفاً. احتذيت، كما هو متعيّن، صندلين خفيفين دون رباط ولا إبزيم. بعد الاغتسال الكامل، دخلت بذلك في حال الإحرام. ذات متطهرة، ثلاثة أرباعها مكسوّة بثوب يحرّم كل مخيط. معظم رجال قافلتنا صنعوا مثلنا، رغم أن هذا التغيير، نظرياً ليس واجباً إلا بالوصول إلى الموضع المسمّى بئر عليّ، على بعد نصف ساعة تقريباً، جنوب المدينة. قررنا إذن، لتلقي أقصى البركة، أن نُحرم بجوار رسول الله، مع احتمال تجديد العملية في الموضع المحدد.

غادرنا المدينة بعد صلاة العشاء، والصلوات على أموات اليوم العديدين.

استعداداتنا أبطأت بالذهاب حتى ساعة متأخرة من الليل. مرضت يومين قبل ذلك والحمّى، رغم بعض العلاج، لم تهبط. كنت أشعر ببرد دائم، بسبب خفة لباس الإحرام وفتحاته العريضة. هكذا أدركت، وأنا أرتعش، أنه لم يعد مسموحاً لي أن ألبس وفق متطلبات الراحة الأكثر اعتيادية. الإحرام، لبس الإحرام، الدخول في الإحرام: هذا هو المقصود قبل كل شيء. لم تكن «الزيارة» تطالب بهذه المعاملة للجسد وللذات، وسيكون دون شك أكثر صواباً أن نقول الجسد . الذات. الصلاة، والذهاب إلى المسجد، والضريح، والمقبرة تتطلب التوضّؤ مسبقاً، لكن اللباس يخضع للمعايير العادية، رغم أن البياض مستحب ويكاد يكون لباس الجميع (ما عدا الاستثناءين اللذين ذكرتهما عن الإيرانيات بالسواد، والأتراك بالكاكي). الزيارة: هذا يعني السعي إلى البركة، والأمل في نجاحات دنيوية والنجاة في الآخرة. شفاعة النبي هي أعلى فعل منتظر منها. لا يوجد فرض ولا عقد. الزوار يجتهدون للاستفادة من الصلة بالنبي، ومسجده، والمدينة المنوّرة التي أورثها للإسلام. كثيرون يأملون لقاء في الحلم مع رسول الله. لكن التكتم يريد أن يحتفظ كل واحد لنفسه بالحظوات الاستثنائية التي قد يكون المقصود بها. الواجبات الدينية اليومية هي مثلما في أي مكان آخر. غير أن تكثيفها في المدينة إلى أقصى حد يغير من طبيعتها وصبغتها.

الإحرام: اسم مصدر؛ والجذر ح ر م يعني عموماً «المقدّس». لكن يوجد كذلك تواقيت القدسية والتحريم. لقد دخلت، بتخلصي من لباسي العادي، في هذه الحال من المقدس الحرام، في الحرم المنيع لـ«عقد» في «عهد» يحرّم بعض الأشياء التي لم تكن كذلك في غير هذا المكان، ولا قبله، ولم تكن محرّمة فحسب، بل تظل ضرورية أو مرغوباً فيها، أو الاثنين معاً: المضاجعة، الإنجاب، التعطّر، الصيد، قص الشعر، الحلاقة، تقليم الأظفار، ترك حالة الإحرام، أثناء مدة الحج الواجبة (والأماكن المعيّنة)، لارتداء الثياب العادية. علينا التخلي عن كل هذا طوال مدة الفريضة. التخلي عن الحياة العادية، بل عكسها. هذا أمرٌ شائع في الدخول إلى الطقوس، كما لاحظه الأنثروبولوجيون. هجران متع الجنس والجمال، وما يدل عليها ويهيّئ

لها (العطور، الملاعبة، المضاجعة)؛ والامتناع عن التوالد بالإنجاب، والعيش بالعمل والاقتطاع من الطبيعة (المضاجعة، التجارة، الصيد)؛ والحرمان من متع أخرى مثل اللعب ورياضة الجسد (القنص). والامتناع عن حلق شعر البدن وقص الشعر والأظفار يسير كذلك في الاتجاه نفسه للتضحيات والتخليات الأخرى. لكن، في ما وراء لك، ربما أجبرتنا هذه المحرمات الثلاث الأخيرة على أن نجعل أنفسنا في حالة أرض بُور: لأننا في الحياة العادية، نثمّر ذاتنا، وجسدنا، وهويتنا الاجتماعية والثقافية. مثل هذه المحرّمات تسير عكس ميولنا. فضلاً عن أنّ هذه العودة الموقتة إلى حالة البُور تقرّبنا من حال آدم وحواء، ولو أنّها غير مماثلة تماماً لحالهما. لأن حالهما قبل السقوط لم تكن بتاتاً حال الطبيعة، من واقع أن حياة بطلينا كانت تجلياً لكلمة الله الخالقة وأشبه بامتداد لها. ما كانا يعرفان العمل، ولا الإنجاب، ولا الصيد أو الرغبة. لا يعبآن بعريهما (أو شِبه عريهما، إذا ما صدّقنا التمثيلات التي لدينا عنهما). وهما أخيراً يجهلان، على ما يظهر، قص الشعر، وحلق شعر البدن وتقليم الأظفار. باختصار كانت لهما قوة السقوط في الثقافة، ولمّا كانت هذه القوة في حال تعطيل، فقوّتنا ينبغي أن تكون كذلك طوال الإحرام. والجسد، الخاضع لهذه القواعد، وللتغيّر بهذه التضحيات، يتولى هوية جديدة، مشتركة مع الأماكن ومع الآخرين.

ما هذا الحَرَم الذي أدخل إليه، والذي لا يمكنني انتهاكه، بمغادرته، تحت طائلة الإخلال بما كان متوقعاً؟ الحرم يتراءى مع القاعدة، والقانون والتحولات الملموسة للظاهر التي تتحكم في الوصول إليه؛ والتي تهيّئني إذن للتوافق مع أرض مكة ومسجدها «المقدّسين ـ المحرمين».

مسجد مكة، المسمى بالحرم، يشترك مع مسجد المدينة في هذه الصفة الفريدة. والجسد، بتخليه عن الحدود، وعن التشكيل الواضح الذي يمنحه له اللباس المخيط، ينقذف في الزمان والمكان اللذين يحولانه. الجسد نفسه أحسّه يتحوّل إلى منطقة متحركة من القدسية، حتى قبل بلوغ حدود فضاءات مكة المقدسة ـ المحرمة. أحسست نفسي من جديد مباشراً المجهول، مصارعاً ضد هذا الإحساس بالخوف. الحرم المكي الذي ينتظرني ربما سيستحوذ

عليّ، وبطريقة لا أستطيع توقعها. جسدي، المحروم من تقاطيعه المعتادة، قد يُمتصّ جزءاً فجزءاً أو يذوب في نوع من اجتذاب «المسجد الحرام» له. القلق يتزايد حدّة. هذيانات رجل ضحية للحمّى؟ أو بالأحرى كانت هذه الهذيانات، المصادفة في مشهد آخر، تُغذّي تلك الحمّى؟

أخذت ألمح أشياءَ لم تكفّ المدينة ومكّة عن حجبها. بداهتها تتجلّى وتنطمس على هواها. ليس في مقدوري إثارتها أو إبقاؤها؛ تنداح في انطلاق، مثل بقعة من اللون في النور، غير مباغتة أبداً لكن كشيء كان سلفاً هنا. اللغة، لو أعرنا انتباهنا لفرادتها، تقدم فكرة كافية الوضوح عن هذا الواقع: كل كلمة تظهر بغتة تكون، بالفعل، قد قالت سلفاً كثيراً من الأشياء؛ إنها ترنّ دائماً باللامتوقع والغائم، كأنما تحتفظ في كل مرة بشيء من الاستعمالات الماضية، وفي الوقت ذاته، تتأهب لاحتواء كل معانيها المستقبلة. ألوان تتوسّل إليها حركة الرسام لتكشف، في الضوء، تناسخاتها. أدركت، فقط بعد فوات الأوان، أنني أبصر من جديد رعشات ولمسات موني، وغوغان، وسيزان، وماتيس؛ وأسمع بوضوح التموّجات المخملية لدوبيسي. المدينة التي أغادرها تنداح في داخلي: خطوطاً وحروفاً منتسخة من نور.

ساعة الذهاب وضعت حداً لتهويماتي حين أُخطرت بركوب السيارة. الألف حقيبة وحقيبة، ثمرة تعاملات المدينة، المغطّاة بوقاء رمادي، كانت تشكل ما يشبه الجبل المشدود بقوة على سطح الحافلة، تمسكه شباك وحبال. متكدّسين، محشورين في مقاعدنا، عرقانين رغم المراوح (الشركة السعودية لاستغلال «منتوج الحج» باعت لنا هذا باعتباره «هواء مكيفاً»)، سرنا أخيراً في اتجاه مكة.

أحياء من عمارات واطئة، لا ميزة لها، تتتالى من النافذة. الإسمنت، لا شيء غير الإسمنت المركوم دون مهارة حقيقية. مرأى مألوف للمدن العربية «الجديدة» التي تطاردني بأشكالها الاقتحامية، الفاقدة للمفاتن والروح. من الدار البيضاء حتى القاهرة، ومن القنيطرة حتى بنغازي، من ضواحي فاس حتى ضواحي القاهرة، كنت قد رأيت هذه التحديثات، منذ ثلاثين سنة، تبلغ

الرياض، العاصمة، وجميع مدن الساحل الشرقي من هذه المملكة، «مهد» الإسلام. وجدت، في حزن وعجز، تمامها حول ضريح النبي. وحده المسجد الكبير كان يبسط أشكاله في النور. كانت مآذنه ترتقي في هدوء وصبر الفضاءات السماوية الغارقة في الليل، رافعة نحو الأعلى هذا الكدس من الجدران والحفائر الفوضوية، يظهر على فترات متباعدة، من منعطف شارع، وفقاً لمناورات السيارة التي لا تنقضي مغادرتها للمدينة.

عباس، الذي اختار الجلوس جنبي، بعد أن أجلس زوجته بجانب سيدة تعرّفنا إليها، ينتفض وينتصب عند كل ظهور للمسجد. يهتف عالياً، ثم ينخرط في بكاء سرعان ما يتحول إلى نحيب: «ها هو، أخي، المسجد! ها هو مسجدك، يا رسول، يا حبيب! لا أقدر على الفراق، فراق النبي... يا حبيب، يا رسول!». بكاء عباس يشتد ما أن يلمح جداراً، أو مئذنة من هذا المسجد: «ها هو، حبيبي، ها هو، ها هو...». كان ممتنع العزاء. يدعوني بقوة، يرى أنني لا أبكي معه وفي الظاهر لا يعبأ بذلك كثيراً. وبالمقابل يستسلم لي في عواطفه. ربما عليّ أن أصحّح، لأن عباس كان يهتف بنا أيضاً: «ها أنا!». لا لي أنا فحسب. للجميع ولنفسه، يقول: «ها أنا! لا أطيق الفراق؛ وأنتم، ما حالكم؟». المعاشرة العشقية مع الرسول، الاتحاد به في توهّج مسجده يدعوانه لذلك. نساء ورجال يبكون، يدعون النبي، يخاطبونه، ومثل عبّاس يودّعونه.

هذه الهتافات المتكررة من عباس حرّكتني وقرّبتني منه. في اللحظة، كنت عاجزاً عن رفض هذا القرب أو الاستجابة الصائبة له. ثمّ، بقدر ما كنا نبتعد عن المدينة ويعود وهو يهدأ، استبدّ بي حزنٌ أثقل صدري. قدرتُ قوته من عيني المتغرغرتين، دون بكاء مع ذلك. لا شك أن الفراق قد لحق بي، لأن ما يسمى اتحاداً بالنبي كان في الواقع وصلاً. وتجلى خط انفصال، أخذ يتزايد وضوحاً: إنه يميز الشرخ الذي كرس الفراق. والحدث الذي أصادفه في أثره يعتمل في ذاتي عبر علامات خاصة: الحمى، انقباض الصدر، الأجفان الندية والمحرومة مع ذلك من الدمع. لأن البكاء، كما لم أكفّ عن تعلّمه على حسابي، قدرة ليست في متناول الجميع. الربح والخسارة يقرّبانني من عباس

كما كانا، بمناسبة احتفال الوداع، قد أحييا تيار الصداقة الذي يربطني بالحاج محمد، وهو اليوم في السبعين. أثناء حفل وداع مماثل في كل شيء للحفل الذي دعاني إليه لحسن، وعشية ذهابه إلى أماكن الإسلام المقدسة، تعانقنا. أشخاص عديدون عجزوا عن مقاومة التأثر طويلاً، وسرعان ما رنّت القاعة بالبكاء، حاجباً الدموع الصامتة. حدث ذلك بعد الطعام والدعوات، في قرية من الأطلس الكبير، غير بعيد عن قرية صديقي لحسن. كان الحاج محمد، كالآخرين، ضحية «الحنين» و«الشوق إلى الوصل». عاطفة قاهرة، لا سلطان لك عليها. البكاء من هذا الحنين، هو الاحتراق برغبة العودة. لكن البكاء من رغبة الوصل بالكعبة؟ كيف فهم مثل هذه العبارة؟ أكان احتراقاً برغبة اللقاء بعد الفراق؟ واضحٌ أنه لم يكن فراقاً بالمعنى المتداول لهذه الكلمة. فالحاج محمد ورفاقه يقومون بالرحلة إلى مكة للمرة الأولى. غير أن للغة قراراً آخر. صحيح أن تجربة إرادة قوية، ورغبة حادة، وشوق حارق، تستثير انفعالات وحركات. لكن البكاء، البكاء دون ما كابح، ما يسمى الاستسلام للدمع، بسبب إرادة، أو رغبة، أو شوق مضايق، نعلم ذلك جميعاً، ليس مسموحاً به إلا للأطفال. وبالنسبة إلينا نحن البالغين، ماذا يعني، في ذلك الظرف، «اللقاء» و«الوصل» مع شيء من الأشياء؟ أيوجد فراق من نوع لا ينطوي، كالمعتاد، على انفصال بعد اتحاد؟ لا يمكن لشيء آخر أن يفسّر هذا البكاء المنسوب إلى رغبة الاتحاد والوصل.

عندئذٍ تفرض نفسها مهمة الإحاطة بهذا الفراق المتناقض. في بكاء الطفل، تحل الدموع والنحيب شيئاً فشيئاً محل الشيء المرغوب فيه حتى يتلاشى ألم الفقدان. غير أن الفقدان لا يُنسى مع ذلك؛ لكن الطفل يخفّ ألمه منه، بل قد لا يتألم بتاتاً. يكتسب موضوع الفقدان وجود شيء معروف ومرتّب بين الأشياء الأليفة التي تشكّل عالم كل فرد. الدموع، التي هي في الواقع دموع حداد، قد غيّرته. إنه الآن تميمة لا غنى عنها تُقبل أن تُوضع، مثل الآلهة، في موضع مألوف نزوره بين الحين والحين «للذكرى». «مبدأ الواقع» ليس سوى سيرة، مصنوعة من صحائف متناضدة، انكتبت عليها أشكال الحداد هذه التي تحول في كل مرة ما رغبنا فيه إلى شيء كان قد

حدث. إنه تحوّل سيصيب الرغبات اللاحقة. كل رغبة توقظ رغبات سالفة. البكاء يذكّر باستبدال فعل البكاء والألم بالشيء؛ إنه يحدث في التذكّر نفسه تغطيتهما. ذلك يعني أنهما كانا سلفاً هنا، أنّهما قد أنتجا، في أشكال ممكنة، «ولادتنا في الألم»؛ حلقة من الفراق يفتتحها فراق حاسم، تواصله تناسخاتنا وأشكال موتنا. الرحيل، بالنسبة إلينا جميعاً، ونحن نتعانق، يجعل الكعبة، الشيء المستقبل، في مجرى الفراق الذي كان قد حدث في التاريخ، لرحيل يكون دائماً عن قصد.

لم أحس بألم عباس، كما لم يكن بمقدوري الإحساس بألم الحاج محمد. لكن في كلتا الحالين، أحس بألمي الخاص. يُترجم بتشنجات الحلق، والتصلّب المحسوس لحركاتي، واحتباس صوتي، والعطش... وكما ليس بمقدوري معاناة حمّى شخص آخر أو ألمه، لم يكن بمقدوري الإحساس بعاطفة الحاجّين. وبالمقابل، تأثرت وأنا أراهما ضحية للألم. بهذا المعنى، كنت أعترف بحالهما، وهذا الاعتراف يهز مزاجي. والكلمات المتبادلة، واللغة ذاتها امتداد ومظهر لهذا التواصل.

في الصّمت والخمود، واصل عباس الهتاف والبكاء لمرأى المآذن المُضاءة، كلما انبثقت من بين العمارات. يهتف: «الفراق! يا أخي، الفراق!...» ثم، كأن هذا الهتاف قد استنفد مفعوله، استبدل به: «ها هو! يا أخي، ها هو!»، «ها هو! ها هو!». هذا الـ«ها» هو إشارة إلى المذكر: المسجد والنبي كلاهما يقالان هكذا في اللغة المحلية التي نتكلم بها. لا شيء يبدو أكثر وضوحاً. لا التباس البتة. البداهة ذاتها: «ها» هو في آنٍ واحد المسجد، والضريح، والقبر، والنبي.

ومع ذلك، فهذا الـ«ها» ينطلق للقاء كل تفصيل من المسجد. مئذنة أو مآذن، طرف من الواجهة، قباب... لم يكن شيء من ذلك يغيّر من هتاف عبّاس. ومن ثمّ ينفصل «ها» عن مرجعياته، ومنطوقه يتبدّد، ويراوغ الخطاب، ويتفادى السلطات التي تحاول حصره. مثل البكاء والنحيب اللذين هما، كما يقول عباس، «حاجة تأتي رغماً عنا». مثل الدموع التي قهرت مقاومة الحاج محمد. مثل التشنجات التي تغزو حلقي. «لا شيء بمقدوره أن

يمنع هذا»، أوضح لي عباس. الألم الذي يمكن لهذا الفراق أن يسبّبه من اليسير فهمه. المكان الذي نغادره كان مثقلاً بحياة رجل وأعماله، وبأحداث نجعلها في الأصل من الأمة التي وهبتنا حياتنا ذاتها. المقام هناك، ثمّ الرحيل عنه، هو فراق، لا سيّما أنّنا نباشر مرحلة جديدة بآمالها وتقلباتها.

«ها هو، يا أخي!» يردّد عباس، الذي يظهر أن ما عادت بحوزته سوى هذه العبارة. أو بالأحرى هي الوحيدة التي تجتاز عتبة الكلام، وتتكفّل بكلّ اللغة، وتلخّصها، وتكثفها. ماذا إذن كانت هذه المآذن المضاءة، أو بالأحرى تجلّياتها المباغتة والوجيزة في سماء المدينة، مثل شموع عملاقة مقدودة بحجم العالم، تلمس في عباس؟ إنها تلمس، دون شك، ذاكرة، وسلسلة متناضدة من الأرشيفات التي تنحت من اللغة، لغات كل أحد. ذاكرة تقلب إلى الماضي التوق إلى الآتي، وتموضع نفسها دون أن نستطيع تعيينها لا في الجسد، ولا في الروح، ولا في اللغة. ذاكرات الحذف، بفعل اشتغال كل إنسان في الحاضر، الموجود قبلاً. كل ذاكرة لاحقة ستحذف، ومع ذلك ترسم. وأن ترسم، كما قال بول كلي، هو أن تعرف كيف تحذف.

الهدير الرتيب للمحرك في سكون الليل ذكّرني بأن ما حدث لعباس قد انصرف عنه. بعد مرحلة قصيرة نسبياً، توقفت الحافلة وانتزع الحجاج أنفسهم من الإغفاء. نحن في آبار علي. هناك، حيث علينا، كالمعمول به، تجديد الضوء. أبصرت، وأنا أهبط وسط حشد الحجيج والباعة المتجولين، المسجد الهائل ذا الحيطان العالية، المسننة. في ضوء الكاشفات، كانت أحجامه، المطلة على المئذنة المستديرة ودرابزينها، تنبثق من وعائها الليلي. لمحت النخيل المحيط به. في هذا المشهد، تبدو البناية كأنها سقطت من السماء. الجمهور المتلفّع بالأبيض في حركة مستمرة من الصلاة والأدعية.

تجميع غريب: الحافلات، ومناضد الباعة، وهذا البناء الذي يحيط به جمهور المحرمين وقد هجروا ثيابهم. السائقون، والباعة يعرضون بسكويتاً، وبزوراً، وأشربة، وأشياء رخيصة متشبّعة بالحضور المُعجز. الحجاج يعسكرون على تخوم، شعبٌ بصنادل دون حلقات، وجسد نصف مكسو بقطع قماش غير مخيطة، مرتبين وفق خط اتصال وانفصال مع شعب من

الباعة. لا شيء يربط بين القومين، ما عدا التبادل التجاري الوجيز الذي يكاد يتم دون كلام.

بعد الوضوء في المراحض . الدوش التابعة للبنانية، ذهبنا للصلاة ركعتين في الطراوة الليلية لصحراء بلاد العرب. كنت أرتعش بكل أطرافي والحمى ترتفع. تأمّلت مرة أخرى المسجد وأنا أعود إلى مكاني. كنا ننتظر ركاباً آخرين. والانتظار كان طويلاً نسبياً، لأن كل واحد يجتهد في أن يتصرّف في خضوع صارم للقواعد. آبار عليّ، بعد المدينة، بمدينتها ومسجدها، هي الموضع الذي نختلط فيه بذكرى ابن عمّ و«صاحب» الرسول، وكلاهما من نسب قرشي رفيع. عليّ، القائد، «سيف الله» بطل المبارزات الفردية، وإمام البلاغة، الخليفة القاضي... «آبار سيّدنا علي، كرّم الله وجهه!» ذكرني بذلك صالح، التقني، المهندس خريج مدرسة عليا. عليّ، نتذكره جيداً، على فرسه الأدهم الباسل: على أبواب خيبر، وقد فصل بضربة سيفٍ الساق عن فخذ «الطاغية» سيد المدينة. وهو دائماً الذي غلب «رأس الغول» في مبارزة؛ وهو الذي قطع رأس الوحش بين قرنيه البشعين. ألم يكن سيفه، المسمّى، وهو امتياز فريد، ذو الفقار مسلولاً دائماً أمام عليّ، حتى وهو جالسٌ، يحيط به دائماً الحسن والحسين، ابناه، زهرتا مسيرة الإسلام الظافرة؟

نعم، عباس وأنا نعرف جيداً هذا السيد واسمه، الذي أورثه لهذه الآبار وأماكن التطهير النهائي الذي يفتح لنا أبواب الحج. كثيراً ما كنا قد نظرنا إليه طويلاً باحترام، وحظينا بجمال عينيه، ولحيته السوداء الكثّة. وأُعجبنا، في المعاشرات الدائمة لشبابنا، بالحسن والحسين في هيئة تلميذين مشبكي الذراعين، يكادان أن يقفا وقفة عسكرية، على جانبي المثال (كدت أقول التمثال) الهرمي للأب. في سرواليهما المشدودين على الركبة، وقباءيهما وكوفيتيهما؛ في تلك الألبسة العجائبية، التي لم أر إلا في ما بعد ودون حسرات تجميعها العربي . التركي. هذه الأسرة، الأعظم في الإسلام، تعمر بصورها جدران البيوت حيث نشأنا، ويحرك الحلايقية (الرواة) ساحاتنا العمومية، بعد صلاة العصر، بحكاية معجزاتها.

آبار علي... عباس وأنا، فتيا الأمس، يضربان في غبار ساحات مدننا

العتيقة، لا يفلتان أي كلمة من البطل، ولا حركة من السيف، تلقينا نعمة جديدة من عمله، مياه آباره تطهّرنا. نحن في «ميقاته»، موعد أهل المدينة، كما شرح لنا فقيه من الرباط، أثناء التدريبات الإعدادية للحج، المكان - اللحظة المقررة لدخولنا حالة الإحرام.

فات منتصف الليل لما وصلنا هذا الموعد. والحقّ أن الساعة لا تهمّ كثيراً. المكان وحده هو المهم، مهما كانت لحظة الوصول. غير أن الميقات مشتق من جذر يدل على الزمان. تحتوي العربية على جذر ومعجم ثري للدلالة على الفضاء، والمكان، والموضع، والمحل... ويتجاور المكان والزمان ويتعارضان في هذه اللغة كما في لغات غيرها عديدة. ربما صادفت هنا ببساطة إيضاحاً لهذه الظاهرة المعروفة جيداً من التعبير عن معنيين متضادين بجذر واحد، سر هذه اللغة التي يسميها العرب أنفسهم «لغة الأضداد». هذا المكان إذن، بما يجري فيه، هو لحظة لقاء. لا شيء يدوم فيه. تتلاقى فيه إرادات، وذلك ما يجعل منه لحظة، هي اللحظة.

لحظة حاسمة لا يمكن أن توجد إلا في هذا المكان، الذي لا يزال بعيداً جداً عن حدود منطقة مكة المقدسة - الحرام. فالله يمنحنا الوقت، كل الوقت، لكننا كنّا سلفاً في الموعد: «لبّيك اللهم...». ارتأى مستشرق أميركي، ذو علم مهزوز في الحقيقة، أن يترجم: «تحت أمرك، يا...». هذا العالم، مثل عدد من زملائه، الأمين لتقليد الحملة الصليبية بالقلم، وهو تقليد حي وقوي في أميركا وغيرها، قد صادف هنا دون شك الأساس الحربي لدين «ماهوميت». فكرة مسكوكة قفزت فوق عصر الأنوار. والحال أنه إذا كان في هذه التلبية التي لا نكف عن ترديدها منذ الدخول في الإحرام أي شيء يرتبط بالحرب والاستسلام، فهو الحرب ضد الذات واستسلام للذات، وكلاهما هدوء وصفاء.

ليس لـ«لباسنا» أي شيء عسكري. والأنشطة التي نمارسها، قبل لف هاتين القطعتين من القماش الأبيض حول جسدنا المتجرد، تطرد الروح العسكرية نحو محبّيها. قمنا بغسل تدقيقي. غسلنا أنفسنا من كل حالة عدم طهارة مرتبطة بالجنس والحيض، «ومن كل النجاسات»: خروج ريح، بول، غائط، مسّ

مواد نجسة أخرى: جثّة، دم، خنزير، كلب... الطهارة المستعادة تكمن خصوصاً في جعلنا نسوي وضعنا لتأدية واجب ديني، والنظافة في حد ذاتها ما هي إلا مجرد نتيجة. نحن بهذا، قد أقمنما التمييز الجذري بيننا وبين الآخرين، مهما يكونوا، بتخلّينا عن الحياة: أقمشتنا البيضاء تشابه جيداً الكفن. والذراع اليمنى والرأس المكشوفان يوجّهاننا ويشهدان على انتقال.

ما أبعدنا عن كل استعدادات حربية. نحن منشغلون بالهيمنة على علامات وظائفنا الحيوية وصدّها، وملزمون أيضاً بالابتعاد عن أنشطة الإنتاج والتدمير. في اللحظة المتأخرة من الليل حيث ننجز الطفرة في الإحرام، نجتاز خطاً يحرّم علينا الحياة في مظاهرها التوسيطية. تأمرنا القدوة بالتشبّث بالاندفاعة التي تمضي نحو مسار وحكاية بدل الاستمراريات اليومية الاستنساخية. وتجريها نحو التحقق في غاية: هي تحريم الذات، وبذلك تحريمها على الآخرين. هذا هو تحقيق عالم من حيث غاية. كل هذه التحريمات التي تبدو كأنها تتناول أشياء خارج الذات تقصد بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر، ممارسات الجسد وتمثلاته. بما أنني آكل وأشرب، وفي الزمن العادي، لي حياة جنسية، فقد كنت أفرز مواد. وهذه تخترق سطح جلدي. معظم هذه القنوات تتركز في وجهي. لكن بما أنه لا بد أن يحدث شيء للفم، وللأنف، وللأذن، وللعين، ولسطح الجلد، نقطة انطلاق الإثارة، فمفهوما الوصول والذهاب نفساهما يبدوان نسبيين تماماً. على أي حال. فممارسة العالم هي ممارسة الجسد. لا شيء يفلت من إحداثياته. وبالتدريج، كان الكون كله يتجزأ، معيداً له المواد والأشكال الخاصة بهذه الممارسات.

بعد الدخول في الإحرام، صارت قواعد الطهارة أكثر صرامة وامتدّت إلى مظاهر أخرى للحياة: علاقات بين الأشخاص، تعاملات، أفكار حميمية، اتصال بالعين والضحك. الحدود المفروضة على الضحك تطبع فرحة اللقاء بالجدية والندم والاحتفالية. بحيث أن ممارسات جسدي المقننة تتيح دخولي إلى الحياة وتؤخّر موتي وهي تعلنه. الجسد، جسدي، يتجلى كما هو، صورة للعالم وللانغراس فيه، حدس قديم، وسذاجة حداثة، اعتقدته متجاوزاً. لم يكن مثل هذا النظام يهيّئ لكل شيء موضعه فحسب:

أعلى أسفل، يميناً شمالاً، أمام وراء، مواجهة جانبياً، أفقياً عمودياً، قبل بعد، رخو صلب، نيّئ مطبوخ، مالح سكري، معطّر نتن... هذه التعارضات ترسم أيضاً تراتبية. «قبل» يعني كذلك «الشيوخ قبل غيرهم!»، أو «الأشراف قبل غيرهم!» أو أيضاً، كما سمعت ذلك كثيراً في مسجد المدينة، «الرجال قبل غيرهم!». قبل متفوّق على ما يأتي بعده. اللحظة الكاشفة أسّست قمّة هرم، انطلاقاً من نقطة انفصام: البدايات بوصفها معايير للوزن. نحن على آثار هذه البدايات التي حدثت «قبلنا». لذا علينا أن نعمل كأننا نتخلى عن الذي قد جاء بعد.

في حياتنا باعتبارنا حجّاجاً، من الضروري إقصاء ما جاء بعد إلى مستوى أدنى. لا إلغاؤه، فذلك مستحيل لأن حياتنا هي التي كنا سنقصيها. بالأحرى، كنا مدعوين لإخضاع هذا «البعد» إلى القبل، إلى حركة البدء، التي لفظت بأوّل جواب: «لبّيك...». هذا الجسد، هذا الأنا، لا يعلن استسلاماً، بل عودة لإعادة تأسيس، أي ليؤسّس لنا هذه «المرة الأولى». قيل لنا إننا ما أن ندخل في الإحرام، حتى يلزمنا النطق الفوري بالعبارة، متبوعة بنيّتنا، جهراً أو «مع أنفسنا». في حالنا، النيّة هي قضاء العمرة أولاً. ووفقاً للتعليمات، المتابعة في الرباط، فالحج المناسب لنا هو «التمتع»، الذي يضم العمرة متبوعة بالحج نفسه.

العمرة: ليست «حجاً صغيراً» ولا حجاً بمعنى الكلمة. ليست كذلك «زيارة»، كما تُسمّى الرحلة إلى المدينة. إنها شعيرة مثل الشعائر الأخرى، بقواعدها ومراحلها: الطواف حول الكعبة، السعي بين الصفا والمروة، قصّ الشعر، الخروج من الإحرام. تعلّمنا الصلوات والأدعية الخاصة بكل مرحلة. هذه الشعيرة يمكن أن تؤدى في كل لحظة، اختياراً. اختيارية إنجازها يُقال إنه «يغسل» ذنوب سنة واحدة. ومعناها كان الحياة، والإقامة، والعبادة الدائمة، كما المجيء إلى مركز الحياة.

تعلمنا ما ينبغي فعله وما ينبغي قوله. وإذا ما كان هناك من معنى ينبغي البحث عنه، فهو يكمن في تنفيذ نية معلنة وفي التطبيق السليم لمعرفة. أما التأويلات أو البحث عن معنى، فذلك جهد آخر. لا أحد ملزم بخوضه. بل

بالأحرى ينصح بالإنصات للمتخصصين وتأمل دروسهم. الحقيقة النهائية، بالنسبة إلينا كما بالنسبة إليهم، متروكة لله. الكلام فعلٌ، وكالأفعال الأخرى، يسير بنا نحو رب الأمكنة. القول والنية المعلنة شبيهان في كل شيء بشهادة الإسلام نفسها: طريق واتخاذ قرار.

في الرباط، أثناء التمارين، التقيت أناساً من أوضاع اجتماعية مختلفة، ما عدا بورجوازيين أو موظفين سامين. بعضهم يرغب منذ زمن طويل في الذهاب إلى الحج، لكنه لم يستطع ذلك بسبب مشاغله. وآخرون انتظروا ببساطة أن يجمعوا بعض الوسائل. تقنيون وموظفون دبروا أمرهم بجمع مدخرات، للقيام به في أسرع وقت ممكن، ويعيشون انتظارهم كـ«إخلال بواجبهم نحو الله». موظفون صغار ينتهزون الفرصة للقيام بالحج على نفقة مشغّلهم. بعضهم كان قد مر بمرحلة تأمل لأن الأمر يتعلق بالنسبة إليهم (إليهن) بخطوة حاسمة في العودة إلى الدين وإلى «الطريق المستقيم».

أفكاري تتعلق بمشروعية رحلة مقصدها مقاربة الحج من وجهة نظر عالم أنثروبولوجيا قد كونه هذا الدين الذي سيتناوله بالهوية الجديدة التي منحها له علمـ«ه». إنني أفضّل صيغة خاصة للمعرفة، حتى لو كنت أنطلق من أقوال وكتابات الموروث الذي أقول إنه موروثي. وأمارس أسلوباً في التفسير هو في تنازع مع الأسلوب الذي تعلمته في مدرسة أساتذتي المسلمين. وأخطر من ذلك في نظري، فأنا أخل بأخلاقية إعلان صريح لنياتي بوصفي باحثاً، فأحس لذلك نوعاً من التدني في طموحاتي. غير أنه في هذه المحنة، يعزّيني حقٌّ لا يجوز التصرف فيه في نظري، حق المعرفة والسؤال. وإذا لم يُعترف لي بهذا الحق، أبيح لنفسي أن أعمل دون أن أكتم شيئاً. من زاوية النظر هذه، لم أكن أخشى عقاباً بتاتاً، وأقل من ذلك عقاب البشر. إني أدفع ما يكفي ثمناً لوضعيتي، بالقلق الذي تثيره المسافة الحادثة مع مجتمعي. مهما قيل عن الأنثروبولوجي «ابن البلد»، فقد كنت أشك، وما زلت، في المشروعية الزائفة التي تمنحها لي هذه الهوية، تماماً كما في شهادات الترحل، أو اللااكتمال، أو الانعكاسية الإعجازية. إن الانقسامات، والتشتّتات، والمنافي الداخلية تمنعني من أن أزعم «اللصوق» بتراثي، وأن

أزعم، دون إجراء آخر، التعبير عنه بصوت متميز. أنا أحاول قبل كل شيء بناء مسافة (من بين مسافات أخرى ممكنة) تتيح لي زاوية، ومنفذاً يقدم لي منه عالمي نفسه، من جديد وفي هذه المرحلة، بألوان غير معهودة. وأدرك من فرط المحاولات أن مثل هذه المسافة كانت رجراجة، وأنها تتبلور في الأسئلة التي تشغلني.

في الطريق إلى مكة، تكتسب تجربة هذه المسافة طابعاً أكثر حدة ومعاناة من المعتاد. كلما وصفت ورويتُ ما رأيته وسمعته، أبهظني ذلك. المواقع المألوفة والمتكررة التي يتخذها الرجال والنساء، والتي تتغير وفقاً لأعمالهم، وأهداف اللحظة، مألوفة لديّ أيضاً. هكذا أستطيع الانتقال من التطابق مع رفاقي أو مع الدين إلى الكتابة. وآخرون، مثل هذا المرافق من بني ملاّل، الذي يراوح بين نيّة الحج ونية التجارة. كان هذا الرجل يقود جماعة من النساء بوصفه «ولياً» شرعياً في غياب الأب، أو الزوج، أو الأخ أو غيره منه القرابة. فهو يجاور بين نيات مختلفة: العبادة، التجارة، السياسة. آخرون أيضاً يضيفون السياحة، مثل الحاج مبارك، الذي قال لي إنه «يسافر والله أعلم بالباقي». أو «يأتي فقط لينظر»، كما اعترف لي إطار شاب من الدار البيضاء، شغوف بالنقاشات الفلسفية.

غير أن المحنة لا تتوقف عند هذا الحد. شيء ما ينالني بقسوة أكبر: لا أمتلك صفاء مخاطبي، سواء أكانوا مؤمنين أم متشكّكين. وجودي يبدو كمشكلة، وينقصني هذا الحضور المباشر للغيبي الذي يُبهج بهجة ملموسة عدداً من الحجاج. ومن جهة أخرى، فوصف حياتهم وطقوسهم باعتبارها خالية من التفكير، وواقع أنّ هذا الإغراء يستبد بي أكثر مما ينبغي، هما أكثر إفصاحاً عن نفسي، وعن وَهم تهذيب ديني هو أيضاً «تهذيب اجتماعي»، قد أكون أحظى به. هذه الرحلة تحفر شروخي.

التشكك علاج من بين علاجات أخرى وبعض أشكال السخرية توفّر لي لحظات من الارتياح الكامل. لكن السخرية، تلك التي لا يقدر عليها إلا الآلهة، تنفي الاطمئنان إليها إلا عرضياً. باختصار، كنت عاجزاً عن تشكك ممتد لأن حياتي هبة أرضى بها. لكن السخرية الفريدة لهذا الامتلاء تعرض

نفسها في الشر. ليس الموت، ولا موتي أنا هو حقاً المشكل؛ المشكل هو أن الهبة هي هبة موت.

«لبّيك»؛ «لك»، «لا شريك لك»، «الحمد والنعمة لك...». يمكن، بالطبع، أن نفهم أن هذا استسلام. لكن أي فقه لغة في العالم، وأي «استعادة للسياق التاريخي»، العزيزة على التاريخانيات البليدة، ليس بوسعها أن تمنعني من اختيار العودة والاستسلام. هبة الذات، هي مسالمة، لا استسلام تحت الأوامر... رغم مسافتي، شيء ما يمسني. محاولة الإحاطة الشاملة به هي ادعاء باطل، لكنها تؤثر في هبة الحجاج الآخرين، زيادة عن انها تندفع في حضور يرتسم محفوراً عندي بواسطة البحث.

والحال أنني أمارس الهبة بينما حياتي لم تكن تطالب بها، في حين أن رفاقي يهبون أنفسهم إلى سلطة ترى منهم ذلك دون أن تكون في حاجة إليه، لأنها، مبدئياً، لا يمكن أن تعرف تجربة النقص، غير أن النظام يشتغل كأن الهبة ينبغي أن تكون رداً عليها. لا استعادة، ولا تعويض، ولا «هبة مضادة»، ولا عقد. وإنما ثقة، وخضوع، وإيمان. إذا كانت الهبة في الأصل من العقد، فإن هذا الأخير سيستهلكها. العقد ينتج عن الحاجة، والهبة بـ«كأن» المرتبطة بها، لا تكف عن التذكير أن كل الحدود تستمد قوّتها وديمومتها من الاستعارة. ممارستي للهبة ليست أقل التباساً من ممارسة الآخرين. لكني، وقد وُسمتُ بخاتم أشكال المستقبل اللامتوقعة، أظل معلقاً بأخلاق حياة بالغة الواقعية، فأمشي وفقاً لما أراه أمامي.

الحج الذي أكتبه ينقذف إذن عبر هذه الموشورات، وفي غياب تحسّبي لهذه الأخيرة، فقد سلمتُ بالمطالبة بها بعد فوات الأوان. في ما وراء تبادلية العقد، كان الأفق يفلت من العقل ويعيد بناء نفسه باستمرار بواسطة الحاسة الأخلاقية التي يوقظها مجيء الإنساني: انبساط فريد لعالم. تجربة الحج تغير جذرياً آفاقي وكنت متهيئاً لاحتضان ما سيأتي.

ربما كان رفاقي يهبونني إيمانهم لأن الكل يدرجني في الصلوات من أجل الخلاص. هكذا تلقيت شيئاً يمكن أن يخرجني من الوضع المعقّد الذي أوجد فيه. وكما هو الشأن بالنسبة إلى قواعد الحج، توجد أيضاً قواعد الاستقبال:

الضيافة دون مجاملة، والالتزام الشخصي في العلاقة. لكن ما وراء ذلك ليس بالنسبة إليّ سوى سعي متهافت، يزيد من مناقضته أنه كثيراً ما يُلجأ إلي للإرشاد في الطقوس. أنا متعلم، وفضلاً عن ذلك أعرف قراءة المختصرات حول الحج. سألني رجل ذات يوم إن كان مباحاً ترك الزوجة تحرس النقود للذهاب إلى الطواف والعكس بالعكس، مناوبة. وآخر سألني إن كان بإمكان المرأة تأدية المناسك دون الحضور الدائم لولي يرافقها؛ وإلى أن يبلغ «عدم التبرج» بالنسبة إلى النساء، والفصل بين الجنسين؟

على أي حال، قرر عباس وصالح أن لا يفترقا عن زوجتيهما. وتوجد امرأة أخرى في مجموعتنا دون «ولي» حقيقي. تعقيد إضافي: ليس معي امرأة، وأشارك في الغرفة هذين الزوجين وهذه المرأة «الوحيدة». جر علينا ذلك كثيراً من الملاحظات، مباشرة وغير مباشرة، وأحياناً بصوت عالٍ: «عبادة الله تتطلب الفصل»، لا بد من التخلي عن «تساهل المغرب»، وأكد لي جار في المدينة: «هنا في العربية السعودية، ليس كما في المغرب!». كان علينا كذلك تسوية خلافاتنا ذاتها: إذا كانت الأولوية للعبادة، فهل ينبغي للنساء الاهتمام بالطبيخ أم لا؟ وإذا كان نعم، فهل كانت هناك عتبة لا ينبغي تجاوزها؟ وماذا نقول عن واقع أن نساء أخريات يدبّرن أمرهنّ لإنجاز كل الأشغال المنزلية وأداء ما يؤديه الرجال والنساء المتحررات من أعباء المطبخ من صلوات أو أكثر؟ وأخيراً، كيف تنظيم العلاقة بين الحج وإعداد مؤلف أنثربولوجي حول الموضوع؟ ألا يشتغل العلم في انفصال عن الدين؟ هل بالإمكان جمع مواد مثل هذا المؤلف بينما الباحث الأنثربولوجي في حال إحرام؟ لم يُطرح علي السؤال قط صراحة. بعض رفاقي يقبلون النقاش حول الدين والحج، وعباس كثيراً ما يروي لي أحداثاً ونوادر. كنت أكتب مذكراتي بحضور الجميع، بينما البعض يدعو «لعودة الإسلام إلى مجتمعاتنا».

ملاحظات أخرى، تساؤلات أخرى، سمعتها سلفاً في المغرب، تتردد هنا بانتظام: «لم يبق حج، إنما هو تجارة، وكالات الأسفار، والدول تتاجر؛ وسترى جشع إخواننا في مكة والمدينة!» أو «السياسة تتدخل. كل واحد يريد دعم مصالح وطنه». وكأن هذا كان رداً على هذه الانشغالات: «الحج

واجب، نؤديه لله... يجب تجاهل كل هذا والقيام به كما أمرنا به الله!» و«ما أكثر أشكال السلوك المناقضة لأخلاق الحج!»: التدافعات، الشجارات، تخطي الآخرين قبلك، الحصول على مقعد في الطائرة بكل الوسائل، بالرشوة إذا اقتضى الأمر، الاندفاع لاحتلال مسكن أفضل على حساب حجّاج آخرين...

كانت القواعد تتفرّع انطلاقاً من قاعدة للعبة شاملة تريد أن توجد الفرصة ليكسب منها كل واحد الفوائد المنتظرة. سواء وُجدت «كالعادة»، في «الظروف العادية» أو في «أفضل الظروف». كل واحد يجتهد. والدول . الأمم تنسق جهودها لإدارة الأفراد والجماهير. تلقينا، منذ وصولنا، شارات لنا تحمل تعريفنا، وموطننا، وصفتنا، والمجموعة التي ننتسب إليها. تقوم على قاعدة «جوازات السفر الخاصة» والوثائق العديدة الأخرى المتداولة بين مصالح الحج المغربية والمصالح السعودية التي كنا ممثلين لديها بواسطة «بعثة وطنية». إن الشروط المتعلقة بالأمن والسلامة تعلن كذلك، إما في تعاقب وإما في تزامن، الثقة والإيمان. وجهتنا بالفعل هي «بيت الله»، «رب هذا البيت» الذي أنقذنا من «الجوع والخوف». وتأمين الفرض، تأمين الحجاج لمقاربة الله بكل ثقة: اقتصاد سياسي للخطاب ينشط ليل نهار، وينتج حجاً خالصاً من كل مقصد دنيوي. يؤكد الموظفون أن «الغاية الوحيدة هي عبادة الله بعيداً عن الخصومات السياسية والمصالح الوطنية الضيقة». وكأن ذلك كان صدى لذلك. تذكرنا البيروقراطيات والصحافة السعودية يومياً أننا «ضيوف الرحمن». كل واحد منا والجميع، ننتمي إلى الأمة. وفي الوقت نفسه، فكل واحد «سفير»! لبلده لدى الأمة السعودية والتجمع السنوي الكبير للإسلام... «ضيوف المملكة، حامي البقاع المقدسة». إن المصالح الوطنية الضيّقة، وفق هذا المذهب، هي تلك التي قد تعيق تعاوناً جيداً مع «المملكة». كثيرون منا يعلمون أن إيران والعراق يطعنان في مشروعية هذه الحماية الوهابية للبقاع المقدسة، وأن «وضع اليد» هذا محل اعتراض؛ وأن حركات، واضطرابات، ومظاهرات، بل مواجهات دامية، كما قد حصل، ليست مستبعدة.

لأداء الحج وفقاً للقواعد، «بصورة عادية»، نبذل جهدنا في أن نعمل، في

كلّ الظروف، ما هو صائب. وفقاً للقواعد. علينا التقدم في كل مرة بين اختيارات عديدة ممكنة. النجاح متعلق طبعاً بمعرفة للقواعد وممارسة متمرنة على معنى اللعبة، لكنه لا يتم حقاً إلا بالملاءمة المتفاوتة الدقة مع الظروف العامة والمترجرجة حيث يكون الاهتداء بالهدف: أي «الحج المبرور»، وفق الكلمة المفضلة عند الفقهاء. في هذه المرحلة، لم أكن متيقناً حقاً ممّن ينتج مَن: أهو الاقتصاد السياسي للخطاب ينتج الحج؟ أم الحجّ، بتزحزحه الدائم، يتحدى أنواع الاقتصاد بفتحه الحيوات على الفناء؟

الفصل السابع

بدون صفة

تمادى الانتظار في الحافلة وأخذ الركاب يروحون ويجيئون للترويح عن نفاد صبرهم أو للتمشي. فعلت فعلهم، رغم نداءات السائق المصري. برودة ليلة الصحراء هذه تخترق جلدي وأرتعش بالحمى. ذهبنا مع عباس لنشرب شاياً أسود. البائع الجوال من بنغلاديش مثل الآخرين الذين صادفتهم في آبار علي.

استأنفنا السير نحو مكة، في وقت من الليل متأخر بعض الشيء، هاتفين بالتلبية، في المرة الأولى مشفوعة بالنية: «لبّيك اللهم لبّيك، عمرة!». مرشدونا، وكذا «الكتيّبات» الموجهة إلى الحجاج، تنصح برفع الصوت بالتلبية بين الصلوات. كان الدعاء الفردي بحمد الله وتمجيده يشغل الفواصل بين التلبيات الجماعية. شخصٌ ما يأخذ دائماً المبادرة، وسرعان ما يلحق به آخرون. الأصوات يبحث بعضها عن بعض وترتفع مجتمعة...

لمّا بلغ الانفعال حدّة معيّنة، نهض رجال، شبّان نسبياً، للوعظ. اثنان منهم لفتا نظري على الخصوص. الأول أستاذ في ثانوية ببلدة غير بعيدة من الرباط. بعد تمهيد حول «معنى الإسلام الحقيقي»، اتخذ عرضه طابعاً عنيفاً لفضح فقدان الإيمان في المجتمعات الإسلامية، و«النفاق» والفساد. واستشهد بآيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية لاستنكار غياب العدل و«الجري وراء المال». من هذه الإدانة انتقل إلى إدانة المادية و«الطغاة»، وهي إحالة واضحة على الحكام الموسومين لذلك بافتقاد الشرعية. الموعظة الثانية ألقى بها تقني، متزوج ورب أسرة، يستقر في عمارة جيدة للطبقات الوسطى. تقدم في مهنته بكد ذراعه وبلغ رفاهاً نسبياً. لست أدري إن كان الواعظان المتطوعان قد

تشاورا حول خطة عمل. فالثاني قد ضاعف من القوة والتهديد في خطابه. حثنا على «العودة إلى الله» وعلى الحشمة المدونة في «الشريعة الإلهية» وأكد أن «الحياة الإسلامية يجب أن تتجنب عدم الاحتشام واختلاط النساء والرجال». الشريعة، حسب قوله، هي حجب جسد المرأة، دون شك على صورة زوجته، التي يضعها تحت رقابة مشددة، وبعض المتعاطفات، المتحجبات من الرأس حتى القدم، ما عدا الوجه المحاط بمنديل أو قُبّ. ذاك هو الزي الذي سيحظفنا من الإباحيات المشؤومة! أيضاً «الحياء» الذي يريد أن يكون الاتصال بالرجل في أدنى حد: الامتناع عن المصافحة: والتقاء النظرات. لا بد في كل لحظة من تجنب خطايا النظر أو اللمس.

المرأة غير المتحجبة، هي رمز عدم الاحتشام، رمز هجران الإسلام «الإسلام الذي هجره المسلمون أنفسهم». كان من السهل تخمين الجملة التي تلي: «الهجران، سبب الانحطاط والتخلف». الشر يتلخص في «تقليد عادات الكفار. فمن الضروري إذن العودة إلى نظامنا الإسلامي في طرائق الأكل واللباس؛ في طرائق الحياة عموماً [...]، يقول حديث نبوي بالظهور بمظهر خشن. كيف؟ برفض تقليد الزخارف التي يمارسها الكفار...». قرأت أو سمعت كل هذا أثناء سنوات الدراسة في الثانوية. في ذلك العهد، كانت هذه الأصوات تتصادم وتختلط، في نوع من الفوضى، مع السلفية الوطنية، أو البعثية، أو الناصرية. ودون شك بسبب قلة التجربة، كنت أبحث أحياناً عن معونات في الطبعات الرخيصة لمؤلفات سيد قطب، ومؤلفات عباس محمود العقاد، الملقب بطريقة تفخيمية «مفكر العرب»! كانت مصر تعرض على عقولنا الفتية إنتاجاتها بالجملة. جمال رجولي، خشن وإذن صارم: طهارة ونظافة. الثوب العريض الفضفاض يتلافى رسم أشكال الجسد تكمله الطاقية واللحية. وبحسب الأذواق، فممارسة هذا التقليد، المنسوب بالطبع إلى الرسول، تترجم بلحية كثة، من الأفضل أن تكون قليلة التشذيب؛ أو بلحية صغيرة وشارب ضئيل (وفق الموضة الوهابية الشاملة الاستعمال في العربية السعودية). الحلاقة بالنسبة إلى البعض محظورة، لا بالنسبة إلى الآخرين.

الخطبتان الوعظيتان تتوافقان، لأنهما تشكلان جزءين من مجموعة

مختارات. اللعن والتكفير مألوفان عندي، ودون شك عند أكبر عدد من الحجاج، حتى أولئك الذين لم يتعلموا القراءة والكتابة. فالبرامج الدينية للإذاعة والتلفزيون قد أضافت منذ زمن طويل سلطتها إلى سلطة الكتاتيب القرآنية، والدعاة، والمنشورات الهجائية التي تفيض عن الحوانيت لتغطي أرصفة مدننا. في كل مكان «بيوت القرآن» تلعن الانفتاح على الآخرين، وكذا التجارب التاريخية للتغيير، المدانة، والملقّبة دورياً بـ«التقليد الأعمى»، «الكفر»، «الهيمنة الأجنبية»، «الغرب».

عباس وزوجته الزُّهرة حفظا عن ظهر قلب هذه المختارات. في المدينة، ينبهاننا بواسطة مقتبسات كلما سنحت الفرصة. كان هذان الزوجان من الصناع التقليديين يعرفان الكثير وبطريقة تنفلت من منطق المنظومات. يُعنى الداعيتان عناية خاصة بـ«واجبهما الإسلامي» ولا يتردد الآخرون في استشارتهما. كل شيء مستقطب بوضوح إلى قطبين: هروب/عودة، أصالة/تقليد، صدق/نفاق، حرية/هيمنة... كل شيء كان مبرهناً: مقصاةٌ هي حرية التفكير، والبحث المتردد، ومواصلة النقاش والتردد، والبحث عن الاستلهام. أليست هذه مجازفة بمصادفة الملتبس، والمنحرف، والحي؟ وإذا حدث هذا لسوء الحظ، فينبغي، وفق نهج جيد، استئناف البرهنة. إن هذه الهندسات تخترع نظاماً. وما أقرب هذا النظام من أنظمة بنيوية كان قد علّمنا إياها أنثروبولوجيون في ما مضى!

نتقدّم ومركبتنا تنساب في الليل، وصوت المحرك يغطّي على باقي الأصوات. صارت التلبيات غير مسموعة وتتناقص باستمرار. واعظانا، مثل الآخرين، قد أدركهما الإنهاك. أوقفت شرطة التنقلات والهجرة مرة أولى حافلتنا. في الخمود، نسيت كل ما فعلته البارحة ومن أين أتيت. لما عدت إلى وعيي، منتبهاً إلى آخر حركات رأسي غير المضبوطة، أطل الصبح. الإحرام يلصق بجسدي وأحس بالتعب نفسه، والذهول نفسه اللذين أقرأهما على الوجوه الأخرى.

توقفنا مرة ثانية في مكان ما من الطريق. قدمت لنا الشركة المتكفّلة بإقامتنا فطوراً: الخبز، والحليب، وعصير البرتقال. الساعة حوالى الخامسة صباحاً.

كنت في حالة مزرية. ساعدني عباس على النزول والصعود إلى الحافلة. كانت الشمس قد ارتفعت عالياً حين توقفنا مرة ثالثة، هذه المرة غير بعيد عن مكة، في نوع من محطة المراقبة. توضّأنا الوضوء المعتاد قبل العودة سريعاً إلى أماكننا. سرنا بضع لحظات، قبل أن ندخل سريعاً جداً إلى شارع كبير. إنها مكة. استأنفنا الجهر بالتلبية وأخذت الأصوات من جديد تدوّي مجتمعة. الدخول إلى مكة يجدد الاحتدام. الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، يوم السبت، الخامس والعشرين من ذي القعدة ١٤٥٩هـ، الموافق الثالث عشر من مارس ١٩٩٩م.

هيأتني المدينة بعض الشيء لما سأراه في مكة. لكن ذلك لم يخفّف تماماً من الصدمة. طرقٌ سيارة، أنفاق، عمارات بيضاء من أربعة، أو خمسة، أو عشرة طوابق؛ حركة سير كثيفة وكما هو الحال دائماً وفي كل مكان رائحة الوقود هذه. اخترقنا الشوارع دون تطلع خاص. ورفاقي، مثل الركاب الآخرين، مشدودون نحو هدف يبدو أنه يجعلهم غير مكترثين للمدينة وللتلوث. الهدف هو أن نستقر بأسرع ما يمكن، للذهاب سريعاً إلى المسجد الحرام.

العبادات والمناسك. هاتان هما الكلمتان المفتاحان. حاولت مرة أو مرتين كلمة «طقوس»، لكنها لا تعني شيئاً لأي أحد. بعضهم قد ترجمها إلى الفرنسية بمعنى حالة الطقس التي ترد في النشرات الإخبارية المتلفزة. لم أندهش لهذا. إن مصطلح «طقوس» مهايأة حديثة من المسيحية العربية لترجمة rites. وفضلاً عن ذلك فأنا الوحيد الذي يشير بكلمة «طقوس» إلى ما أمارسه وألاحظه في الآن ذاته. «مناسك»، التي أسمعها نادراً على لسان الحجاج غير المتعلمين، تتكرر كثيراً في الكتيبات حول الحج وفي الخطب. ولم يكن رفاقي، حتى أكثرهم علماً، يدركون الدلالات الدقيقة للكلمة. لكن حين يقولون «لنذهب إلى المناسك»، فهم يستعملونها بمعنى العبادة ليس في اللحظة المفروضة فحسب ـ مثلاً صلاة الصبح ـ، بل كذلك بمعنى مكان وجوبها.

أخذت عُمرتنا نصف اليوم. بعد اثنتي عشرة ساعة من السفر، ومن الذهاب والمجيء بحثاً عن مسكننا، جددنا وضوءنا في استعجال وقصدنا المسجد الحرام. نزلنا طوال شارع عريض محاط بعمارات بيضاء لا تتميز بشيء خاص؛ حركة السير صاخبة وشديدة، وحشد الناس كثيف. يتزايد ازدحامه بقدر اقترابنا

من المسجد. ثمّ، في منتصف الطريق، على منعطف شارع، أبصرت المئذنتين اللتين تطلان على جدار ضخم أبيض مائل للرمادي. أُخبرت أن ذلك هو باب الملك فهد بن عبد العزيز. التففنا حوله يميناً لندخل من باب السلام. وانتهزنا فجوة بين الصفوف لنقطع الرواق الفسيح الذي يغطي المسعى بين الصفا والمروة وبلغنا الفناء الذي تنتصب في مركزه الكعبة. استطعت أخيراً تأملها على مهل. ومثل جميع الناس، توقفت غريزياً لحظة. كنا بين صلاة الظهر وصلاة العصر. المكعّب الكبير ذو الأحجام غير المعتادة يقف هنا، تحت كسوته السوداء، ذات الإفريز بالخط المذهب الدائر بالجهات الأربع. الدهشة تامة، رغم أُلفة فورية، رغم اللقاء بهذه الكعبة التي كانت تحيا في حيواتنا منذ الطفولة. بفضل تلاوة القرآن، والنقاش، والخط، والرسم والتلوين، والصورة، والصحافة، والتلفزيون، والسينما، والشعر، والأغنية، والسرد...

أخذنا في الصلاة: ركعتين واجبتين تحية للمسجد. بعد ذلك التحقنا بدوائر الطواف. طوافنا بدأ، كالمتوقع، من الركن الجنوبي الغربي، الركن اليماني. بهتاف «الله أكبر» وبتحية المسجد بذراعنا اليمنى المرفوعة شرعنا في ركض بطيء للرجال، وسير متصل للنساء. في الاتجاه المعاكس لعقارب الساعة. أخذتنا على الفور الدوائر البشرية الهائلة في حركة دائمة. صعدت التلبيات، والدعوات، والانتخابات من كل مكان نحو السماء. ضوء مذهّب يكشف الكل على الخلفية المعتمة للأروقة المقنطرة التي تدور في الاتجاه المعاكس. دُوار. كنت أتجه يميناً أو شمالاً لفسح المكان للعمال السود، المخيفين، الذين يحملون العجزة والمرضى على نقالات، مرفوعة فوق الرؤوس. انعطفت مقترباً من البناء. في الشوط السابع استطعت لمس الثوب الحريري، كسوة الكعبة. الجمهور، القوة اللاواعية المخيفة، يزدحم في اتجاه الحجر الأسود. درت مرة أخرى بأمل تمرير يدي على الزجاج الذي يحميه عندما دفعني الحشد بعنف. لم أصرّ، فسلّمت من بعيد وغادرت ببطء الحشد المتحرك.

رجال ونساء لا ينفكّون يندفعون، مجذوبين بنوع من المغناطيسية نحو الحجر الأسود، الذي يحميه حراس دون أسلحة ظاهرة. وآخرون يلتصقون بجدار المبنى، في سكون وصمت، تحت أشعة الشمس. إلى الدعوات

تنضاف التضرّعات: من أجل الصحة، أو تفريج الشدائد والتعاسات. شيئاً فشيئاً انزويت إلى الخلف، هناك حيث الأروقة تلقي قليلاً من الظل. كنت عاجزاً عن نزع بصري عن هذا المكعب ذي السواد الحريري. نساء حولي يصلين، ويتوسّلن، وينتحبن، ويستغفرن. كنّا مواجهين الكعبة وحولها، مرتبطين بعضنا ببعض، في تحريم لذاتنا بفضل الإحرام الذي يُغيّر حدود الأجساد والهويات، شهادة على وضع لم يستوعبه وعيي. استبدّ بي التأثر. صعدت الدموع إلى عينيّ، دون أن يتاح لها الخروج، وتجعلني في تناغم مع الآخرين. لن أعرف أبداً، دون شك، ماذا يرتبط بهذه الدموع. لكن التجربة التي أحياها كانت حقاً ملموسة ومحددة، أحسست كأنما قد عرّاها النظر إلى «البيت العتيق». دون تحفظ، وخصوصاً دون خوف من أي قانون، الدين يوصل إليّ قوته الخارجة على القانون، أو أيضاً على جانبه، أو تحته، أو في ما وراءه. أفٍّ من سلطة المنابر! البنايات الكبرى للشريعة التي سحقتني في المدينة، تتصاغر حتى التلاشي وراء المكعب الأسود. منذ الآن وجدتُ معنى في بعض الأقوال التي سمعتها كثيراً: «أي سعادة أن تكون حاضراً هنا! هذا الخير، هذه النعمة من الله... أي سعادة أن ترى كل هذا...» أو أيضاً: «عند رؤية الكعبة، أحسستُ بأقوى سعادة حصلت لي في حياتي...» ودون أن أدّعي النفاذ إلى حميمية الناس، فهذه العبارات صار لها منذ الآن معنى عندي.

غادرت الأروقة المسقوفة لألتحق من جديد بالطواف. هذه المرة ذهبت لزيارة الحِجر، حيث تقول الرواية إن هاجر واسماعيل قد أقاما، بعد أن نفاهما إبراهيم. وبحسب الأخبار التي راجعتها، فإن سارة لم تعد تطيق هذه «الجارية» بعد أن كانت هي نفسها، وقد عجزت عن الإنجاب، قد دعت الشيخ الذي بلغه الهرم لمضاجعة هذه المرأة المصرية. جدار واطئ من الرخام السماقي يحيط بالمكان، يتأطّر مدخله بمصباحين مذهّبين. كثير من النساء متمددات هنا، يفوق عددهن بكثير عدد الرجال. تشكلت مجموعتنا من جديد، وذهبنا للصلاة حول مقام إبراهيم، مؤسس «الإسلام الأصلي»، الذي كان، وفق الأخبار نفسها، قد عاد ليلتقي أسرته، وليبني، مع إسماعيل، الكعبة ويؤسس مكة، «أم القرى». أدّينا ركعتين حول بناء صغير على شكل

ضريح بقبّة من الذهب والبلور، يؤوي مصباحاً موقداً. قرأت أن «هنا كان إبراهيم قد دعا إلى الصلاة للمرة الأولى، مولياً وجهه على التوالي نحو الجهات الأربع». على بعد خطوات، نزلنا إلى بئر زمزم، العين التي كشفت عنها هاجر بمعجزة بعد سعيها القلق بين الصفا والمروة. عين الحياة التي، بحسب رواية شائعة نسبياً، كشفها الملاك جبريل. كان الطفل ظامئاً وحياته في خطر. فكوفئت هاجر على جهدها، وإخلاصها وثقتها بالله.

وراء صالح، الذي تقدم مجموعتنا للجهر بالتلبية، نزلنا سريعاً إلى قبو حار ورطب. شربت من أحد الأكواب الموضوعة تحت الصنابير. ينبغي القيام بذلك مع ذكر فضائل هذا الماء المعجز، الذي كنت قد ذقته في مسجد المدينة. آلية فائقة الحداثة تضخّ الماء الضروري لملايين الحجاج المتتابعين على مكة. ذكر عباس «سعادة» العودة بقليل منه إلى المغرب، «مثل كل الحجاج». قصدنا السلّم لبلوغ الرواق بطول بضع مئات من الأمتار، الذي يغطّي المضمار الواجب بين الصفا والمروة. قطعنا سبع مرات المسافة بين هاتين الصخرتين اللتين لا تكادان تبرزان على سطح الأرض. الرجال يهرولون، والنساء يمشين. السعي لا يبدأ إلا على بعض المسافة من تينك الصخرتين، وأضواء النيون تعيّن حدوده. كنا نتلو، الرجال جهراً، والنساء بخفوت، الآية القرآنية الإلزامية حيث السعي يُسمّى شعيرة. لما انتهى السعي، لم تتردّد امرأة مغربية في قص خصلة من شعري، وهو قص واجب على الجنسين. تذكرت فجأة أن الشعيرة هي أيضاً العلامة التي تميّز الذبيحة المهداة [البدنة]. يرتسم رابط بين شعيرة، وشعور، واستشعار...

انتهت عمرتنا قبل قليل من صلاة العصر. أدّينا الأربع ركعات في الأروقة الغربية للمسجد. صلّينا بعد ذلك على الموتى. أثناء الصلاة، كما هو الحال دائماً، كان الفصل بين النساء والرجال يستعيد سلطته. أخذ عباس وصالح في تبريره، لكن بحماسة متزايدة. نبهتهم إلى أن الجنسين يدخلان هذا المسجد من الأبواب نفسها وأن الطواف مختلط، وهي أمور لم تلفت انتباههم. تواصل النقاش أمام باب الملك فهد. قال لي عباس إن النساء يصلّين منفصلات، وافقت على ذلك مع ذكر الجدار الخشبي المبرنق الذي يفصل بين الرجال

والنساء في مسجد المدينة. لم أكن أتوانى في كل مناسبة في التذكير بأن هذا الحاجز، الذي يتجاوز القامة، كانت أبوابه مغلقة بأقفال.

قرر رفيقاي عدم الرد، فواصلنا تقدمنا خلال الحشد الكثيف الذي يحتل فناء المسجد الفسيح وكذا الشوارع المجاورة. ذهبنا لملاقاة النساء قريباً من سوق ممتازة، تقع على الشارع الذي نقطعه بين المسجد والعمارة التي نقيم بها. الشمس، والحشد، وحركة المرور، والضوضاء، والروائح تنهكني. جررت نفسي آلياً، صاعداً المنحدر مع الآخرين، بحثاً عن مطعم. وقعنا على محل باكستاني طويل ضيق. في المدخل، مشواة كهربائية تدير صفوف الدجاج (المربّى صناعياً) الذي لا مفرّ منه. وعلى الجانب الآخر من الباب مجمر للفحم. في الداخل، دكك متعامدة مع الجدران تاركة ممراً صغيراً يؤدي إلى المطابخ حيث يُوصى على الطلبات. انتظرنا في الطابور من أجل مرقة من الخضر مع قليل من الأرز يرافق دجاجة مشوية على الفحم. ألهب المرق شفتي وحلقي. كان ثخيناً، دسماً، أحمر، مركزاً خليطاً من التوابل والفلفل. حرارة المطابخ والمشاوي صارت خانقة. هذا الغداء انتهى بالقضاء عليّ فيما كنت أجرجر دائماً حُمّاي منذ الانطلاق من المدينة. غادرت سريعاً هذا المكان الجهنمي. وبعد لحظات، مترنحاً في السلم، وصلت إلى الغرفة المشتركة لأتهاوى على قطعتي من الإسفنج. جاء الآخرون على أثري. سألتني فريدة بعض الأسئلة قبل أن تعاود إعطائي أقراصاً. هي طبيبة، لكنها امرأة، فلم تقترح فحصي.

بعد أن استرحت واستعدت بعض القوة، عدت إلى المسجد. لا أريد أن أفلت شيئاً من صلاة العشاء والطواف ليلاً. خلعت إحرامي، وبعد ان استحممت وحلقت، لبست قميصاً نظيفاً تحت الدراعية البيضاء من القطن. وضعت طاقيتي البيضاء، وانتعلت بُلغتي وغادرت الغرفة. البرودة النسبية تمنح نوعاً من اللطافة لهذه الليلة المكية الأولى. الناس في كل مكان، على الأرصفة كما في وسط الشارع، وبين العمارات، والإنارة كضوء النهار بالنيون تجعل هذا المشهد خيالياً. صادفت صفوف المصلين في الفناء الذي تعلوه المآذن، والأبواب الضخمة والجدار الرخامي السامق. ألقيت نظرة إلى يساري على بناء مدغّم بمداميك الأساس من الإسمنت، يعلو على المسجد من فوق

نوافذه العريضة من الزجاج الأسود. إنه بيت الملك المطل على بيت الله.

لجأت إلى المسجد وذهبت أحتبي في أسفل سارية من الرخام تحت السقوف متعددة الألوان. كنا في صفوف مزدحمة، الواحد وراء الآخر، شخوصاً جامدة على مد البصر. الأصوات تصعد، وتتعاقب ثم تتلاقى في تراتيل من الجمل، والكلمات، والمقاطع، والهمسات التي كانت تلفّنا، مثل قبة رنّانة. عند نداء المؤذّن، غزا الصمت المسجد الفسيح. أخذنا في الصلاة في إيقاع معتدل. بعد الصلاة على الأموات، عدت إلى الرواق المطل على الصحن. استؤنف الطواف. النقالات، حيث يقعد حجاج مقرفصون، رجال بالإحرام أو نساء محتجبات، تنساب في الهواء حول المكعّب الأسود، فوق الحشد. بحر من الشخوص البيضاء بأمواج متراكزة، منقوطة هنا وهناك ببقع من ألوان فاقعة: أسود، وأخضر، ووردي، أحياناً أحمر أو مائل للبرتقالي. كنت أعرف، بما شاهدته في المدينة، أن الأزياء السوداء تلبسها النسوة الإيرانيات، والمناديل الخضر للأندونيسيات. وأنّ بقعاً أخرى تشير إلى أمم إفريقية، وآسيوية...

سرعان ما تنبّهت إلى أنّني لست الوحيد الذي يتابع المشهد. حجّاج آخرون، رجالاً ونساء، يأتون هنا «لمجرّد النظر». «لا يمكنك تحويل نظرك، أي مشهد!» ردّد شاب جزائري، تاجر، من مدينة في الجنوب. تبادلت كلمات بالإنجليزية مع بعض الأندونيسيين. أكدوا لي أنهم كثيراً ما يعودون، بعد صلاة العشاء، ويصعدون السطوح «للاستمتاع بهذا الشيء الخارق»، والتأكد «أننا كلنا هنا حاضرون...» بالنسبة إلى مخاطبي الجزائري، فهذه هي «عظمة الإسلام»، بجميع شعوبه. لكن من الواضح أيضاً أن هذه الرؤية تسحره كما سحرتني.

غادرت المسجد في وقت متأخر من الليل، ليس دون أن ألقي نظرة على الدوائر المتحركة. الطواف الأول الذي هرعت إليه هو طواف القدوم. طفنا سبعة أشواط، مولين يُسرانا للكعبة، رافعين اليمنى بين حين وآخر للتحية ومصاحبة التلبية. الانطباع الحسي الحركي الأول الذي أحسست به عند كل حركة هو انطباع لف شيئاً ما، باتباع مسار في دوائر متحدة المركز.

خرجت من المسجد الحرام قاطعاً مسعى الصفا والمروة. الأشواط

المكوكية هذه هي أيضاً تدور سبع مرات من اليسار إلى اليمين، على غرار الطواف. في هذا الرواق الطويل المغطى . المصنوع من الرخام، والخشب، والجص المتعدد الألوان . المضاء بقوة، طوابير من النساء والرجال تجوب دون انقطاع السبيلين المتعاكسي الاتجاه. بينهما ممرٌ مخصص للأشخاص المعوقين، والعجزة، والمرضى، يتبعون بذلك أثر هاجر، في مقاعد متحركة يدفعها مستخدمو مؤسسة متخصصة.

في طريق العودة، بعد تجاوز الكشافات التي تسكب على الحشد ضوءاً ساطعاً، توقفت أمام برجين توأمين ينتصبان على قاعدة وحدة، متصلين في ما بينهما، في الطبقات، بالقفص الزجاجي للسلالم المتحركة. قطعة من نيويورك على الطريقة السعودية. بعيداً، على الربوة، حصن أجياد القديم يسهر على الحرم والمدينة. رأيت من جديد، وأنا أسير متمهلاً بسبب الجمهور والمنحدر، المكعب الأسود، ذلك البناء الذي يبدو لي مبحراً على سطح الكتل البشرية، والذي يتوقف عن الحركة حين يثبت النظر على الحشد. أقول لنفسي إني تحت سحر سفينة نوح تتحدى الطوفان، وفيها زوج من كل حي: أملٌ وثقة في حياة جديدة بعد أن تغيض المياه. لكن الذين يبكون، ويتضرّعون، ويتحدّون الحشد ليرتموا، دون حراك، على الجدران، فاردين الأذرع كالأجنحة، يرغبون في التعلق بهذا البيت حيث يعثرون على الثقة لواجهوا بها كل شيء، حتى فائض الحياة. وكأن الجميع على علم، يمر كل واحد دون أن يعير أي اهتمام لهذه الأجساد المتشبّثة بالجدران. إننا كلّنا في التفرد نفسه الذي يستعيده لنا المكعب الأسود.

قدّرت أكثر فأكثر أهمية هذه العودة إلى الطواف. لمحت، منذ الليلة الأولى في مكة، وجود شيء مدهش في هذه الرغبة في تأمل هذه الحركة نفسها، فوراً بعد أدائها. من الواضح أنه لا جدوى من البحث عن سبب وحيد بالنسبة إلينا جميعاً. الشيء الوحيد الذي كنت متأكداً منه هو قوة الجذب هذه التي تجعلني أعود إلى الكعبة، التي تمتد أركانها إلى أربع جهات تلخّص كلية العالم.

«أمام الكعبة، إزاء بيت الله، يُنسى كل شيء» هذه الجملة لا تنفك تتكرر. وبعيداً عن الحجر الأسود، لا أزال أسمعها. وأنا أقطع الشارع للعودة إلى

مسكننا، أرى ثانية تلك الدوائر تتحرك دون تعجّل؛ أحسّ قوتها القهرية والهادئة في آن واحد. قوة يمكنها، في براءتها، أن تتجلّى على السواء قاتلة أو خيّرة.

أيقظنا عباس، في الغد، كالعادة حوالى الرابعة والنصف صباحاً. علينا الاستعداد للذهاب إلى صلاة الفجر. نحن في مكة ورفاقي يحرصون على أدائها أكثر ما يمكن. استعدت صور البارحة: الحشد، القبّة الرنانة، الحركة القهرية. لكن في هذا الأحد السادس والعشرين من ذي القعدة ١٤١٩هـ، لم أستطع الحركة من فرط الإرهاق. رغم إلحاح الآخرين، ظللت متمدداً. أيقظني رفيقاي عند عودتهما. رويا لي أنّ الحر شديد وأنّ الناس قد اكتسحوا الشوارع، والأزقة، وأفنية المسجد وداخله. وفي الطواف كما في الصلاة «لا تجد مكاناً لإبرة». تحدّثا عن أداء صلاة الظهر في الغرفة. ثمّ، وفق الإيقاع المكتسب في المدينة، استسلما للنوم. بصورة عامة، كنت أخصص سائر الصباح للكتابة التي أستأنفها بعد الظهر. في هذا الصباح، شرع عباس، المستيقظ دائماً قبل الجميع، في الحديث عن الطواف. لاحظت: «في الليل أفضل، لا نتأذى بالحر» «آه، الطواف شيء عظيم!» كنت قد سمعته ينتحب، ويدعو، ويتوسل لما كنّا نطوف معاً. يحدثني الآن بهدوء وحزم: «لا بد أن تتهيّأ للحج! ستكون المحن والتعب.. لكن ذلك في سبيل الله! ستزول الحمّى عنك، إن شاء الله!».

صار من الواضح أكثر فأكثر أنني لن أشارك الآخرين مشاريعي في الكتابة. أتحدّث عن ذلك من حين لآخر مع صالح، لكنه لم يحاول تعميق الموضوع. ومع ذلك فالكل يتصرف كأننا نسعى وراء الأهداف نفسها. سألني عباس مرة ثانية بحضور صالح إن كنت أصلّي في الحياة العادية. أجبته: «هجرت الصلاة والفرائض الأخرى منذ المراهقة؛ أصلّي من وقت لآخر مثل زيارة منعشة لبيت نشأنا فيه؛ أصادف فيه اتصالاً طبيعياً بأمّتي التي هي أمّة الإسلام». المجموعة تتركني أوجّه نفسي كما أشاء. نتشارك في العبادات وفي شطر كبير من الحياة اليومية. والحج بمعنى الكلمة لن يبدأ إلا بعد أحد عشر يوماً. استقررنا في حياتنا المكية، وخلعنا الإحرام بعد العمرة. لدينا الوقت للاستمتاع بحياة ديِّنة وحرة قبل الانطلاق نحو مِنى.

هذا الأحد هو اليوم الأول من حياتنا اليومية العادية. بعد راحة الصباح المستحقّة، اصطففنا للدخول إلى الحمام الواقع في الممر، لتجديد وضوئنا، لكن أيّة محنة! رائحة عفنة تصعد من المراحيض والدوش. انفردنا فيه بالتناوب، النساء قبل الرجال، وغادرنا المكان سريعاً في اتجاه المسجد. وجدنا كالمعتاد مشقة في فتح طريق لنا خلال حركة السير الكثيفة والصاخبة للشاحنات، والبكوبات، وسيارات الأجرة، والحافلات، والسيارات الخاصة. وفي مقترب السوق الذي يطل على شارعنا، لزمنا أحياناً شق طريقنا بالقوة. صرنا على الفور غارقين عرقاً لارتفاع درجة حرارة المدينة، وشممت للمرة الأولى روائح المجاري؛ تجربة ستتكرر كل يوم بشدة متفاوتة. ولا بد كذلك من اعتبار النفايات التي يرمي بها الحجاج في الشارع. مصالح النظافة كانت متجاوزة أحياناً، رغم نشاطها الكثيف والوسائل الوافرة التي بحوزتها.

لاحظت للمرة الأولى بعض المتسولين السود، ومعظمهم من المبتورين. بعضهم يتنقل على رجل واحدة واليد اليمنى أو اليسرى؛ آخرون يكشفون عن ذراع لم يبق منها إلا الجدعة. ربما تعلق الأمر بقطوع على أثر أحكام في محاكم المملكة. كان من العسير مباشرة الموضوع. لكن، لما طرحت السؤال بعد بضعة أيام على سائق تاكسي، أكّد لي، ليس دون تحفظ، أن الأمر كان كذلك بالنسبة إلى البعض.

أحسسنا بارتياح حقيقي لما بلغنا باب المسجد. تبعت رفيقيّ صالح وعبّاس. تركنا النساء يدخلن أولاً. دهشت وأنا أكتشف عن يميني امرأة جالسة على كرسي، مغلّفة تماماً بالسواد تنتمي إلى الحرس المسلّح للمكان. يقف زملاؤها الذكور على الجانب الآخر من الباب، في حراسة وثيقة للسيل البشري، متدخّلين في حال الشك، موجّهين الناس نحو أبواب أخرى عند الضرورة، حابسين المدخل لتلافي التدافع. ارتحت لدخولي المسجد، فتنشّقت الهواء الرطيب تحت قباب الجص والرخام. راقني أن ألاحظ مرة أخرى الحضور القوي للنساء، منفصلات عنا لكن ظاهرات، يتحرّكن بثقة واضحة داخل قلب الإسلام الحي النابض.

لدينا قليل من الوقت قبل الصلاة. اخترقنا الصفوف لنقصد الأروقة العليا،

المطلّة على الصحن، لنتأمّل الطواف. المشهد لم يفقد شيئاً من قدرته الساحرة. أحسستُ بالرّجفة في ساقيّ وأخذ عباس، من جديد، في البكاء. أصابني دوار خفيف، شبيه بالذي يصيبني كلما حدّقت في مياه لا قعر لها، وحدست، تحت هدوء السطح، وجود تيارات عميقة وحشية. رجفت وخفق قلبي في غير انتظام. تعرّفت القلق المتصاعد، ذلك الذي يستبد بي لحظة انجذاب عنيف، أعرف خطورته. ربما كان هذا هو المعنى المنسيّ اليوم لحالة رعب ديني.

قرّرت البقاء في المسجد في انتظار الصلاة القادمة، صلاة المغرب. نزلت إلى الطابق الأرضي للجلوس تحت قبة بعد أن تناولت مصحفاً من رفّ قريب. ظللت هناك أقرأ السور التي أعرفها جيداً. أوثر دائماً صورة النحل، والبقرة، والنساء، وآل عمران، وأهل الكهف مع كلبهم، وكذا قصة يوسف، وسليمان، وموسى، وفرعون، وقصص الشعوب القديمة: عاد وثمود... الشعر القاتم للسور التي تروي نهاية العالم والآخرة تفتنني دائماً. كانت الآيات حول بدائع المخلوقات تمنح كل شيء ـ أرضاً، وسماوات، وجبالاً، وليلاً، وقمراً، ونجوماً، ونباتاً ـ سحر المرات الأولى. أتجنّب الآيات التي تهدد غير المتحمسين والكفار بالنيران الأبدية، وتفصّل فنون التعذيب بيد ملاك الموت، وترسم بحركة باهرة سقوط الملعونين عبر فضاءات لا نهائية، والذي ينتهي في منقار الطائر، أو السور التي ترسم مشاهد أهل الجنة يستمتعون بعذاب أهل الجحيم. تعبت من القراءة، فتمددت لحظة، وأغمضت عيني، ومثل كثيرين، استسلمت للنوم. ومثلهم، أفتح عيني، من حين لآخر، لاستئناف قراءتي الصامتة. أجد هدوءاً غير معتاد في هينمات القراءة. كان الناس جالسين، يقرأون أو يتلون؛ أو منتصبين يصلّون، أو يؤدّون بعض الركعات قبل الالتحاق بحلقات الطواف. عدت لحظة لقراءتي ولسورتي المفضلة، سورة النور، التي الله فيها هو النور، لا يوصف بصفات الغضب، والقدرة على إلحاق أنواع العقاب. مجرّد نور محيط يصدر عن مشكاة فيها زيت، من زيتونة «لا شرقية ولا غربية...» نشوة.

هذه الآيات تحكم لنفسها ضد بعض ممارسات المعرفة التي كثيراً ما تسقط في الابتذال والصراع اللاهوتي. أفكر في ترجمة للقرآن كانت تعد

مرجعاً منذ عقود، خصوصاً في فرنسا. يربط عالم الإسلاميات هذه السورة بمقطع من التوراة مماثل، وهذا الربط يوحي طبعاً بالإعادة... لكن قراءة ثانية لسورة النور تجعل من السهل إدراك أنها حتى لو كانت متفرعة من مقطع توراتي، فإنها تبلغ ذروة لا يقاربها المقطع التوراتي المعنيّ إلا من بعيد. وكما يحدث كثيراً في موضوع الاستلهام الأسطوري، تسير الروايات اللاحقة في اتجاهات وآفاق من الإبداعية ظلت غير مكتشفة. إن النقد التاريخي الفيلولوجي، مهما كانت ضرورته، يجد عند هذه النقطة حدوده؛ يزيد من قساوتها أنّ هذا النوع من العلم يجعل منها أحياناً حقائق غير قابلة للشك.

قبل قليل من صلاة العشاء، جاءني عباس وصالح مصحوبَين بالشاب التقني الواعظ الذي كنت أعرفه. حيّاني هذا الرجل ببرودة فرددت عليه بمثلها، مستأنفاً قراءتي. كانت الصلاة تجلياً نسيت به حتى وجود رجل الحقد هذا. صوت القارئ يموّج كل مقطع بتلوينات سرية. كان واضحاً، قوياً دون إفراط. يدخل بي إلى عوالم لم أرتدها حتى ذلك الحين. أسير خفيف الخطو، دون خوف، بين وحوش تواصل طريقها بهدوء، تحت شمس تسطع دون أن تلسع. لا وجود إلا لرنّات ونبرات، وأشكال وحركات، وإحساسات وحضورات، وهبات وتلقّيات، وحاجات وعطاءات. كل شيء يتجاوب وفق إيقاع دون ثغرات، يُغفل التناظرات الدقيقة. العالم يزدوج إلى نوع من رسم مجرد.

لم تكن لدي أدنى فكرة عمّا كان يعيشه رفيقاي وهما يسمعان هذا الصوت: عباس قال لي إنها «تلاوة رائعة»، دون مزيد من الشرح. أمّا صالح، فقد كان مستغرقاً في نقاش عن «عظمة الإسلام» مع ذلك الفقيه المزعوم الذي يرغب في صحبته. تركتهم لألقي نظرة أخيرة على الطواف. كان الليل قد تقدّم. وضوء القمر يزيد من رهافة الجو. وإنارة المسجد وأفنيته ترسل بضوئها بعيداً في السماء، فوق المدينة. وسحابة من الطيور الصغيرة تظهر بانتظام لتذوب فوراً في الظلام. حول الكعبة، شكلٌ معتم يشرف على الحشد اللامتميز المتحرك، ودائماً المشاهد نفسها: بكاء، وتضرّعات، ولمسات وقبلات على الكسوة، ومحاولات يائسة للاقتراب من الحجر برفع طرف من القماش الأسود؛ وتدخل حازم لكن دون عنف من الحراس.

عدت وحدي. الناس أقلّ كثافة، ما عدا حول المراحيض التحت أرضية المزدحمة. ناس يتهيأون لقضاء الليل حول المسجد والعمارات المحيطة به. يستقرّون على أفرشتهم المرتجلة: أغطية، قطع من الإسفنج أو الكرتون. أخترق هذا النشاط الكثيف دون اهتمام، لأن صور الصلاة، والسعي بين الصفا والمروة، وخصوصاً الطواف لا تزال تعتمل في داخلي. تتعالى على نفسيتي الخاصة بالاهتمام والنقاش اللذين تثيرهما لدى الآخرين. صورة المياه المدوّمة أثارت اهتمام عباس وصالح، اللذين يؤكدان على العفوية والقوة. أراد صالح على الخصوص أن يرى فيها «قوة الإسلام ومجده وعظمته»؛ ومقدرة رسالة، تكمن معجزتها بحسبه في تجميع كل هذه الأنفس، «كل هذه الأجناس الهارعة من جميع فجاج الأرض».

قبل هذا، التحق بي رجلٌ من منطقة تازة، مدينة كبيرة في شمال شرق المغرب. فلاح ميسور. جاوز الخمسين. يسبّح بحمد الله «القادر بإرادته على جمع كل هذه الخلائق حول كعبة إبراهيم». يردّد دون كلال: «هذا المشهد ينسيك كل شيء وهو السعادة». وبعد صمت، تحسّر على أنهم أحبطوا مساعيه في السفر ثلاث مرات بسبب «التلاعبات والرشوة للحصول على أدنى شيء، جواز سفر، تسجيل في اللوائح...». وأضاف: «الشيء نفسه للهجرة. أولادي يعيشون بفرنسا. الجميع يعرفهم، لكن في كل مرة تجري التدابير في المكاتب لتسجيلي بعد فوات الأوان...». ثم، دون تمهيد، يطلب مني توضيحات حول فائض الأمتعة، وأوضح أنه قد قام «بمشتريات عجيبة في المدينة؛ أربع أو خمس حقائب مكتظة وأكياس...». وأنا أستمع إلى انشغالات هذا الرجل بخصوص عودته، وأسئلته حول ثمن فائض الوزن وعدد الحقائب، كنت، دون أن أعي، قد انصرفت عن تأملاتي حول الطواف. أنظر، لكن لم أعد أبصر. تابعت روايته عن استقراره، هو وزوجته، في عمارة قذرة حيث «كان يلزم الوقوف في الطابور منذ الواحدة صباحاً لبلوغ دورة المياه». لم يُعفني من شكاويه حول الطعام الرديء، وهي عقبة سرعان ما يزيلها نشاط النساء «اللواتي يطبخن في الليل ليوم الغد المنتجات التي حملناها من الوطن: زيت الزيتون، جلبان، فلفل حلو، برقوق مجفّف، لحوم محفوظة...».

على أثر هذه الأحاديث، تيقّنت أنه تلزمني إعادة النظر في الأسئلة التي وجهتني حتى هذا الحين. وفي البدء تلك التي أطرحها على نفسي: حول مشروعية مشروعي، والآفاق أو المآزق التي تنتظرني والتي ربما ستحبط انتظاراتي وتوقعاتي. منذ المدينة، أخذت في القبول (لكن بتحفظ لم أكن أعترف به تماماً لنفسي) بأن الواقع الذي أعاينه وأعيشه هو الواقع الذي يلزمني التأهب له. فهو بمعنى لم يكن يفاجئني، لأنني في الواقع أعلم واقع الحال. لكن علي التسليم بالأمر الواقع: كنت أتنقل من مفاجأة لأخرى. هذا الواقع هو إذن في الآن ذاته مألوف ودائماً «خارج الصورة». كلما امتدّ مقامي في المدينة، وتواصل في مكة، كان المجموع الذي يتشيد يماثل ديكوراً. صحيح أن الأشياء التي أراها ليست موجودة هنا بصفة ديكور. أستطيع مثلاً أن أدخل وأخرج من العمارات والمتاجر، وأمشي في الشوارع، وأقصد المسجد، إلخ. لكن شذرات الواقع هذه يبدو أن لا وجود لها إلا وجوداً مخادعاً. في المدينة، كنت حقاً على خطى النبي وأصحابه. غير أن المدينة المنورة، هذه المرة، وهي تحيا على إيقاعات الصلاة وترانيمها، تحجب بهالتها المدينة الوهابية وآليتها الدينية! لست في هذه ولا في تلك، أو بالأحرى تارة في هذه وتارة في الأخرى. هما سيان لكن لا تتطابقان. اللاتطابق هذا يتخذ شكلاً أشد حدة في مكة، بسبب التلوث، والحرارة، والازدحام وانحصار الموقع داخل حفرة تشكلها جبال رمادية قاحلة.

وهكذا فالأشياء ليست كما هي. لا الرفيع ولا الوضيع. تذكرت ذلك الخروج من المسجد البارحة مساءً، مع رفيقي، بعد صلاة العشاء: ناطحة السحاب العملاقة، بطوابقها وسلمها المتحرك، وأسراب الطيور الليلية، والأسواق، وباعة المثلجات، والفنادق الفاخرة. فكرت في تأنيبات عباس الذي يحتج ضد اللامساواة «بيننا وبين ناس الرباط الذين تخشاهم الدوائر العليا في المغرب، والذين منحوا سكناً أفضل منا بكثير». هذه الحياة العادية، التي ليست كذلك إطلاقاً، تثير الحساسيات: في مجموعتي، كان الصانع الحرفي يلوم الآخرين أكثر فأكثر على «عدم الاكتراث له، ورفض اقتراحاته، وعدم الإصغاء إليه في ما يخص الدين». أليس مسلماً حسن الإسلام مثلنا؟

وربما، كما يكرر ذلك تكراراً متزايداً، يعرف «أكثر منا، بينما نحن نستمع بأدب إلى نصائحه دون أخذها في الاعتبار». حياتنا، المتشكلة من الروحانيات والمبتذلات، وكذا كل آثار المخادعة تقذف بنا في انجرافات لا نكفّ عن الحد منها بالدعوة إلى أخلاق الحج. هذه الكلمة تفرض النظام على لانظامنا.

وأنا عائد، كانت لا تزال في ذهني مشاغل الفلاح من تازة، ومشترياته لإرضاء الزوار الذين ينتظرونه حين العودة. قطعت الممرات وبسطة السلم الواسعة حيث ينام النيجيريون المكلفون بالتنظيف، ورجل مسنٌ لم يقبل أحد مساكنته. كان رفيقاي يتناقشان وهما يحتسيان الشاي. استقبلاني بحفاوة. شرحت أنني أبطأت متأملاً الكعبة. تحدثنا عن ذلك مدة؛ وقائع تأسيسها كما يرويها التقليد معروفة. اشتركت النساء في الحديث، منفصلات عنا بحبلٍ مد عباس عليه غطاء بمثابة ستار، يتم إرخاؤه فقط لحظة النوم.

كنا جميعاً متفقين على قصة نفي هاجر وإسماعيل، وعلى معجزة بقائهما على قيد الحياة في هذا المنخفض المقفر القاحل، وعلى الطاعة المثالية والثقة بالله من الأب والابن لحظة الأمر بذبح هذا الأخير، وعلى الرحمة الإلهية التي أنقذته من فتن الشيطان (الذي سنرجمه عما قريب في منى) ومن الذبح. تبادلنا آراء حول الحجر الأسود وأصله. «هبط من الجنة» ذكّرنا بذلك عباس لينهي هذا الجدال الودي. كنا نعلم جميعاً، ما عدا عباس وزوجته، أنّ علماء قد طرحوا فرضية أن الأمر يتعلق بحجر نيزكي. لكن بالطبع الله أعلم منا...

ساقنا الاستطراد إلى الحديث عن كتاباتي وعما أبحث وأنا أدرس الحج. شاء رفيقاي هذه المرة التعمق في الموضوع. وكررت أنني أحاول فهم هذه الأفعال التي نقوم بها كل يوم متبعين قواعد دقيقة. أصغى إلي صديقاي كما في كل مرة بنوع من الاهتمام، ينمّ أيضاً عن بعض الحيرة. صالح، رجل العلم، كان بالأحرى هو الذي يحاول فهماً أفضل لمشروعي. أما عباس فسجّل أنني أدرس الحج وبدا راضياً عن هذا التفسير.

كانت لصالح فكرة عن العلوم الاجتماعية. لكنه كما يحصل كثيراً للمتخصصين في العلوم وخصوصاً للمهندسين، يريد البحث عن معاملات ارتباط بين متغيرات، وإقامة سببيات أو أيضاً القيام باستنباطات منطقية.

ويرغب في استعمال مفاهيم مثل تلك التي تدرَّس في البيولوجيا أو الرياضيات. إن ما قمنا به، هذه الأفعال المنسقة في نظام مقرر، ببداية ونهاية، ينبغي لها، بحسبه، أن تكون ذات معنى واضح وثابت. أليس الطواف حول الكعبة رجوعاً إلى محور العالم، حيث صنع الله الخليقة، إلى حال آدم وحواء قبل السقوط؟ ألا يُحيل السعي بين الصفا والمروة على إشارات الله الذي يلزم الثقة بها لنيل الخلاص؟ «علّة كل شيء أن الإنسان في حاجة إلى هداية الله. بدون ذلك، ينقاد لأهوائه، ويحيا في الفساد والفوضى اللذين يقودانه إلى الهلاك. علة كل هذا تكمن في حكمة خبيئة». والوظيفة؟ «أعمال العبادة تصدّ الناس عن رغباتهم ذات الميول المدمّرة، لتوجّههم نحو الجهد الجماعي لتحسين العالم حتى يقرر الله نهاية الكون». وعن أسئلتي حول عدد الأعمال، وتكرارها، كان الجواب هو أن هذه أوامر يحتفظ الله بسرها، وأن أداءها بهذه الطريقة هو ببساطة الخضوع لأوامره والشهادة على تفويض مصيرنا إليه. كان مخاطبي، مثلي، يغرق في المجازات، لكنه لا ينفك مع ذلك عن الادّعاء بأنه يصوغ عبارات واضحة...

الحدس بالخطر، الإحساس بالوحدة واللايقين، الخوف، الألم، تجارب معروفة. كيف ربطها بالشعائر؟ بيت الله، الكعبة، ملجأ. فيه، كما تقول آية معروفة، الأمن والأمان ضد «الجوع والخوف». أو بعبارات أخرى، ضد الضياع والموت. لا يوجد حدسٌ أو تأويل بمقدورهما إعطاء معنى للطقوس كما تتجلى في الأوامر والممارسات. وحتى في ذلك الوضوح الذي كان محدثي يمنحه لنفسه، واثقاً وثوقاً مفرطاً بلغات العلم، نفضي دائماً إلى مقاصد الله المستعصية على الفهم. لو كان يوجد معنى، لكان متطابقاً مع معرفة. رفيقاي يعرفان أن للعالم نهاية، والموت لا مفرّ منه، والبعث والحساب محتومان، والخطيئة تؤدي إلى الهلاك. ويستعملان تأويلات مماثلة لفهم الأحلام، والتعرف إلى الفعل الصالح. هنا أيضاً توجد طرائق وقواعد... بعد تعلّمها، تصير محايثة للفعل، وتتحدد بممارسة القول والحركة المناسبين. وهكذا يتشكل المعنى والتجربة الصائبة للفعل والإحساس الدينيين في الأفق المرن والمتغير لتجلياتهما. إن امتلاك معنى معيّن للفعل الديني، وللتخشّع،

والتضرّع، والبكاء، والسجود هو التعرف عليها في تعبيرها. ولن أخطئ إلا إذا كانت لدى الشخص خطة مبيتة لمغالطتي.

كان معلوماً أن العمرة التي قضيناها تغسلنا من ذنوب العام الماضي. آثارها تدفع البعض إلى العودة كل عام. وكان معلوماً، بالمقابل، أن الحج بالمعنى الحصري، الذي ليس مفروضاً إلا مرة في العمر، يغسلنا من كل الذنوب الماضية «نخرج منه كما ولدنا». تعلمنا كذلك، كما قلت، أننا في «حج التمتع»، مستفيدين بذلك من الحرية بالنظر إلى المحظورات المرتبطة بالطقوس. نتمتع هكذا بالمقام في مكة، وبجوار بيت الله. أعمال العمرة تقودنا على طريق ينبوع الحياة. لكن لا للمكوث فيها، لأننا نستعيد في الأيام التي تفصل العمرة عن الحج حياة التفرغ، والربح، والجنس، إلخ. ونعلم أن الخروج المؤقت من الإحرام لا يعلمنا العودة إلى حياة حيث يستحيل التمييز بين الطاهر والمدنس فحسب، بل أيضاً العودة إلى واقع أن هذا الفاصل من التحرر يتصادى مع أنواع الحرمان التي تنتظرنا إبّان الحج، حرمانات سيكون عليها أن توجّه حياتنا حتى الموت.

سؤال آخر يحفر في ذهني. إذا كان ثمّة معنى، فهو يتجلّى مواربة ووفق خطوط استهراب ليس يمكننا أن نرى إلا أقرب أجزائها. تعلّمت، في بكورة شبابي، تأدية جميع فروضي الدينية. والتجربة المحسوسة للطمأنينة العميقة التي تتلو الصلاة لا أزال أحتفظ بها كاملة. وأحسّ الحرية نفسها حين أنجح في العمل بوفاق متفاوت القوة مع طموحاتي الأخلاقية. والحال أنني الآن أحاول ملاحظة الحج وتحليله، وهذا المشروع يفصلني عن الآخرين. وهذا التساؤل لا يفارقني: أأنا بصدد خيانة رفيقيّ؟ بمعنى ما نعم، لأنه ليس بمقدوري إفهامهما أنني أطارد تجلّيات الكائن التي ترتسم في تبلور دنياي، وهويتي في طور التكون لكن الحادثة سلفاً. لم يكن رفيقاي يسايرانني في التمييز الذي أقوم به بين محايثة عالم التلاقي مع الآخرية والحاضر المتعالي الذي هو الله. إن اختبار الذات، ذلك الذي نقبل فيه كل المجازفات (تغيير الحياة أو التخلي عنها، الانقطاع كلياً لله بالعودة إلى الممارسة القويمة الرسمية والمعتقدات المقننة التي تستند إليها)، كان غريباً على صديقي اللذين

تتجسد ثقتهما بالله في العبادة، تتابع صارم لأفعال تخضع لأوامر.

مقاصدي متعددة: كتابة مؤلف وبذلك تسليط بعض الضوء على الدّين وما يسميه العلم الذي أمارسه باسم «الطقوس». لكن، كما هو الحال دائماً، يرتبط مشروعي بمعرفة كيفية الوجود. أتناول العبادات بالمشاركة فيها، من زاوية نظري. وإذا كنت أرفض الإكراه والخلاص بهذه السبل، فقد أحببت الاعتراف باللاعقلانية التي تحيط بكل قوانين العالم العقلانية. إنّ الوعي ذاته بهذه اللاعقلانية يمنعني من الانتقادات العقلانية ضد الدين الذي ألتقي رسالته. إن ارتباطي بأشكال الحياة المتكوّنة في الإسلام قد وهبني بيتي الأسطوري الوحيد. ما كان لي أبداً في الحقيقة بيتٌ غيره، رغم أن بعض البيوت . يونانية . رومانية، أو يهودية، أو مسيحية، أو بوذية، أو إفريقية، أو هندية أميركية . مألوفة لي.

الحجّاج الذين أصادفهم لا يفصحون عن أسئلة حول مقاصدهم وقناعاتهم العميقة. ولم يسألني أحدٌ قط عن مقاصدي وقناعاتي. رفيقاي على لباقة كبيرة في هذه النقطة، مطبقين القاعدة المعروفة «كل واحد ونيّته!» من هذه الناحية، لا وجود لأي كتمان مني. والتقليد الإسلامي لأدب الرحلة إلى الحج يحميني ربما من رقابة التفتيش الوهابي. كنت إذن أملأ مذكراتي في نوع من الطمأنينة.

رغم ذلك، بينما رفيقاي يعتقدان تطبيق عقائد وإجابات، فأنا في بحث عن استيضاحات حول الروابط الممكنة بين تعليل الأفعال الدينية وتعليل الأفعال التي تصاحبها وتجعلها ممكنة في المعيش اليومي. مهما كانت المجازفات التي أتصدى لها بارتهان وجودي بوجود المتعبّدين بحثاً عن الخلاص الأبدي، لا أستطيع تقليص المسافة التي تفصلني عنهم. على مستوى المعرفة، وجودي معهم يجد له تبريراً. لكن وحدة الشعور المعروضة عليّ والتي أقبلها بإحساس أن ذاك بيتي على أي حال، ليس بيدي منفذ مشروع حقاً إليها. إنني أنجرف بدون صفة.

الفصل الثامن

الأرشيف المنبوذ

الإسلام، بيتي. بأيّ معنى يُخوِّل لي تبني ذلك؟ كان، ولا يزال، الحضن الغاذي والأصل الذي صار، مع الزمن، الملجأ الوحيد. منذ سنوات، أخذت بعض النفوس الحقودة، من الشرق والغرب، تعيد بعث تعارض منسيّ منذ زمن طويل: «دار الإسلام» دار الحرب». ما علمت بهذه المواجهة إلا متأخراً. بعض رجال الدين يذكرونها أحياناً دون الإيمان بها حقاً. شيء عتيق رث. طوال حياتي وأنا تلميذ في عهد الاستعمار، وفي الثانوية، لم يكد «يتحرر من الاستعمار»، لم أسمعه قط من أساتذتي في العربية أو التربية الدينية، ولا في كلية الآداب بالرباط حيث تابعت دراستي العليا. أين إذن صادفت هذا التعارض الذائع الصيت الذي يتظاهر البعض باعتقاده أبدياً، وهوساً رهيباً سكن ضمائر المسلمين؟ كان ذلك في أوروبا وخصوصاً، في ما بعد، في الولايات المتحدة حيث أذاع عنه استشراق ذو مصادرات مشتبه فيها ـ تأويلات متعسفة.. دار الإسلام تقيم الحرب على الأرض الأوروبية والأميركية! كل الأمم الإسلامية على الأرض، وهي حديثة العهد بالخروج من نير الاحتلال، دون قدرة عسكرية على مواجهة القوى الأوروبية . الأميركية المفرطة في التسلح، ومنذ سنوات ١٩٦٠ . ١٩٧٠، كل العواصم الكبرى للشرق الأوسط على مرمى الصواريخ الإسرائيلية، لا حول ولا قوة لها، عاجزة عن تحقيق أي إنصاف للشعب الفلسطيني (المسلم والمسيحي) المغصوب باستعمار من نوع غير مسبوق...

أعود إلى المغرب أكثر ما يمكن، كي أنسى قليلاً عنف الحروب وهياج

وسائل الإعلام والدعايات. وكلما زرت ما تبقى من قريتي، أصادف الإسلام، بيتي. السهل الممتد على مرمى البصر حول مجموعات متباعدة من بيوت واطئة من التراب المدكوك. سدرات عجراء تحمي بظلها النحيف بعض الدواب. الآبار التي تستخدم في الصباح الباكر أو وقت العصر حين ترد قطعان الأغنام لترتوي. ووقت المغرب، عند الأذان، الواضح والوديع، يحمله بعيداً الهواء اللطيف. سياج واطئ يحيط بحجرة متواضعة: المسجد. كم تذوّقت هنا، كما في مواضع أخرى، على سفوح ذرى الأطلس، في السهول الأطلسية، في الساحل التونسي، في دلتا النيل، في أراضي الهلال الخصيب وواحاته، في ظل مساجد مراكش، أو تونس، أو الهفوف الشيعية، وداعة الإسلام هذه... أجد علامات ودية عنها حتى في قلب مدن الصفيح، وأحياناً في الحداثة دون روح لمدننا. أحتفظ بأمل العثور عليها يوماً في حياة على مقاسنا.

منذ عهد بعيد جداً، منذ سقوط غرناطة، هذه الجهة من الإسلام تدافع بالأحرى عن نمط للحياة يتوقف عند السواحل. وقد جرت العادة بتسمية المواضع الصالحة لرسو السفن «ثغوراً»، ومنذ قرنين كاملين من الزمن، إن لم يكن أكثر، صار الموقف دفاعياً. هذا النمط من العيش له مأزقه. أشكال شرسة من التقليدية المحافظة، منكفئة على أنماط من السلطة والامتيازات، التي قد حوّلت نهائياً الإلهام النبوي إلى «كلام الله» والقرآن إلى مخزن للاستشهادات إن لم يكن إلى صندوق للأدوات. أوامر قديمة حول النساء، وغير المسلمين، والردّة، والخمر، وجدت نفسها مخصوصة بوضعية «قوانين إلهية». لم يكن مع ذلك سجناً، بل عالماً، قادراً على أعظم أشكال السعادة. حافظت فنونه على قوتها، وظلّت شعوبه ذات حساسية بالتقسيمات، ومساراته الصوفية خارقة للمعتاد. وقد أظهر وهم إرثٍ سياسي للنبي الإخفاقات التي يؤدي إليها منذ البداية، لكن إلهام المنطلق ظل حياً ولا يزال يغذي أشكال تقليد القديم التي تتحدى أنواع الاستبداد. وداعة الإسلام هذه لا تزال توجد دائماً في الحياة اليومية وتشرخ التسلّطيات الاستعمارية وكذا صياغتها التي نعيشها اليوم. أصوات الحقد، الآتية من الغرب والشرق، تحاول حجبها

بصخبها. لكنها لا تحتجب.

بقدر ما أتقدم في السن . أو أتقهقر، لأن الموت دائماً في البدء .، يعود هذا البيت إلي بقدر ما أعود إليه. كلما تناءيت عن اللغات الدينية للحداثة، ولعناتها الخالية من الشهادة، استمددت من ذلك البيت قوى المكابدة. لذا صار مضاعف الأسطورية. أعاشر فيه شخصيات معروفة تماماً، أدخل معها بشكل طبيعي جداً في حديث، أو خصام، أو قطيعة. يهمّني إلى أقصى درجة أن يتوقفوا عند الذي أقول لهم، حتى أصرخ لهم باعتراضاتي، وشكوكي، وارتياباتي. كنت حراً في أن أدعوهم في كل لحظة، وأجالسهم لاستئناف الكلام. عندنا حكايات مشتركة منذ طفولتنا لما كنت أصغر سناً . وهم أيضاً بالطبع . لم يكن خلو بالهم وبراءتهم يقلان عن خلو بالي وبراءتي. والآن، بعد تجاوز الخمسين، نفاجأ بكوننا أكثر فأكثر جدية، مع نكهة من السخرية. لما علمت، دون شاهد ودون أن يكون لموت الآخرين أي علاقة، أن نهايتي هنا، تلقيتها لأرتبها بين ممتلكاتي. طالب الله مرات عديدة بالحياة التي أعطانيها، بحدة شديدة... اخترت أن أتجاهل إلحاحه وأستسلم لحياتي.

لم أكد أرفض شيئاً ليهوه، ولا لعيسى، في الأقانيم الثلاثة التي نُسبت إليه. قرأت أخبارهما وأصغيت إلى صوتيهما. لكننا لم نكبر معاً. يهوه وعيسى كانا لزمن طويل جارين لي. الأول، طاعن في السن، بلحية وحاجبين غزيرين، كان قريباً جداً. لكنه، بتكتمه الدائم، لم يغادر حيه قط. وفي تجسيدي الصبوي، لم يكن عيسى يستحق الآلام التي عاناها. تعرض كنيسة استعمارية في ما مضى شهيدها، على قمم الصلبان، في مدننا وقرانا. يسكن، مثل الله ويهوه، في عدد كبير من البيوت. بيوته كثيراً ما تكون ذات سطح محدّب، مغطى بقرميد أحمر. ذات أبراج وأجراس تُقرع بانتظام، خصوصاً يوم الأحد. يهوه والله، من جهتهما، يفضّلان بيوتاً مثل بيوتنا، بسطوح مستوية. بيوت يهوه كانت أصغر وأوطأ من الأخريات. مسقوفة كلياً في حين أن بيوت الله كبيرة، ذات أفنية. من مآذنها المشرفة صوب جميع المناظر، يدوي صوت الأذان خمس مرات في اليوم وفي آخر الليل.

أما آلهة اليونان، فهي كذلك مألوفة لي. لقد احتفظوا لأنفسهم، على

حساب البشر، بالعطور وأجود الطعام، وآثروا أشكال الإفراط المدمرة والعودة المتكررة، والجمال والفراغ الخالدين. وتركوا لأتباعهم الأغلال وتظاهروا بالغفلة ليتمكن آكلو اللحوم هؤلاء أن يسرقوا معهم قليلاً من النار ليطبخوا. وفي الواقع، تخلوا عن اليونانيين، خدّامهم، تركوهم إلى مصيرهم المأسوي، إذ في الحقيقة لم يكونوا يستطيعون شيئاً. تلك الآلهة لم تكن تتكلم بتاتاً؛ لهم فقط القدرة على الإشارة إلى بعض ردود الوحي الإلهي. كان بعض القدماء يروون سيرتهم وكذا معاملاتهم مع البشر بواسطة الصورة.

يهوه لم يطلب مني شيئاً، فضلاً عن أنه لا عقد له إلا مع قومه. آلهة اليونان لم تكلمني ولغة حكاياتهم أجهلها. عيسى يعرض عي حبّه، لكنني لم أفهم لماذا ذهب بحبه إلى هذا الحد. أولئك الذين دوّنوا الأناجيل لديهم ربما بعض الأسباب ليؤكدوا أن آلامه بلغت حتى تلك النهايات.

المعاشرة المواظبة لمجامع الآلهة هذه قرّبتها إليّ كثيراً. صار قاطنوها مثل أعمام وأخوال، أو أصدقاء قدامى. أحبّهم، وأحرص على حضورهم. يُعيونني، لكني لا أستطيع الاستسلام لحججهم، وطريقة عيشهم لا يمكن أن تكون طريقتي. هم متمكنون من مواقعهم، يقضون حياة مريحة بين أثاث من ذوق رفيع. كنت أقبل دعوتهم، غير أني لم أستطع الإحساس بالارتياح إلا في بيتي، الذي كان بيت الله.

إذا احتفظت بحياتي لنفسي وللآخرين، فذلك لأني دخلت إليها دون أن يكون ذلك من قراري. أدركت ذلك بالتدريج، بقدر ما قبلت المعاناة واللايقين اللازمين لتأويل إرادتي. خيالي جدَّ في ذلك قبل العقل والحرية. وبتدقيق القول، لم أعرف لا هذه ولا ذاك في المدرسة الاستعمارية. تعلمت فيها بالأحرى الاستعمال الشامل لكليهما، خصوصاً حرية الخطأ والبدء من جديد، ضد الوصفات الجاهزة. تلك المدرسة كانت تصنعنا صنعاً جديداً. توضع حدود للمعارف التي لنا الحق فيها، لكن كانت تُطرح فيها الإيديولوجيا المغرية للمعرفة دون حدود. هذه المعرفة التي ليست لا معرفة الوحي، ولا معرفة العقل، كانت طريقاً ممكنة لرفض الوضع الاستعماري نفسه. وكان متصوراً، ضد كل المعقوليات العاقلة، تبني فكرة مواصلة الطريق دونما حدود

سوى التي يأتي بها الحديث والإبداع. أتذكّر حياة دون إكراه حتى المراهقة، أو بالأحرى حياة حيث الإكراهات لم تكن سلباً للحرية. لكن ما أن شرعت في تصوّر طرق أخرى للعيش، حتى أخذت بعض القواعد التي كانت توجه في السابق أفعالي تتحول إلى عقبات. كانت توجد دون شك، منذ بعيد قبل الانقلاب الاستعماري، سياقات ولحظات مماثلة لتلك التي أحياها. غير أني ولدت أثناء هذه الانقلابات. وكانت سياقات جديدة تسلبني حريتي.

أن أنفذ إلى حياتي، أن أتقبّل لسعات إرادتي، كان مرادفاً لإحساس بتعددية الأنا. حقاً كنت متعلقاً بالشعائر الإسلامية (الصلاة، الصيام، الشهادة، إلخ)، لكن لا بممارستها المنتظمة. فذلك عندي أدنى أهمية من سر الأمر الديني، ويمسّني أدنى من نظام العالم الذي يطالب بها دون أي تبرير. الرابط بين تعددية مظاهر هذا العالم وأوامر الدين لم يكن شيئاً سوى الإرادة. بُذلت جهود ضخمة، عبر القرون، لإيجاد تبريرات و«أسرار» لهذه الشعائر، كما فعل مثلاً الغزالي. وأكثر قرباً منا في الزمن، أخذ البعض يرى في الحج مؤتمراً سنوياً كبيراً للإسلام، وفي الصلاة رياضة! لا شيء من هذا يصمد لبداهة المحسوس. الأمر الديني ينبغي أن تستجيب له الثقة، واليقين، والإيمان. الرابط الوحيد: الخلاص. والسعادة التي يحققها نمط الحياة بتشكله وفق هذه البداهة يُنبئ بهذه الخاتمة المرغوبة. يحدث ذلك «باسم الله» وبفضل هذا الاسم، الذي هو السر المكشوف للناس.

بين الديانات التوحيدية الثلاث المتولدة في اللغات السامية للشرق الأوسط، من اليسير تمييز تشابهات وتحويلات، وأيضاً من اليسير تمييز قطائع وتعارضات. وأن يكون الإسلام في عباداته قد دعا في المقام الأول إلى الأمة المتضامنة، فذلك فوق كل شك، إضافة إلى كون المؤمنين مأمورين به صراحة. إنه وعي جماعي في تكوّن مستمر بفضل تلك الممارسات وليس العكس، إذا ما قبلنا التسليم بأن الوعي يعني كون الجميع في الطريق إلى ما وراء تجميعات للحقوق والسلطات، وأن الأمر في الجملة يتعلق بإجماع في الفعل. شهادة تكون قبل وبعد تنصيصات المشرّع، أو محاضر كاتب الضبط.

يطرح باسكال قضيّتين أثارتا دائماً اهتمامي، لكنهما تتكشفان في النهاية

عن استحالة التوفيق بينهما. من جهة، القلب يُملي، والعقل إمّا ينصاع وإما يتنازل. ومن جهة أخرى، يتخذ العقل، في آخر الأمر، سبيل المراهنة. المراهنة على وجود الله رابحة دائماً والقرار المتخذ عقلاني، رغم دوام المجهول. مشكلتي مختلفة. أعلم أنني قد تلقيت حياتي من إرادة للحياة. أعلم أيضاً أن أمّتي قد ساقتني نحو إرادة الحياة هذه. وأعلم أخيراً أن كينونتي، كسائر الكينونات، موجودة في ما وراء وجودها، بالحواس، باللغة، بالحلم، بالشهوة، بالحاجة، بالرغبة... والقائمة طويلة. المراهنة بين حدّين لم تكن ترضيني. كففت ببساطة عن المراهنة. صرت على نحو ما كما كنت قبل أن أقرأ باسكال، لكن، هذه المرة، ضحية خوف من أن تأتي قوة خفية لمعاقبتي على الفور، بتهمة إرادة استنفاد طاقات حياتي بنفسي؛ بتهمة أنني لست متيقناً من أي شيء وغير مستطيع استبعاد أي شيء.

هذا القلق، الذي تلاشى بالتدريج خلال سنوات، أحسست به يعود في المدينة. ويبلغ الذروة في مكة. وشوك عقاب، وكارثة تنبثق فجأة لتهوي عليّ لم تعد تفارقني. تعذّبني لأنها أكثر من تصور. تشلّني، وتُرعشني. يقتحمني الاستيهام أحياناً في عز السجود. هشاشتي لا شك صادرة عن وحدة قصوى داخل جمهور يثبت إيمانه (على الأقل في الظاهر) بينما أنا فقط كأنني «في بيتي» ممارساً الكل كمهنة، وكلغة، منفتحاً على السر: إرادة حياتي، إرادتي في الحياة. أباشر وأؤدي العبادات باحترام. وهي تربطني بالآخرين، بكل الآخرين. لكن، لمّا كنت في الوقت ذاته في موضع آخر، في ما وراء ذاتي الذي لم يكن كثيرون ليقبلوه، والذي كان من شأنه أن يبعث العداء، أو القمع، أو القتل... أحسست بالعزلة أمام محافل العقاب ينوب بعضها عن بعض إلى ما لا نهاية (الأمّة، الأب، اسم الأب، باسم الأب...).

خلال الاثني عشر يوماً التي قضيتها خارج الإحرام، في مكة، بحثت عن لحظات هدوء. كنت مثل الآخرين، لا أنام كثيراً، وكنت أكثر منهم عُرضة للأرق. أرهق نفسي لأكون حاضراً في الحياة المكية، «في جوار بيت الله». وبالنسبة إلى أشخاص عديدين، تلك هي السعادة: «تنسى كل شيء» يقولون لي. سمعت هذه الجملة قبل السفر، من عدة أشخاص كانوا قد قاموا بهذا

السفر: من مهدي، ديبلوماسي إيراني، من أسرة متنفذة من الملاّ، من فاتا، طالبة في الدكتوراه بجامعة برنستون، من أصل أندونيسي؛ من موح وباجّو، صديقين قريبين من بين أصدقائي بغيغاية في غرب الأطلس الكبير. كثيراً ما يتم التأكيد على هذا النسيان الجذري في رحلات الحج التي قرأتها قبل سفري. ما عدا بعض الاستثناءات، أهمّها ربما رحلة الإيراني علي أحمد. وتزداد الدهشة من أنّ البعض يتحدّث عن «الراحة» والسكينة.

ذاك أيضاً ما يقوله سي العربي؛ رجل متفقه في العلوم الدينية، قد درَّس في مسجد بمنطقة الرباط، قبل أن يحترف التجارة. التقيته في اليوم الثاني من مقامنا بمكة. يوم الأحد (السادس والعشرين من ذي القعدة ١٤١٩، الموافق الرابع عشر من آذار/مارس ١٩٩٩). متأنق اللباس في جلابيته البيضاء وعمامته، التي استعادها بعد أن ترك الإحرام. سيره مضطرب، ينم عن التعب، وقسمات وجهه، التي تبرزها لحية مقصوصة بعناية، يبدو مهزولاً. لاحظ تعجبي من أن الحج راحة وسعادة. وقلت له إنه هو نفسه قد فقد كثيراً من وزنه. اكتفى بنصحي أن «أثبّت» إيماني، وأكّد لي أنني إن توفّقت في ذلك فسيتغيّر كل شيء.

كان، مثل صديقي لحسن، قد صفّى ديونه، وضاعف من العبادة، ونظّم حفل الوداع، وطلب المسامحة من الوالدين وأهل الحي. وتأكد سي العربي من قطع كل صلة له بالخطيئة. ترك زوجته التقية تحت حراسة أخيه. «اليوم أفضل. قديماً، لما كان السفر يدوم شهوراً أو أعواماً، كان يلزم الطلاق ثم الزواج ثانية بعد العودة... لما كان الحج يطول، تصير المرأة حرة ويمكنها أن تتزوج ثانية لتؤسّس أسرة جديدة... ينبغي للحجّاج أن يتأهّبوا لكل احتمال، للموت».

سي العربي يقيم في عمارة قريبة، في أعالي شارع أجياد. التقيته مصادفة بعد صلاة العشاء، حين غادرت المسجد متأخراً، بعد نظرة أخيرة على الطواف. انقطع حبل أحلامي برؤية الحجاج الذين يستعدون للنوم حول المسجد. بعضهم يأكل فاكهة، وآخرون يُخرجون كسرة للعشاء، وآخرون مثلجات. الحرم مُضاء مثل ملعب والحركة حركة التجمعات الكبرى. اللقاء

بسي العربي جعلني أغوص من جديد في المشهد الآخر. حول الكعبة، تستمر الدّورة، باعثة قوّتها الهادئة والقاهرة. الكعبة في الليل سفينة تُبحر كأنها قد قطعت حبالها. والإنسانية المتعلقة بالمركب تواصل رحلتها نحو مرسى معروف الاسم، لكنه في بلد غريب. سي العربي على حق: «قبل الوصول إلى هنا، ينبغي ترتيب كل شيء، واستباق الموعد مع الموت».

كما يحدث كثيراً قبل النوم، تبادل أعضاء المجموعة بعض الانطباعات. الحاج صالح . أخذنا منذئذٍ في مخاطبة بعضنا بعضاً باستعمال لقب الحاج . وافق على الصورة التي اقترحتها «السفينة المبحرة» قائلاً: «لم تخطر على بالي، لكنها ملائمة...». ودافع الحاج عباس بالأحرى عن فكرة الصلة بالجنّة وتحدث عن الحجر الأسود؛ أعاد التأكيد: «جاء من الجنة». ذكرت، مرة أخرى، النظرية القائلة إنه قد يكون نيزكاً، فاستخلص: «حتى لو كان نيزكاً، فعلم الله هو علم الله وما أوتينا من العلم إلا قليلاً»، قبل أن يضيف «يظهر أنه جاء من الجنة وكان أبيض ثم صار أسود...». أمام هذه الرواية الجديدة، ردّد أحدهم قصة شائعة، ومدونة في بعض الكتابات: «امرأة حائض لمست الحجر». توقف هنا حديثنا.

استأنفنا الرتابة: الصلاة وزيارة السوق توقّعان الأيام، رغم أن المشتريات هنا أقل. مُلئت الحقائب في المدينة، وظهرت قريش مطابقة للرأي الإجماعي الذي يصفها بأنها: «أشد جشعاً وأقل لطفاً من أهل المدينة». نسياننا للحياة اليومية في المغرب يزداد بقدر ما تنتظم الحياة المكية. وقعت مرة أخرى على سي العربي الذي وجدته يتضاعف إرهاقه. رغم أنه مسن، لم أشعر بأنه جاء هنا بأمنية أن يموت في جوار الحرم، كما يتوق إلى ذلك بعض الحجاج. كثير منهم تحققت أمنياتهم؛ الوفيات كثيرة. لا أتذكر أي صلاة من الصلوات المفروضة ليست متبوعة بالصلاة على الأموات. «الموت بجوار بيت الله، يا لها من نهاية سعيدة!». الآن، كل شيء يشير إلى أن سي العربي يتأهّب لذلك. جاء ليؤدي الفرض، ويغتسل من الذنوب «لكي يجعل الله برحمته خاتمت[ه] حسنة ويقبض روح[ه] في طاعته». وحجٌّ ناجح هو بالنسبة إليه الخطوة الحاسمة؛ أو الإشارة إلى أنّ هذه الخاتمة ممكنة.

لا أحد من رفاقي يتمنّى هذه الخاتمة؛ يرغبون فقط في الغفران. تلك مرحلة تثبّتهم في تقواهم وتؤمّنهم في الطريق المختارة. هم جميعاً شباب نسبياً، أعمارهم ما بين الثلاثين والخمسين، لهم أطفال في عز الدراسة، منهم من قد حصل على شقة، أو على فيلا. في عز سن النضج. بالنسبة إلى سي العربي، وإلى أصدقائي، وإليّ أنا، الحج مرحلة. لكن المرحلة التالية، التي تعيد بعدياً تحديد التي قد سبقتها، ليست واحدة في نظر الجميع. أحدنا لم يصفّ ديونه قبل الذهاب. كان دائنوه وهو نفسه يعلمون أن لديه كل الحظوظ ليعود سالماً. «نسيان كل شيء» هو الخلوّ من الهموم. «كل شيء معلّق... وليس إلا العبادة». الحج ختام مرحلة وانتقال إلى أخرى، طريق مرسومة وتأمين عن المستقبل. مثل حكاية نعرف مسبقاً أن نهايتها حسنة. لذا فالنسيان هو ملخّص القسم الأول في مرحلة وحيدة، هي الحجّ. أليس هو الإتمام السعيد للتاريخ الماضي؟ والاسترجاع كان بالطبع استشرافاً.

في مساري، جاء الحجّ في لحظة ليست دون أهمية. ساقتني أعمالي في الأنثروبولوجيا بشكل طبيعي إلى التفكير في الدين. وإذ تخطيت الخمسين، صرت أقل تسامحاً من قبل مع الامتثاليات التي تنتشر. ودفعني بحثي الأكاديمي نفسه نحو تساؤل متزايد الحدة حول هويّتي. فباشرت الحج كمشروع بحث، لكن أيضاً مع رهانات وجودية ليس بمقدوري تجاهلها.

أعادت تجربة الحجّ على امتداد ألياف وعيي سجلاّت متوهجة. وتكشّف استيهام العقاب الوشيك عن كونه أقل قابلية للتحكم فيه مما كنت أظن. هل سيكون لي على الأقل موت في هذه الدنيا أستطيع أن أصنع به شيئاً وأنا في انتظاره؟ نستكشف، جميعاً، بمعنى ما، السؤال نفسه. بالنسبة إليَّ، الطريق يفضي إلى باب، دون فضاءات مأهولة، ودون آهل وراءه. هذا الغياب ليس بتاتاً معرفة تجريبية منقولة. ليست لدي صورة لهذا الغياب، حتى في صمت الغابات أو اختلاجة البحور.

مساراتنا تعلن نفسها، لكن مثل جُمَلٍ، تُقال فيما هي تُنطق. ترسم انعطافاتها، تحول اتجاهها وتصل إلينا. نتلقاها بقليل أو كثير من الدهشة. تتداخل، تتصالح، تتحدّى بعضها بعضاً. تجعلنا نتيجة لذلك على إيقاع، أو

في حرج، أو تعارض، أو نزاع بعضنا مع بعض، أو تولّد اللامبالاة المتبادلة.

تدرّبنا على العيش في مجموعة، ولدينا قدرات على رد الفعل الصائب، ورد الفعل بالتأكيد على قواعد الحج. في هذه الحياة الجديدة، سرعان ما تُرِك كل واحد لذاته. هناك العبادة، والسوق، والزيارات، ووجبات الطعام، والنوم. لكن كل الباقي، مثلاً مسألة الصدق التي تهجس بي شخصياً، ينبغي أن يحتفظ به الفرد لذاته. وحول صعوبة التوفيق بين الانفصال عن الخلاص كما تقترحه المذاهب السائدة والمشاركة في دار الإسلام، لم أحصل إلا على قليل من ردود الفعل. يفضّلون تغيير الموضوع أو يكرّرون لي: «مهما بحث الإنسان، وساءل نفسه، ونسخ أفكاراً أوروبية، فإنه ينتهي بالعودة إلى طريق الإسلام». أو أيضاً: «في كل الأحوال، باب التوبة مفتوح على مصراعيه. الله يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء». ألم تكن مخاوفي تشير إلى سؤال عن الانتساب، لم يتم الخوض فيه؟ وأنا متأكد من أن إحساساً عميقاً يربطني بدار الإسلام، فإنّ طبيعة هذا الرباط تفلت مني. توجد حلقة مفقودة.

الحاج مبارك، الذي أتبادل وإياه الحديث من وقت لآخر، قال لي إنه هنا «بالمصادفة». تكفلت وزارة الصحة بنفقات حجه. يريد حقاً عبادة الله، لكنه لا يريد بالنسبة إلى الباقي أن يؤمن بشيء: الحج «مؤامرة من التجّار». الحج يتفق مع خروجه من حياة «سائق الإدارة». أولاده استقلوا بأنفسهم وهو ينوي الانعزال مع زوجته في قريته الأصلية، «بعيداً عن كل المكائد». جرى هذا يوم الاثنين، اليوم الثالث من إقامتنا في مكة. نواصل الطريق نفسه، ونتقدم نحو اللحظة الأهم في الحج. لكن كل واحد منا يكتشف نفسه بطريقة منفصلة.وبممارسة ما يعرض، لا على شكل لغز، أخذ يرتسم تشكيل ومن ثم يُظهر نواقصه.

أنهيت صلاة الصبح، عازماً على البقاء في الغرفة. لا أزال مريضاً وقواي لا تسمح لي إطلاقاً بالذهاب إلى صلاة الجماعة ظهراً. امرأتان من المجموعة، الحاجّة عائشة والحاجّة زهرة، مصابتان كذلك بالحمّى، بينما الحاجة فريدة تتأهب لمغادرة مكة إلى جدة. كنت منذ الخامسة والنصف صباحاً في الشرفة، كالعادة، أكتب يومياتي. بعد الفطور وذهاب فريدة، أطلق

الحاج عباس العنان لانتقاداته. بالنسبة إليه، فريدة «بنت عائلة؛ تتصرف كما تشاء، والان تذهب إلى جدة من أجل مشتريات باذخة». وإذا ما صدّقنا أقواله، فالمدينة المرفئية الكبيرة تغص «بثريات من البلور، وحليّ، وأقمشة ثمينة بأثمان مناسبة جداً». الحاجة فريدة تتجاهل دائماً الحاج عباس وزوجته، الحاجة زهرة. لا تكاد تخاطبهم. سفرها تتكفل به الدولة، مبدئياً لتراقب صحة الحجّاج. تعطيني حبة دواء من حين لآخر، ومرة، عالجت الحاج مبارك ورفاقه. في نظر هؤلاء هي امرأة قبل كل شيء. أرادوا العلاج مع تجنّب ملامستها. اقترحتُ عليهم مع ذلك الحديث معها مباشرة. كلهم ينتمون إلى المجموعة نفسها: الحاج مبارك، وعونان تقنيان تجمّعوا تحت سلطة الحاج معطي، وهو فلاح موسر من نواحي الرباط. كنت على معرفة جيدة بهم منذ المدينة. أخبرتني الحاجة فريدة بعد ذهابهم: «أسرتي جميعها تلتزم بالحج. من تقاليدنا أداء هذا الواجب الديني... والدي أدّاه عدة مرات!». أظن أني فهمت أن والدها قد ذهب بها للعمرة في صغرها، وأنها شديدة التبجيل له، هو المتوفّى منذ مدة...

أكّد لي الحاج عباس الخبر. ذهبت الحاجة فريدة سراً في سيارة صهر لها ذي وظيفة مهمة في جدة، داخل منظمة إسلامية عالمية. لم يكن هذا يروق الجميع. التشدّد الإسلامي والطبقية كانا على ما يبدو متحالفين في إثبات تقليد عائلي. أمام ملاحظات الحاج عباس المتكررة، امتنعنا عن كل رد فعل. «إنها لا تستطيع أن تقضي أسبوعاً كاملاً في جوار بيت الله!» ألقى بذلك في الصمت.

كان البعض ينجح في «الانسلال» من مكة. نعرف هذا. لا أحد منّا له رغبة في ذلك. صحيح أنه ليس عندنا كذلك أقارب أو أصدقاء مندمجون برفاه في حياة حاضرة البحر الأحمر هذه ومتعها الخافتة. وعلى أي حال، جُرّدنا من جميع الوثائق التي تثبت هويّتنا. فقد جمعتها الشركة المكلفة بالحج، ولن نستردّها إلا في آخر يوم، عند رحيلنا من المملكة. شرطة الحدود أخبرتنا أنها ستعيدها إلينا في المطار.

قال الحاج المعطي: «لا يزال أمامنا بعض الوقت، للذين عليهم تجديد

وضوئهم». أعطاني سيجارة مارلبورو. كان قد أفاق منذ الرابعة صباحاً ليأخذ دوره في الطابور أمام دورة المياه ـ الدوش. امتد الحديث. طلبوا مني تفاصيل عن مراحل الحج. بعضنا لاحظ جشع التجّار. قال حاج شاب، مهنته عون صحي: «المطر ينهمر على البقاع المقدسة أوراقاً بنكية!»، فواصلنا التدخين باسمين. المسائل الدينية فسحت في المجال لانشغالات أخرى. وقارن البعض المغرب بالسعودية. «بلاد سعيدة!» قالها الحاج ناصر، الوفي دائماً لسخريته الوديعة.

ثم انتقلنا إلى الموضوع الذي طال توقعه عن السر، والمؤامرات والدسائس. قال الحاج ناصر: «قد حبك الأغنياء مؤامرة للدفاع بعضهم عن بعض والاحتفاظ بكل الثروات لأنفسهم». كنا في نهاية عهد الحسن الثاني. الجميع على علم بمرض الملك، وإذا كان لا يزال دائماً موضوعاً لعاطفة عنيفة من الحب ـ الكراهية التي تستدعيها صورة الأب الشرس عديم الرحمة، فإن نظامه قد فقد كل اعتبار. الرجال الذين يحيطون بي جاؤوا من بلدتين من نواحي الرباط، ما عدا الحاج المعطي. التطور العمراني لتلك المنطقة انقلب إلى مدن صفيح وأحياء هشة نبتت في فوضى بكل مكان، ساعد عليها التلاعب بحق الأراضي. فهذه يتملكها مضاربون، وبحسب الحاج مبارك، يسلبون الفقراء، الفلاحين الذين رمت بهم الهجرة القروية هناك، على حواشي المدن. هناك تُباع بقعة الأرض دون استيضاح وضعها العقاري. والخيبات الأولى للتعساء الذين يبحثون عن مأوى. يتركون الأسرة تقيم «برّاكتها» من الخشب، والصفيح، والبلاستيك المستعمل... ثم، عاجلاً أو آجلاً، يحتاج هؤلاء الناس إلى أوراق، شهادة الإقامة، بطاقة التعريف... فيطالبهم المسؤول عن الحي بثروة، أربعة حتى خمسة آلاف درهم... معلوم أن هذا المبلغ ستتوزعه السلطات والأطر... روى لنا الحاج عباس أنه بالإمكان بيع بقعة أرض مع عقد مصادق عليه، وتوقيع السلطة، والختم الرسمي، لكن دون أن يحمل اسم المتملك، ولا التاريخ. وهكذا تنتقل الملكية من مشترٍ لآخر حتى الأخير الذي عليه أداء الضرائب وحده. لم يُخفِ الحاج عباس أنه يتعاطى هذه الممارسة: «الجميع يفعل ذلك... هذا هو،

يرحمنا الله!...» استخلص أصدقائي «أنّ المؤامرة تستشري مثل سرطان».

غير أنه لا الحاج عباس ولا هم أنفسهم يبدو عليهم أنّهم يبحثون عن وسائل أخرى للعمل. يقولون إنه ما دام لم يتحقق العدل، يُبرّر لنا «أن نفعل مثل الآخرين». وبذلك يسلم المثل الأعلى، ليتمكن كل واحد من أن يتصرف على هواه. ممارسة الرّشوة وتخطّي القوانين شائعة عند عدد من الحجّاج المغاربة الذين لا يتردّدون في شراء امتياز لدى مصالحهم الوطنية. والفضح الجماعي يؤدّي في الواقع إلى تبريرها. نحن ضحايا نظام، ولا مسؤولية لنا في ذلك. ربما وقفوا أكثر ضد تكديس الثروات المفرط واستغلال الفقر. أما تخطي القوانين فيبدو مندرجاً في ممارسة متقبّلة.

لدينا الكثير ممّا نقوله عن أسرنا الأصلية. معظمنا غادروا قراهم وبلداتهم للاستقرار في المدينة. والشكوى الشائعة هي أن الأقارب، خصوصاً الإخوة الذين «يبقون» يسلبون أولئك الذين غادروا. ومن جديدن حوالى نهاية الصبيحة، كل واحد منا تقريباً قد استطاع تمثيل نفسه في حكاية رشوة، وسلب، وعراك من أجل حقه المشروع، وشهامة: «لا بد من الرضى بذلك والصفح» تلك هي الحياة العادية بقواعدها التي ليس بالمقدور تغييرها. ومن ثمّ، فليست كلها تماماً ضد الدين. ببساطة «ليس ذلك هو الدين».

هذه الحكايات والأحاديث تقرب في ما بيننا. غادرنا جميعاً العمارة إلى صلاة الظهر. صلينا، الحاج عباس وأنا، تحت قبة نؤثرها على الخصوص. المسجد مرفأ سلام كثيراً ما أجد فيه ملجأ. اعتد، وقد أرهقتني المدينة، صخبها وجوها الحار، البقاء في الظل وفي هواء أقل فساداً بين صلاة الظهر وصلاة العشاء. رائحة الأجساد تخف بعد ساعات الازدحام الحاشد، فيمكن توافر قليل من الفضاء للتأمل، أو قراءة القرآن، أو الاستلقاء لقيلولة قصيرة. استأنفت قراءتي للقرآن في المدينة وواصلتها في مكة. ورغم العمران الكاسح واختفاء كل الآثار القديمة، فاسم هذه المدينة، وكذا المسجد والكعبة، تؤثّر في قراءتي. الحرف يرنّ في أذنيّ؛ والأوامر قاهرة، وبداهة القصص تستردّ دعواتها الاستحواذية. قصة القيامة، ذات الإيقاع الجهير، تحرك الجبال وتزحزح النجوم. والقبة تبث فيَّ صفاءها، وأصوات المصلين وحركاتهم تقدم

لي يد المعونة. لكن، ما إن أقرأ السور التي تنطق بالأوامر، والتذكير، والتهديد، حتى تأتي الكلمات، في الهدير الموقّع للمقاطع، لتصدمني تماماً.

غادرت المكان بعد الوقفة الضرورية أمام الطواف. آمل، راجفاً وسيري متعثّر، أن أترك ورائي هذه النغمة وكذا صلاة الأموات. في آخر اليوم، صلاة الموتى هذه تدعوني دائماً إلى هذا الترحال نحو الليل. ليلي أنا. أولئك الذين يموتون يتخطّون العتبة التي تظل فاغرة، تنتظر اللاحقين. بابٌ، مثل الذي كان رسّام عظيم قد خطّه، متأطراً في الليل الصافي، ينشأ كثيراً في مخيلتي. لكن، في هذه المرة، المكعّب الأسود يطرده نحو العدم. في هذه المرة، الطواف، مرئياً من أعلى، يرسم وردة بيضاء هائلة ببتلات لا تُحصى. حول المكعب، تؤكد الحياة طاقتها. والكسوة التي تغطّيه تكشف الذي يتظاهر بالاختباء وراءها: إرادة الحياة. الكسوة لا تكسو شيئاً.

تحت شارة الكعبة، التفاوتات لا تتلاشى بتاتاً. بل بالعكس تبرز للعلن وتتقوّى. كان معترفاً بها وفي الآن ذاته خاضعة لقيم التضامن والعدل. هذه الأخيرة لا تنطوي على مساواة الوضعيات. إذا كان الطواف حول الكعبة يكرّس الكرامة المتساوية للمسلمين، فهو لا يلغي لذلك تفاوتات الطبقة أو الوضع. التفاوتات متقبّلة، وفي الوقت نفسه تُخضع للدين، ولشهادته، التي تجعلها في مجال العرضي. المساواة تعبّر عن نفسها في عرضية التفاوتات هذه، لا عبر إجراءات تفرضها بواسطة تعريف عام (ومجرد) لما هو إنساني. هذا الحدس بالعرضي، أحسست به يحتد عندي وعند آخرين. هنا، الظلم الذي يهدد الكرامة مرفوض، بحزم أكثر من أي مكان آخر.

عند وصولنا إلى مكة، ساقونا نحو عمارة أولى، بعيدة عن تلك التي خصصت لنا في ما بعد، دون استشارتنا. الإرهاق، والتطواف والذهاب والإياب المتعدد لحافلتنا عبر المدينة، كل هذا أثار حركة استياء. غير أننا سرعان ما قبلنا سكنانا، وزاد من ذلك قربها من المسجد، شارع بير بليلة. نحن، على أي حال، مستعدون لقبول أي ملجأ للهروب من قفصنا المتحرك. لكن عند الاستعمال برزت نواقص البناية، كل يوم، أكثر افتضاحاً: قذارة، روائح عفنة تنبعث من المجاري المختنقة، انقطاعات الماء بسبب التزويد غير

المنتظم... في مكة، الشاحنات التي تزوّد الصهاريج تملأ الشوارع بالهدير والدخان. لم يكن لدينا كذلك ماء زمزم، النبع العجائبي الموجود قريباً من الكعبة، مما صدم الحجّاج، والقناني الكبيرة، على بسطات السلم، يعلوها الغبار.

ذات يوم، في آخر الظهيرة، صادفت في الشارع حشداً في حالة غليان، أمام العمارة. وكان الرجال الذين يعودون من الصلاة ينضمون إليه مباشرة. والغضب يتصاعد. والناس يحتجون ضد صاحب العمارة، وبعثة الحج المغربية، والمطوّف، رئيس الشركة التي تدبّرنا. هذا الأخير، رغم صفته التي تحيل على الطواف، ليس له فيّ الواقع علاقة به. إنه يستغل محتجباً المنتوج كمقاول دون وازع كبير: النقل، السكن، الطعام. صعدت إلى أصدقائي في الطابع الرابع. السلم الضيق يبعث في رهاب الانغلاق. ولا بد من المناورة مع جمهور المستعملين والالتصاق بالجدران للمرور بين الثلاجات التي تزحم البسطات الضيقة. يقول البعض: «في حال الحريق، ليحفظنا الله! سنفنى دون استثناء!». تلقاني الحاج المعطي وأصدقاؤه الذين أخبروني أن مجموعة صغيرة تحاول منذ هذا الصباح إخبار المسؤولين وأنه يتعذر العثور على مالك العمارة. في الطابق الأرضي، في القاعة العامة، كان الاضطراب في الذروة. وكان بعض الرجال مشدودين إلى الهاتف. وفي الشارع، يتعاظم التجمع على مرأى البصر. يصرخون، ويشيرون إلى أكياس الزبالة التي تتراكم عند المدخل. تحركت المظاهرة تحت أعين الشرطة السعودية. البعض يهتف بالفضيحة مقارناً حالة مسكننا المثيرة للرّثاء بمسكن الجيران الجزائريين والمصريين، الأوفر حظاً. متظاهرون يهتفون: «أنا دفعت ثلاثة ملايين! يعرفون كيف يحلقونك حتى الجلد. ويرمون بي هنا كأنني حيوان!».

موظف من البعثة المغربية، حضر إلى المكان، فحاصره الحشد على الفور. اعتلى درج المدخل، وقدم بعض التفسيرات التي لم يسمعها أحد إطلاقاً؛ غطت صوته الأصوات الصاعدة من الحشد الغاضب. كان غضباً من الممكن تلافيه لو أن هذا المستخدم اختار الاقتصاد في الكلام، ولغة الاعتراف، والترضية، والتسوية، لكن عوضاً عن ذلك، أشعل الموظف

الشاب سيجارة قبل أن يستأنف خطابه.

«الله يشعلها فيك!» هذه الصرخة، المنطلقة من الحشد، أحدثت لحظة من الصمت. ثم ذكّر أحدهم «بأننا في الحج». رغم ذلك، توالت الشتائم. من الواضح أنها لا تقصد أن مخاطبنا كان يدخن فحسب، فعدد كبير من الحجاج يفعل مثله. كان أصدقائي في الطابق الرابع، كما قلت، يقدمون لي، من وقت لآخر، سيجارة ونحن حول الشاي، وفي شارعي، والمصريون يطلقون لأنفسهم العنان في التدخين. التبغ، مثل غيره من السلع، رخيص الثمن، قليل الضرائب. غير أن الصورة أدهشتني: تشارك نار السيجارة ونار القبر، ورائحة التبغ وحنوط الجنازة. لم يكن هذا يتلاءم مع الرحمة التي نأتي للبحث عنها في «الحرم الشريف»؛ ولا كذلك مع الطواف وسعي هاجر. وفوق ذلك، نحن على بضعة أيام فقط من العودة إلى الله: في موقف عرفة.

لكنّ الواقع يفرض نفسه. انفجر العنف الكلامي كقصفة رعد، يرد على رعونة اعتُبِرت تعبيراً عن احتقار. شيء ما ينفجر يرتبط ربما بالعجز ويتجلى في الدعاء بهذا العقاب في الآخرة. غير أن الموظف، مواصلاً التدخين، يشير بذلك أنه لا يلعب تلك اللعبة. اكتفى بتكرير دعواته إلى التفاهم بين المسلمين، في جوار الحرم وقريباً جداً من اللحظة الكبرى في الحج. تغلبت عادات البيروقراطية على العادات الدينية. أليس إشعال سيجارة، بالنسبة إليه، هو الفعل الصائب؟ يفرض نفسه ربما لأنه كان منذئذٍ تصرفاً صائباً ومتوقعاً في سياق المكتب وفي إطار سلطة الإدارة. لكنه يكتسي معنى مغايراً أمام جمهور من الشعب أثناء الحج.

على أي حال، نحن في وضع بالغ الجدة. ليس لأننا لا نعرف ماذا علينا أن نفعل ولا كيف. لقد تعلمنا كل الأفعال الواجب إنجازها. تدرّبنا على ذلك، كما في المسرح، تحت إشراف مدربين انتدبتهم لهذه المهمة السلطات السياسية الدينية. لكنها المرة الأولى التي كنا فيها حقاً بجوار الحرم وسنجتاز فيها الاختبار أو نخفق. بالنسبة إليّ أنا أيضاً، كان هذا الوضع جديداً وخطيراً. كنا جميعاً مرتحلين، «ضيوف الرحمن». وهذه الصفة ينبغي أن تتجلى في أفعالنا وردود أفعالنا. قيل لنا ذلك مراراً عند تعاملنا مع الشرطة. لن يمسّنا

أحد، وفي الوقت نفسه نحن ملزمون بالتصرف وفق قواعد الضيافة الإلهية. في الرباط، علّمونا بعض هذه القواعد: لا خصام، لا عنف؛ محاولة التقارب وعدم الإلحاح على الاختلافات، تجنب الإفراط، خصوصاً الإفراط في الكلام والضحك؛ استبعاد المزاح. هذه المتطلبات معالم لعلاقاتنا. وتمنع على الخصوص الدخول في نزاع مع ناس البلد. هم «حماة البقاع المقدسة»، ونحن ضيوفهم؛ مثل سائر المسلمين. لدينا تجربة في ذلك، فهم يعرفون كيف يكونون متصلبين وأحياناً عنيفين. «ضيوف الرحمن»، ليست لنا إطلاقاً هويات أخرى. أثناء هذا، كانت المظاهرة تهدد بالتحول إلى الأسوأ. أشار واحدٌ إلى إمكانية إخطار الصحف المغربية، وهو اقتراح لم يتم الأخذ به. لا شك أن المصالح السعودية ذات خبرة طويلة في استقبال الحجاج ومراقبتهم، هؤلاء الذين، فضلاً عن ذلك، لا يترددون في «إرشاد بعضهم بعضاً إلى الطريق المستقيم». وفي عمارات عديدة، تُنسج صلات بين بعض الحجاج وأعضاء البعثة، دون حسبان المرشدين الدينيين. فبعض المجموعات متبوعة فعلاً بهؤلاء الأشخاص المعيّنين رسمياً. ليس معنا منهم أحد، لكن يوجد أشخاص يهمّهم إرشاد الآخرين، والرد على أسئلتهم، وارتجال محاضرات، إذا ما أحسّوا أحياناً بالعجز أمام تعقيد الطقوس وتنويعاتها، أو إذا ما بحثوا عن إعفاءات وحلول لحالات غير متوقعة... رغم هذه التحفظات، لم يكن بالإمكان تلافي الانفجار، الذي عرفت السلطات السعودية كيف تدبره بنجاح: صفة «ضيوف الرحمن»، المرفوعة باستمرار، قادرة على احتواء الخلافات الأشد جذرية. ولما قاربت الأزمة نهايتها، في الليل، طلب بعضٌ لبعض الغفران المتبادل والدعاء بالرحمة للرجلين المتورّطين في حادث السيجارة.

غير أن صورة شخص محترق بالسيجارة في قبره قد احتفظت عندي بكل عنفها. ربما كانت هنا فكرة تحريق الأموات. لكن ما أدهشني خصوصاً هو اجتماع كلمات «سيجارة»، و«أشعل»، و«الله»، و«القبر». في سياق هذا الشجار حيث الموظف قد أشعل فعلاً سيجارة مارلبورو، ألا يمكن للجملة أن تحيل ببساطة على النار، على جهنم؟ من الذي بلغ به الجنون إلى اعتبار أن إشعال سيجارة يوجد ضمن أشكال عقاب الله؟ هذا الأخير، بالطبع يكون

عنيفاً أحياناً: أنواع العذاب ونار أبدية للأشرار. توجد وفرة من أشكال العقاب هذه في القرآن، والحديث، والتفاسير، والمواعظ. دون الحديث عن الأدب الأخروي الذي يحدد فظاعاتها بالتفصيل.

كان التعامل الملموس الذي يقيمه الدين مع العنف مسكوتاً عنه في الغالب لمصلحة بعض التجريدات. الانتقام بالنار والدمار، والعدل بالدبوس أو السيف، تمثل العنف المصلح والمعدّل. والإهلاك بالمياه أو بالطير هي أشكال أخرى منه. لا توجد دائماً أسباب، مفهومة إنسانياً، للعنف الإلهي. في الشجار الذي عاينته، كان الله مدعواً لاستخدام ناره ضد رجل اعتُبر فعله حركة احتقار. حقاً، الألم هو الذي يعبّر عن نفسه إزاء ذلك الرجل. لكن لا إنسان بريء. إن سلطة اللعن هي سلطة بحصر المعنى. كان ماركس يعلم جيداً أن الدين ليس تابعاً للإيديولوجيا بمعنى «الإيديولوجيا الألمانية». وأنه ينغرس في وقائع الألم. لكن بين «الأفيون» والألم، كان ينسى أن الدين ليس علاجاً بديلاً.

أكان هذا يفسر تلك الإرادة الهادئة، ذلك التدرج المتجاهل لعوائق الحشود في الحج؟ أشكال التعب، وفقدان الوجهة، والتوترات، والخصومات عاجزة عن إيقاف هذا التدرج. بالنسبة إلى البعض، كما بالنسبة إليّ، فالإحساس هو إحساس بخطر وشيك. أذلك لأن منابع السلطات التي تحركنا ليست دينية دائماً؟

الفصل التاسع

البعث قبل الموت

رمينا الجمرة الأولى وذبحنا الأضحية عند رجوعنا من عرفة. جرى ذلك، كالمتوقع، صباح العاشر من ذي الحجة ١٤١٩ (السبت ٢٧ آذار/ مارس ١٩٩٩)، يوم عيد الأضحى. قبل هذا كانت معالم الزمان عندي بهتت بسبب طول الرحلة إلى منى واضطرابها. وبسبب التنقلات، والشعائر، وجَوب الأسواق والقيلولات الطويلة، اختلط الليل بالنهار، ولم أفهم الحال السيرنومية التي أنزلق إليها إلا في ما بعد، عند قراءتي ليومياتي:

«الأربعاء سابع ذي الحجة ١٤١٩/٢٥، آذار/ مارس ١٩٩٩، الساعة التاسعة والنصف مساء، جاءنا شابٌ في زيارة مفاجئة. انتصب على درج المدخل ليتوجّه إلى مجموعتنا الصغيرة أمام العمارة: «أيّها الحجاج الميامين! استعدّوا! الانطلاق نحو مِنى سيكون هذا المساء في الحادية عشرة!». وبعد أن كرر هذا الإعلان عدة مرات، قضى وقتاً طويلاً في ترديد الخبر على الرجال والنساء الداخلين والخارجين. ورفض رفضاً جازماً فكرة تعليق إعلان مكتوب على الباب. «المغاربة لا يحبّون الإعلان بالكتابة؛ يفضلون التواصل بالكلام». غادرته دونما إلحاح للاغتسال ولبس ثياب الإحرام؛ خرجت على غرار آخرين لقضاء لحظة تسلية في الشارع. أمام محلّ بائع الشاي الباكستاني، مصريون يتبرّدون وهم يدخّنون. والمفاوضات قائمة على أشدها مع الباعة المتجولين الذين يبسطون كل يوم، بعد الظهر، بضاعاتهم مباشرة على الأرض. جلست لحظة على السلم؛ ومعي قليل من كوكا لأرتوي متأملاً الهياج حول أشياء رخيصة، ومناديل، وأنسجة حريرية زهيدة، وخردوات من

كل نوع... وكالعادة، حضرت الشرطة بغتة فجمع الباعة سريعاً بضائعهم، وحزموها في صرر، ولاذوا بالفرار في اتجاه أعلى الشارع، الذي سدّه مرتفع وعر. هناك توجد دروب متعامدة وجانبية حيث يتظاهر الباعة المتجولون بالاختفاء مراقبين حركات الشرطة. وكالعادة، تكرر المشهد مرات عديدة. وغالباً ما ينجح رجال الشرطة في القبض على بعض التعساء الذين أسمعهم يتوسّلون إليهم بالمصرية، أو اليمنية، أو بلغات أخرى لا أفهمها.

تعب الناس من الانتظار، وبعد منتصف الليل، تفرّقوا، وأمضوا وقتهم في الذهاب والمجيء، يسأل بعضهم بعضاً الأسئلة نفسها: «تعرف ماذا حدث للحافلات؟ هل ستأتي؟ هل رأيت رجال الشركة؟ هل عاد الشخص صاحب الإعلان؟». ضجرت فذهبت للاستلقاء في الغرفة. ولما فتحت عيني، نحو الثالثة صباحاً، كان الناس لا يزالون في الانتظار... قصدت مخدعاً هاتفياً، على مسافة دقائق من شارعنا، لأتكلم مع زوجتي وأبنائي. على الطرف الآخر من الخط، في برنستون، حدثوني عن حبهم وتوقهم إلى عودتي للبيت. كنت، وأنا بالإحرام، في المخدع، عاجزاً عن تبليغهم واقع حالي، مكتفياً بإخبارهم عن ذهابي الوشيك إلى مِنى. بعد انتهاء المكالمة، عدت، من جديد، إلى الواقع القاسي للجشع المكي في الربح. صاح بي المستخدم: «مئة وعشرون ريالاً!». طالبت عبثاً بالفاتورة ورفضت الأداء. حينئذٍ، وكأنه يستجيب لطلبي، مس الرجل مفاتيح حاسوبه وشغّل الطابعة: حصلت بذلك على ما سمّاه «فاتورتي»... قاومت قليلاً، وهتفت به «هذا ليس عادياً»؛ فأجابني بنبرة تهديد: «برد أعصابك!». أدّيت المطلوب، وانصرفت، راجفاً من الغضب وكأنما قد أصابني العمى، اصطدمت بمجموعة من النساء ينتظرن دورهن أمام المحل. صاح صوت ورائي: «احترم النساء!». لم تواتني الشجاعة لألتفت. اضطررت إلى الابتعاد دون جواب حاملاً معي هذه الصرخة بدون وجه، ولقيت بعد قليل رفقائي أمام عمارتنا.

أخيراً سلمنا بعدم وجود حافلة، فقرّرنا، في الرابعة والنصف صباحاً من يوم الجمعة ثامن ذي الحجة، أن نذهب إلى مِنى راجلين. توقفنا للصلاة في المسجد الحرام، قبل أن نواصل طريقنا، حاملين معنا بعض المتاع في أكياس

صغيرة؛ بعدما تركنا معظم حوائجنا في الغرفة. سرنا لحظة بين الطرق السيارة، تاركين وراءنا أبواب مكة. كانت الحافلات تراوح مكانها، متراصة بعضها وراء بعض. ابتعدنا سريعاً عن هذا الجحيم، ووقعنا مصادفة على طرق أخرى. لدينا انطباع واضح بأننا في الاتجاه الصحيح، لكننا لا نعلم بالضبط أين نحن. لحقت بنا بعد لحظة حافلة صغيرة نصف عامرة، وعندما فتحت أبوابها، قفزنا نحو المقاعد الشاغرة، شعرنا بارتياح لكن دون أي فكرة عن مدة الرحلة. لم تمض سوى خمس عشرة دقيقة في الطريق، بعد اجتياز ممر جبلي ومحاذاة سلسلة من الجبال الكامدة اللون، في اتجاه الشرق، لنجد أنفسنا أمام مدخل مخيّم».

غير أننا ما فتئنا أن أُخبرنا بأنه ليس مخيمنا. طفنا ساعتين بحثاً عن المحل المخصص للمغرب. لكن لما وصلنا، علمنا أنه لم يتبقّ مكان شاغر، وأنّ مطوّفنا غير موجود. عبّر الجميع، أو تقريباً الجميع، عن الرأي نفسه: «عفونة مغربية!»... إثر هذا تكفل بنا مستخدمون سعوديون. وزّعونا إلى مجموعات وأسكنونا تحت خيام مزوّدة بالهواء المكيف، مع فصل الرجال عن النساء. نحن في الهواء الطلق، بعيداً عن الضوضاء ورائحة الوقود. هكذا غادرنا مكة للاستقرار في مِنى قبل قصد موقف عرفة، في مخيم هائل يمتد على الوادي كله وعلى المرتفعات، حول المركز الحضري الصغير ومسجده الكبير. وجهة الغرب، على مسافة قليلة من هذا المركز، يبدأ الجسر العملاق، المعلق فوق الشارع، الذي يربط الجمرات الثلاث المميزة للمواضع حيث، بحسب التقليد الإسلامي، ظهر الشيطان لإسماعيل. الجسر يضاعف فضاء الوصول ويسهّل تنقّل الحشود أثناء الرجم. وإذ كنت قد تعرفت إلى الأماكن بضعة أيام قبل ذلك، فمن السهل علي تعيين الفضاءات الرئيسية للشعائر. ورغم بساطة هذه المدينة المصمّمة بشكل زوايا قائمة على طول طرق السيارات، كان الحجاج يضلّون طريقهم بانتظام. لقد ضعفت عندهم، كما عندي، معالمهم المكانية الزمانية. ولنقص النوم دور كبير في ذلك. والقيلولات الطويلة، التي تعوّض النشاط الليلي، تزيد في الخلط بين النهار والليل. رجال ونساء يخوضون بانتظام في طرق تبعدهم عن المخيمات. يعثرون

عليهم في الصحراء، أو في مراكز سكنية أخرى. لذا نحاول البقاء في مجموعة للتعاون وتجنّب التيه.

لا يمكننا الاعتماد على عون الشركة المكلفة بحجّنا. صاحبها، المغربي المستقر منذ زمن طويل في البلد، محتجب دائماً. لقد أدّينا خدماته ثمناً مرتفعاً؛ وهو يكتفي بأن يبعث لنا بمستخدميه. هؤلاء يأتون في الساعات الأقل توقّعاً ويهربون ما إن يطرح الحجاج مشكلة أو يطالبون باحترام عقد السفر. وبعد أن صرنا لا نكاد ننتظر شيئاً، لا من هذه الشركة ولا من موظفينا في «الشؤون الإسلامية»، استسلمنا في ذلك اليوم إلى النوم حتى نهاية الصبيحة. لمّا أفقت، احتاجت أذنيّ إلى وقت للتعرف إلى صوت مكيّفات الهواء وصوت الهيلكوبترات. الأمن وأخطار الحريق تفسّر دون شك هذه الدوريات المنتظمة، في تنسيق مع تحركات الشرطة، والحرس، ورجال الإطفاء على الأرض. فالدولة السعودية تعدّ من مزاياها أمام الأمة الحفاظ على السلم والأمن أثناء الحج. إلى جانب مخيمنا، توجد مخيمات مصر، والجزائر، والسودان وهلمّ جرّاً. كل أمة تحصل على فضائها بمدخله المنفصل. مخيّمنا، على غرار المخيمات الأخرى، محميّ بسياجات عالية من الحديد المطروق والمدخل كان محروساً.

خرجت باحثاً عن فطور لم توفره لنا الشركة. سرت في الشارع فوصلت إلى ساحة صغيرة مكتظة بالبشر حيث توجد متاجر ومقاهٍ. أحضر لي باكستانيون شاياً وقليلاً من الخبز. اشتريت كذلك دجاجتي المشوية قبل أن أعود تحت الخيمة. الشمس عالية وأشعّتها تخترق القماش، فاضطررت للاحتماء تحت شمسيتي. وبيما أنا آكل، جعل أحدهم ستاراً مرتجلاً بين الرجال والنساء. عبّرت لجاري عن تعجّبي. فجاء جوابه سريعاً والنبرة لا تشجّع على النقاش: «الإحرام لا يستر تماماً عورة الرجال!». تبادلنا نظرة؛ واصلت طعامي بينما ابتعد الرجل قليلاً لأداء الصلاة.

يبدو لي بوضوح متزايد أن مسائل العري، واللباس، والتواضع هذه، التي يتفننون في تقنينها، تظل دائماً معلقة. قديماً، كان اللباس يغطي كلياً جسد الرجل كما يغطي جسد المرأة. مع الاختلافات الجوهرية في أن الرجال لم

يكونوا ملزمين بالقاعدة الإضافية للحجاب. واليوم، في العربية السعودية، يستتر الرجال دائماً، والنساء كذلك. وهنّ مستبعدات عن الفضاءات العمومية، يقضين معظم وقتهن في بيت الأسرة. وإذا ما اشتغلن في مهنة، فهنّ يمارسنها باحترام فصل صارم عن الرجال. في بلدي، يرتدي غالبية الرجال وشطر كبير من النساء الزي الأوروبي. والحال أن هذا الأخير يبرز أشكال الجسد ويترك الشعر مكشوفاً. ومسألة اتصال الجنسين تبقى مفتوحة بطريقتين تؤجج إحداهما الأخرى. فالاتصال يهدد دائماً بالتخطي نحو الإغراء والجنس. والخطر معروف وقديم. لكنه صار أكثر مباشرة. فإذا كان اللباس والحجب الجزئي أو الكلي في البيت يجعلانه في القديم على مسافة أكبر ويطقسان الانتهاكات، فإن أشكالاً من النشاطات الجديدة، وكذا تحولات اللباس، تجعل اليوم الرجال والنساء على اتصال في كل لحظة. اتصال لم تتعلم مجتمعاتنا بعد تطقيسه، أي جعله مألوفاً. ومن ثم فإن الرجال، والنساء في أكثر الأحيان، لا يتخلون عن احتراسهم، لأنه لا بد من مواجهة كل خطر، في غياب أية وساطة.

مهما كان الفصل بين الجنسين قديماً، فهو لم يكن قط شاملاً. وعلى الخصوص، فإن الهجاس واليقظة غير المعهودة التي يولّدها في بعض البلدان وبعض الأوساط يشكلان حدثاً جديداً. في المدينة، وفي مكة، كما في هذه الصبيحة الأولى بمنى، اختفت تماماً التسويات والتدابير المؤقتة التي تعودتها. يتم اللجوء إلى العبادة الكلية لله لإقامة الفصل الكلي بين الجنسين. غير أنه لما لم يكن الخطر قد زال مع ذلك، يجري باستمرار التذكير بالأمر. وعلى الحياة اليومية والحياة الدينية الامتثال له وكأن كل توانٍ، مهما كان ضئيلاً، يمكن أن يؤذن بنهاية النظام. وفي هذا السياق الذي يعتمل بهُجاس تحول عسير على التحكم فيه، يتجلّى لي الدين بوجه آخر: قدسنة ردودٍ وجدها البشر ضد الأخطار المرتبطة بالغرائز الحيوية، منابع للاستمرارية لكن أيضاً للأخطار والمواجهات الضارية. لم أجد تفسيراً آخر للأشكال الخاصة التي اتخذتها هذه الردود في المنظومة الأخلاقية الدينية التي آلت إليها المجتمعات العربية تحت الإسلام.

بواسطة نوع من الاستلهام المشترك بين جميع الأساطير المؤسّسة، كانت

علاقة الجنسين دائماً تحت حراسة جيدة. وبحسّ لا يخطئ، عثرت النبوة المحمدية على الثلم العميق الذي تحفره دائماً المجتمعات البشرية من أجل دوامها وتفتحها. فتم تفضيل فعل الوصل، وبالتالي فعل الفصل، على كل الأفعال الأخرى. ورسالة الإسلام منحته صيغة دقيقة، ولم ينفكّ الفقهاء عن أن يكونوا حماته الغيورين. غير أن حدس الرسول هذا الذي لا يخطئ، إذا كان يُراد له أن يكون دائماً موثوقاً به ومستمراً، ينبغي أن يعود إلى حقله الخاص: صدق الدعوة وأصالتها، يشهد عليهما التحوّل الذي أثاراه في حياة محمد بن عبدالله، وفي الحيوات ـ المعدودة بالمعايير ـ التي جاءت تجربته واستلهامه لتقلبها. وإعادة تحديد موقع العصمة من الخطأ هذه حسب هذا المعيار تكمن، منذئذٍ، في الاعتراف بأن الملكات الأخرى للنبي، ولجميع الأنبياء، ملكات بشرية؛ وأنها إذن قد وهبت نعمها للجنس البشري في حدود آفاق تاريخية، وتوترات داخلية وخارجية، وتبادل مع الموروث الديني للشعوب الأخرى. ومن بين هذه الأخيرة، عديدة هي تلك التي اعترفت بأنبياء لها، حتى لو تجاهلهم أنبياء التوحيد في الشرق الأدنى أو أنكروا صحة دعوتهم. فكل أولئك الذين ذهبوا إلى نبع الحياة حملوا منه كلمة جديدة جذرياً أذاعوها. إن نعمة النبوة، في كل الأحوال، قد تعايشت مع ملكات التفكير، والحب والكف عن الحب، والمضاجعة، والإنجاب، والعمل من أجل الكسب... وباختصار، مع جميع هذه الملكات وهذه المشروعات التي تظل بشرية دائماً.

الوضع الجديد الذي هيأه الإسلام للنساء قد قطع مع بعض عادات ما قبل الإسلام. فاعترف لهنّ صراحة بالحقّ في الملكية متميزاً عن حق الأب أو الزوج أو الأخ. وضمن لهنّ السكن والطعام واللباس والرعاية بجعل ذلك كله على نفقة الزوج. وبالمقابل لم يجعل لهنّ في الإرث سوى نصف نصيب الأخ الذكر. وألغى تعدد الأزواج وجعل بوضوح قدرتهنّ الإنجابية تحت سلطة الزوج وأقاربه الذكور. وأخيراً حصر مسؤوليتهن الشرعية بنقل حقوقهن بالوكالة الإلزامية الموضوعة في يد الزوج والأهل. والنتيجة هي احتكار المجموعة العائلية والنسبية للإنجاب والحب، محمياً بالعنف الذي أوكلت

ممارسته للرجال. في هذا الوضع، انفتحت إمكانية أن يسند للمرأة دور تهديد مفترض من الخارج للمجموعة، وإكسابها قناع الآخرية. وفيهن وُظّفت قيم مركزية للتمييز بالنسبة إلى الآخرين: يهود ومسيحيين ووثنيين أولاً، وبالطبع كل الذين كانوا آخرين بالنسبة إلى الحلقة التي يشكلها الأقارب من بين المسلمين. باختصار، وللتبسيط، جميع أولئك الذين ليسوا من المحارم. وهكذا صارت النساء رمز التمييز بين الذات (المسلمين) والآخرين (غير المسلمين). ولغة التمييز، وهي لغة سلطة، ربما قد أثبتت سريعاً فعاليتها في مجال الهيمنة. فالمسلمون مدعوون للوحدة تحت راية قوى تفخر بالدفاع عن عقيدتهم التي تحوّلت إلى هويّة عامة؛ وغير المسلمين في مكانهم تحت سلطة هذه القوة نفسها. وهكذا فتحت الرّسالة السبيل لتنظيم للحياة اليومية عرف نجاحات لكنه، مثل أي تنظيم، سيتبع تطوراته الخاصة ويصادف إبداعات إنسانية أخرى. وهذا الأمر، على خلاف السبيل الآخر الذي فتحته الرسالة، قد فتح سبيل عودة الدفق الميتافزيقي، الذي يستمر في الإيحاء للحيوات البشرية بإحساس أنها أكثر من ذواتها. وفي اقتران الإثنين، وفي جعل هذا المصدر الثاني للإلهام تحت الوصاية، جرى تحول الديني إلى سلطة للاضطهاد.

تحت خيام منى، يبدو هذا الاقتران للوجود بأشكال خاصة. الأدعية والقراءات تصعد من كل جهة. وتتواصل بصلاة الظهر. تقدم لإمامة هذه الصلاة دون استئذان تقنيٌّ شاب متحمس. رجل صامت متحفظ، مصحوب بزوجته التي يراقب باستمرار استقامة سلوكها. عرفته جيداً في زمن مضى، في مقر عمله. وهو يبذل في ممارسته لدينه القدر نفسه من الطاقة الذي يبذله في البحث عن الربح، غير متردد في فتح حضانة للأطفال في العمارة التي يقطن فيها، في انتهاك للقوانين البلدية. في الرباط، ينتمي إلى شبكة من الدعاة المتكتمين والنشيطين، متكوّنة من مهندسين وطلاب وموظفين. ولم يفتأ تأثير هذا السديم عن التعاظم منذ السبعينيات، جامعاً بين العبادة والنضالية والمصالح الدنيوية، يسند دون كلال الترقيات المهنية والفوز بمراكز السلطة. نحن إذن بضع عشرات للصلاة وراء هذا الرجل الذي كان تعليمه الديني

بدائياً. والجماعة التي استأثر بها بهذه الطريقة يبلغ سنها، باستثناء رجل في الستّين، حوالى الأربعين والبعض منا على الأقل، أكثر تقدماً من إمامنا المرتجل في ما يخص الخبرة العلمية والدينية.

صلاتنا مختصرة، إذ إن الصلاة ذات الأربع ركعات تُختصر في منى وعرفات إلى اثنتين. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية لما دعينا إلى الغداء. ذهبنا للإصطفاف في طابور أمام شباك كبير. قدم مستخدمو الشركة لكل واحد طبقاً مرتباً على طريقة الوجبات في الطائرة. لدينا لحم بخضر، وخبز، وماء، وتحلية. لا شيء ينقص، حتى الأبزار والملح في كيس صغير، والكيتشب، ولتنظيف الأصابع كلينكس معطر. حصلت لحظة من التردد أمام هذا الكلينكس. طرح السؤال لمعرفة ما إذا كان العطر خفيفاً أو سينفذ من البشرة، وفي هذه الحال فهو حرام...

القراءات، والصلاة، والأدعية استنفدت ما تبقى لنا من قوى بعد الرحلة الليلية التي قمنا بها للوصول إلى هنا. وسرعان ما استسلمنا للنوم. ترحابٌ بلحظة من الراحة والهدوء في الحر، وفي انتظار صلاة العصر. ضوضاء الحركة المستمرة جذبتني من النوم عند حلول الصلاة. نهضت وقصدت المراحيض والدوش لتجديد وضوئي، مغطياً رأسي بطرف من لباس الإحرام. استوقفني أحدهم: «يجب كشف الرأس في حال الإحرام!».

عدت إلى موضعي تحت الخيمة بعد الوضوء ودوّنت بعجلة أحداث اليوم. التفت نحوي شخص وسألني إن كنت في حال طهارة. توقفت عن كتابتي لأردّ عليه بأن يهتمّ بوضوئه ولا يهتم بوضوئي. لم يقتنع ولفت نظري إلى أنه قد ذكرني بهذا الواجب لأن ميعاد الصلاة يقترب. ثم تدخل جارٌ آخر ليخبر مخاطبي بأنني قد توضّأت وصليت ركعتين قبل الجلوس للكتابة. أثناء هذا، عاد النشاط إلى المخيم، وارتفعت تلاوة القرآن من كل مكان، وكذا الأدعية والتضرعات. ولما أذّنت أصوات شابة وقوية، قمنا صفوفاً وراء الإمام الذي لم يكن سوى التقني، يساعده هذه المرة عباس، الصّانع الحرفي، رفيقي في المجموعة. جعلنا هذا الأخير ننتظر لأنه، كما قال: «لم يلتحق واحد بعد بالجماعة...». ذلك الواحد هو التقني السامي المرافق لنا، الذي

عليه الخضوع هكذا لأمر مرؤوسيه (إذ إن الرجال الثلاثة يعملون في المؤسسة نفسها ويتعارفون منذ وقت طويل). بدأت الصلاة بالتفتيش المسبق الذي قام به المعاون للتأكد من تسوية الصفوف وأنّ النساء دون استثناء وراء الرجال.

غادرت المخيم بعد هذه الصلاة بصحبة بعض الرجال، ومشينا في شوارع فسيحة تغصّ بالمارة: رجال بلباس الإحرام، ونساء في زي عادي، أبيض. نظام التمييز مذكر/مؤنث حاضر دائماً، لكن التنقل، والبيع والشراء، والتنزه تجبره على أن يصير أكثر مرونة. اشترينا شاياً وماءً قبل العودة إلى المخيم. آلاف من الحجاج، خصوصاً، الآتين من إفريقيا وآسيا، رجالاً ونساء، يخيمون على امتداد الشوارع، على حصائر، أو أطراف من القماش، أو صُرر، أو قطع من الكرتون.

نستعد للالتحاق بعرفة. في كل مكان، في النزهة أو تحت الخيمة، الأحاديث قائمة على قدم وساق. الصلوات، والأدعية، وتلاوة القرآن والكتيبات حول الحج تشغل كل الوقت الذي يتبقى لنا ما بين لحظات النوم والطعام. نعلم أن اللحظة الحاسمة تقترب: الوقوف بعرفة. الوعّاظ والخطباء يكررون ما كنا نقرأه في المختصرات: «الحج عرفة!»...

من الواضح أن حرية النقاشات والمجادلات، وحدّتها تعود إلى روح جديدة تولدت ونشأت في مناخ التجمع والحمية... إن إيقاعية متصلة تبث الحركة في الأجساد والأرواح؛ وتلتحق هكذا في حرية بأفق الأمل والتحرر، في ما وراء الوعي. يخفّف الدين من تقنيناته، وبذلك يستعيد طبيعياً تعاليه بالنظر إلى المجتمع الذي يقوم عليه دوامه. ومن ثمّ، فإن التعايش بين الأمر، والامتثال، وانطلاق القول لم يعد يدهشني. الخصومات شديدة بين أنصار الوهابية وأنصار المالكية. الأجهزة الدعائية السعودية تستميل كثيراً من المغاربة إلى الفصل الصارم بين الجنسين، وتحريم الأضحيات والمواسم حول الأضرحة (ما يسمونه «عبادة الأولياء»)، والرفض الكلي للأفكار والمؤسسات وطرق العيش الشائعة في الغرب. وتتخذ معاملة الجسد قيمة مؤشر قوي: اللحية المحلوقة، إطلاق الشارب وحده على طريقة الأحزاب القومية العربية، كشف الرأس والشعر المقصوص بعناية، الزي الأوروبي، كل هذا يجب

منعه. فاللحية الكثّة، والقميص الفضفاض وغطاء الرأس (الكوفية خصوصاً) تشهد على هذه القطيعة مع الزي البرجوازي لأوروبا، وتنويعاته، وموضاته. ويجري التعبير، وفق المدافعين عن الأسلوب الإسلامي، عن «الإسلام الصادق». الصلاة بإطلاق الذراعين، وفق المذهب المالكي تثير خصومات عنيفة. وينصح كثير من شباب الحجاج المغاربة بالتخلي عن كل هذه «العادات والاعتقادات السيئة»، والانضواء إلى الإسلام، أي إلى دين الدولة السعودية. غير أنهم يصطدمون إما بالفتور وإما بردود حادة من الآخرين. ويذهب البعض إلى حد القول بأنّ هذه الاختلافات يشجعها سلاطين عرب، ويطلقون الشتائم والإدانات ضد «أمراء المال» و«دولة الفساد».

وهكذا فالجسد الذي يدل بدخوله في الإحرام على قطيعته مع الحياة المعتادة، ويحرس حدوده برفضه للدنس والاحترام الصارم للمحرمات (الغذائية وغيره)، هذا الجسد نفسه يتجلى صورة ورهاناً في تحديد العلاقات بين المسلمين، وبين هؤلاء وجميع الآخرين ـ وفي طليعتهم أولئك المنعوتون بـ«الغربيين». هذا التشكيل لجسد مقدس في جسد سياسي هو بالتأكيد ظاهرة قديمة. والكثافة غير المسبوقة للاتصالات والتساكنات، والتداولات المكثفة وصعوبة التحكم فيها، وأشكال العنف والهيمنة الجديدة، كل وقائع العولمة هذه تبثّ الاستعجال في أشكال خلق وإعادة خلق الهويات الجسدية.

في الدفاع عن الوهابية بوصفها ديناً، وطريقة للعيش، ولتقنين الانحراف واكتساب القوة في مواجهة أديان ومجتمعات أخرى، أعثر على حوافز عامة متفاوتة الظهور في فكر وسلوك المسلمين من كل الانتماءات. هذه الحوافز تتجسد في ضروب متعددة من الصور والصيغ: الأصالة، الأصيل والأصلي ضد الدخيل، النقاء ضد الامتزاج، الهوية والوضوح ضد الالتباس والانقسام؛ باختصار، ما هو منا ضد ما ليس منا. حوافز ذات تشعبات لا تنقضي، تدفع بالتضاد والإقصاء إلى أقصى مداه. تنشرها الديانة الوهابية بوسائل لم تكن حقاً في الحسبان. وقد كان لنجاحها السياسي، في بلد الحج والثروات النفطية، ما يدفع طائفة مغمورة إلى مستوى العالم الإسلامي وإلى ما يتعداه.

إن مطلب الفصل المطلق بين الجنسين في مذهب الوهابيين وممارستهم،

والتمييزات الصارمة التي تطالب بها حركات الإصلاح الجذري الأخرى تضع، بحسب كل هؤلاء المتحمسين، شروط إعادة البناء الحيوي لهوية الكائن الإسلامي من حيث هو كذلك. وإذا كانت مسؤولية الحفاظ على هذه الهوية مفروضة على الرجال والنساء، فالرجال هم الذين عليهم واجب تأمينها، هم الذين بيدهم السلطة. وفي «التكامل بين الرجل والمرأة»، حيث الحدود متراتبة، تقف الجماعة معبّأة للدفاع عن الخط الفاصل، الذي هو بحسب الدعاة، خط اليقظة. وفي الجدال ضد المجتمعات الغربية، لم تعد الصدارة بتاتاً لاختلافات العقائد والممارسات الدينية كما كان في القديم، فقد حُسمت القضية منذ زمن طويل من قبل الجانبين. إن خط التحصين الذي يفصل الخنادق هو خط الفصل بين الجنسين، أو بعبارة أخرى، الاختلاط. في جهة «العالم المتحضر»، كما يُسمع ذلك كثيراً في الولايات المتحدة، يسمى هذا «تحرير المرأة». وفي جانب أتباع الإسلامات الجديدة، يُقال عن ذلك «إباحية»، «بهيمية»، «فساد»، «فوضى»، «انحطاط». ومن خلال الثيمات المقرونة بتقنين الجسد الأنثوي، والأسرة، والمجتمع، فالرأسمالية والليبرالية الأوروبية الأميركية هي هدف للتحقير. والإنكار الزاحف الذي يواجه به هذا «العالم المتحضر» قيم الإسلام يكون الرد عليه هو رفض كل استعارة من «الغربيين».

في هذا الردّ على إنكار القوة الاستعمارية والإمبريالية للذات، أو على عولمة لا تقل إثارة للإنكاريين، يدعو السلفيون الجدد إلى طرائق عيش ليست صادرة بالضرورة عن «حسد» تجاه هؤلاء «الغربيين». ربما كان سياسيون، ومثقفون، و«متخصصون في الإسلام»، وصحفيون في الولايات المتحدة وفي أوروبا هم وحدهم المصابين بأشكال هوس الحسد والمنافسة هذه. فضلاً عن أن أشكالاً من النقد الجذري للممارسات ورؤى العالم الإمبريالية، وأشكال نقد تفكيكي أو غيرها تنال موافقة أولئك الكثيرين الذين كانوا سلفاً قد ابتعدوا، وفق مسارات مختلفة ومتناقضة في الأغلب، عن أشكال التدين الأكثر شيوعاً. إن وجود أولئك الذين بنوا لأنفسهم حيوات بواسطة سُبل من الإبداعات المتعددة يمكن أن يُقال عنه إنه إسلامي أو غير ذلك؛ لم تكن هذه

المظاهر هي الحاسمة، بل الإحساس بأن الذات تصنع وجودها بنفسها.

إن المستقبل يتعلق بالحرية أو عدم الحرية في أن يعيش الإنسان الحياة التي يرغب فيها، لا بنقد تفكيكي يمكن أن يغيّر معسكره بمثل هذه السهولة. وهذه الحرية لن تتحقق دون شك إلا باحتقار للعروض الكليانية التي تفرزها الاستبداديات المتناظرة والمتعاكسة. وفي قلب التركيبات الواهية، توجد حداثات تغذي بعضها بعضاً. الحداثة المؤسلمة واحدة منها بالتأكيد، بمعنى عقل وحيد يعمل على حصر المجتمعات في شباكه، إلى حد أن النسقين (السعودي والإيراني) حيث يدّعي «الإسلام الحق» أنه يتجسد فيهما يشبهان الصيغة السوفياتية أكثر مما يشبهان حلاً جديداً.

إنها تجسم وتديم، مثل الاختيارات الأخرى المتخذة في المجتمعات العربية، بعض انزلاقات التيارات الوطنية الموروثة عن فترة الاستعمار ومآزقها. فدروس التسويات، وأشكال المرونة ما قبل الاستعمارية في ما يخص الممارسات المرتبطة بالهوية، قد تم تزييفها وتسخيرها لخدمة دول تسلطية، لا يعادل عجزها عن الدفع في اتجاه التجديد سوى فعاليتها في قمع شعوبها. والمقولات المستعملة قد أعيدت صياغتها في «مشروع» الجماعة، والأمة، والدولة هذا: واقع استيهامي، بأجهزته المستقلة، فوق وإلى جانب تجربة الأشخاص أنفسهم. هذا التشكُّل الفريد قد تعلم استغلال كل أركان الماضوية.

جميع دواليب الدولة، وجميع شبكاتها، وجميع معارفها ومهاراتها تكتشف في آخر الأمر القوة الرهيبة لضبابية الماضويات. هذه الضبابية، بالفعل، تبعث دوماً في مختلف الأصناف . امرأة، رجل، إله، دين، أسرة، شرعية، خلاص ـ مبادرات ذات معنى. فالماضوي، وقد اخترعه الحديث، يفسد عليه لعبته بأن يعرض عليه مراراً أوجهاً غير متوقعة. أهذا هو السبب في أن أغلبية ساحقة من الحجاج لم تتبع بتاتاً الأقلية التي «تنبه المرأة إلى العودة إلى مكانها»؟ لدي اعتقاد قوي بذلك. مهما يكن، فتلك الأغلبية تحصر نفسها في ماضوية اللحظة، مستسلمة كلياً للبحث عن الخلاص، متجاهلة الخطب والشعارات التي تذيعها الشبكات المجاهدة.

الماضوي المتداول في الشعائر وبواسطتها يتضح أنه غير قابل للاختزال. فضاء دون فضاء حيث المبادرة تجعل نفسها في منجى. هذا الماضوي النوعي، كما كان الحال سلفاً في المدينة، يُحيط الآن الحداثة الوهابية في منى، وسيفعل ذلك بمزيد من الروعة الهادئة في المرحلة الحاسمة لعرفة. الآفاق مشبعة بصلاة الحشد الهادئ. لا شيء ينال منها. لا الشبكة الأمنية الحضرية التي تؤطرها، ولا الدورات التي لا تنقضي لهيلكوبترات الإغاثة والمراقبة، ولا دعايات وسائل الاتصال، ولا أخيراً استغلال الحج كبضاعة ورهان سياسي. يتأكد هذا الحدث، الذي سيتعاظم في عرفة، ويدفعني للعودة إلى مفاجآت، ولا تطابقات وأشكال من القلق قاومت الاعتراف بها لنفسي. زرت سهل عرفة في بداية مقامي بمكة، بعد مناسك العمرة. انتابتني بعض الحيرة عند رؤية مغارس أشجار الأوكالبتس وناقة برحلها وزينتها معروضة لالتقاط الصور. ذكرني هذا التفصيل الأخير بالدواب المزركشة، المعدة لمتعة السائح، في المغرب وغيره. ولما تسلقت جبل الرحمة، كانت خيبتي عظيمة لرؤية الأوراق المدسمة، وقطع الكرتون، وحقاق الياورت المتروكة هناك. هربت محدقاً في النصب الأبيض الناصع الذي يمتد بقمة هذه الربوة الصغيرة نحو السماء. الحجم المتواضع للاثنين أعاد لي ذلك الشيء غير المنقوص الذي يستعيد به جسدي حديثاً أليفاً ودون جدول أعمال. وإجمالاً، كمال الرسائل دون مبالاة باكتمالها، ولا كذلك بتعقليتها. عند الهبوط، أتاح لي مشهد التقاط الصور على الناقة الفرصة المثالية للسخرية من النفايات ومن نفسي في آن واحد. بديل من الرحلة نحو السعادة. دون شك؟ تيقنت أنني محظور علي الطموح إلى شيء آخر: إدراك للكمال ولمحاكاته. لكني أعلم أن العزاء الذي تمنحه التجربة الدينية لبعض أصحابي، ممتنع علي.

في أثناء ذلك، نسيت ظروف هذا اللقاء الأول، وفي منى نتهيأ للقاء جديد. جاء موظف ليعلن لنا أننا سنغادر منى نحو عرفة في وقت متأخر من الليل. هذا الخبر، كما هو متوقع، أثار البلبلة في المعسكر. تطارحنا الأسئلة نفسها: «أتعرف ساعة الانطلاق؟» و«الحافلة، هل ستكون موجودة هنا؟» «أين مستخدمو الشركة؟»... هؤلاء عادوا للظهور لحظة ليلقوا لنا

برزمات عشائنا. وبين التنظيم الرديء للخدمات والمنافسة الوحشية بين الحجاج. كل واحد يريد أن يكون الأول، أن يسبق الآخرين، ويتخطّاهم، ويحصل على أقصى ما يمكن.، جرفنا التدافع والمشاجرات التي تصاحب كل توزيع. نحن عشية الوقوف بعرفة، ذروة الخضوع لله، وقوف الغفران، في حال إحرام. غير أن تبجيل الصلوات يتلوه الصراع الأعمى. وفي حين لا يتهددنا أي خطر موت، ولا عطش، ولا جوع، فإن حجاجاً عديدين في ألبسة الإحرام الفضفاضة، يتخاطفون الوجبات الغذائية، ويتدافعون بقسوة، ويتزودون هم أولاً دون أدنى اعتبار لإنسان. النساء بمعزل، ورجال، معظمهم، شباب، يناورون دون كلال للحصول على أقصى الموارد. لو كان بالإمكان التحقق من النظريات الداروينية لوجدت في هذه المشاهد دليلها الأوضح، ولكان بالإمكان إدراك تاريخ ملايين السنين، منطبعاً في بعض الحركات.

لم تصدمني هذه الصورة عميقاً. فضلاً عن أنه، في بلدي، كان رجال ونساء، عديدون جداً، يستسلمون لهذه الحرية الغريبة التي تنتهي بأن تجرف في تيارها حتى أولئك، الكثيرين والكثيرات جداً، الذين يناهضونها. وأسوأ من هذا، هنا لم يكن الصراع من أجل الحياة، وإنما من أجل امتيازات الحياة. لا أتعرّف في ذلك على نمط الماضوية الذي أستشعره فوراً في حضور الحيوانات: مجبول من عنفٍ بديهي، ومثل الألم. لا يجعل حداً لنفسه سوى تعبيره الخاص. كلا، الصراع الذي يدور حول طاولة الوجبات يستعمل تمثلات وتكنولوجيات عالية التطور، مستجيباً لماضوية صارت استيهاماً للنقص. إنه شديد القوة، غير أنه، وقد بلغ هذه الحال من البلورة، يقتصر لحسن الحظ على المهارات، والمناورات، والتدافعات، متلافياً في هذه الأماكن المقدسة الشتيمة، واللكمة، والتهديد بالقتل. يتبقى ما يكفي من اللغة والدين كي يتمكن العنف من التعبير عن نفسه بعلامات قادرة على أن تنوب عن الإشارات. وكثيراً ما يعيد حجاج توزيع ما بذلوا كل هذا الجهد والمهارة في الظفر به على حساب الآخرين. وهكذا كنت مزوداً باستمرار من رفيق مشحوذ المهارة جداً. لست الوحيد في هذه الحال: رجل آخر يطوف في

الخيمة ليتأكد من أن «جميع الإخوان والأخوات» حصلوا على شيء من الطعام... حتماً نحن أدنى جمالاً، لكن ربما لحسن الحظ، أدنى نقاءً من الحيوان. لو كانت توجد طبيعة، فما تجعله الأخطر ليست هي هذه الكائنات الطبيعية. إننا، على صورة الآلهة، نستيقظ كل يوم في أنواع أخرى تتشكل في تحلل الأنواع السالفة. لم أكن أتعجّب تماماً من أننا، ونحن في الطريق نحو هذا الموعد مع موت قد حصل سلفاً، نحمل في ذواتنا كل هذه الشهوات.

غادرنا منى حوالى منتصف الليل، بعد أن علمنا أن من الواجب الذهاب إلى عرفة في أسرع وقت للتمكن من الحصول على موضع للنوم. كنا مرهقين، ينقصنا دائماً النوم؛ لا بد من استرجاع القوى والاستعداد لهذه المرحلة التي ستبدأ بعد غد، الجمعة تاسع ذي الحجة ١٤١٩ (أي ٢٦ آذار/مارس ١٩٩٩). تعاركنا من أجل مقاعدنا في الحافلة، وسط فوضى لا توصف. قطعنا خمسة أو ستة كيلومترات من شارع هائل مزدحم بالمخيِّمين وأناس يرقدون في العراء. «كثرة من الهنود، والباكستانيين وأناس من بنغلادش»، بحسب أقوال السائق المصري ومطوّفنا اليمني. من العسير تبيّن مخيّمنا في الليل، وسط الحشود وحركة السير. الحافلات المكتظة إلى حد الاختناق، مع مسافرين على سطوحها، متعلّقين بالسلالم، وبواقيات الصدمات الخلفية، تسير ببطء شديد. في كل مكان حجاج على الأقدام. كان الوقت متأخراً جداً لما وصلنا إلى الخيام المخصصة لنا، قريباً جداً من «جبل الرحمة».

استلقيت على الفور لأنام. رجال آخرون يرقدون بجانبي. نساء يشغلن طرف الخيمة. زوجتا رفيقيّ تجمّعتا غير بعيد عن زوجيهما. كانت الثانية صباحاً حين فتحت عيني. غادرت فراشي المرتجل، وتوضّأت وغادرت المكان للتبرّد. بعد جولة قصيرة جهة جبل الرحمة الذي أتبيّنه في غسق الفجر، عدت لأتمدد في انتظار استيقاظ الآخرين. الرجال والنساء ينبعثون بالتدريج من النوم وسرعان ما عادت حركة الذهاب والإياب المألوفة. صلينا الفجر على انفراد؛ ثم بعد الخامسة صباحاً صلينا الصبح جماعة في ملجئنا الفسيح. كان الحشد يتعاظم بقدر وصول حجاج وآخرين. ومتطوعون يهتمون سلفاً بترتيب الصلاة. انشغل عباس بالصفوف، المضطربة وغير المتراصة كما

ينبغي في رأيه. طالب رجل آخر بدفع النساء وراء الرجال. «جيراننا ـ مشيراً إلى مجموعة أخرى ـ قد صلّوا وراء نسائنا. صلاتهم باطلة». زوجتا رفيقيّ والنساء الأخريات ذهبن دون أن ينبسن بكلمة ليلتحقن بنساء الجيران. وبذلك وحّدنا المجموعتين في الترتيب الصحيح، «النساء وراء الرجال»، وصلينا بإمامة متعلّم من البادية، منحدر من قبيلة عربية جنوب الرباط، متحفّظ وتقي. من كلّ مكان تصعد الأدعية، والتضرّعات، والبكاء، رغم أن الوقوف، كما هو معلوم، يبدأ في الظهر عند صلاة الجمعة.

تتابع وصول الناس في صخب يكتسح كل شيء: المشهد، والحشود المتوقفة أو السائرة، والطرق السيارة، والأشجار المهزولة، الغارقة في البياض، والمصابيح، والضباب الخفيف الذي تنفثه مرشات عملاقة. هذا الرذاذ الاصطناعي مهمته تعديل حرارة الشمس، مثل الهواء المكيف في خيام منى؛ يتحدثون عنه كأحد أفضل ما حملته «الحداثة في خدمة قيمنا»... مشيت لحظة تحت هذا الرذاذ في اتجاه جبل الرحمة، مخترقاً الشوارع والأسواق المرتجلة. توقفت أمام منضدة امرأة من بنغلادش لأفطر بقدح من الشاي وبسكوتات. من حولنا شاحنات ضخمة توزع الصدقات: مشروبات، فواكه، علب حليب... كل ذلك باسم شركات صناعية وتجارية تحمل لافتاتها الإشهارية. كان مستخدمون على أبواب الحاويات يلقون بهذه الهبات السخية إلى الحشد الفائر. تلافيت بقليل علبة حليب كان حاج مصري يهرول سلفاً لينازعني إياها. خضنا مطاردات ومراوغات. فزت بفارق ضئيل وابتعدت بينما خصمي يلتحق بتشكيلات أخرى، تتحرك في أشد السرعة بحسب اتجاه المقذوفات.

ما عاد جبل الرحمة الآن سوى جبل من الشخوص البيضاء. حدست النصب دون أن أراه ورجعت نحو الخيمة. رجال ونساء يتأمّلون الأماكن وهم يبكون. آخرون يصلّون أو يدعون الله في صمت. الحمية تنتشر في كل مكان. يبدو أن لا شيء يفسدها، لا الأسواق القائمة على طول المخيمات، ولا الصدقات الإشهارية، ولا الصور التذكارية (وهو تخصص شباب من إفريقيا السوداء)، ولا المتسولون والشحّاذون. بعد أن عدت إلى مأواي، صادفت المزيج نفسه من الروحية والرّتابة اليومية:

«في الليل، جاء رجلان لا أعرفهما ليناما بجواري. بعد الصلاة، تحدثت مع أحدهما. اكتشفت أنه من تافيلالت وله أخ يعيش في تمارة، فهو يتنقل [بانتظام كما قال لي] بين هذه المدينة والريصاني. استفسرني عن الأركان، والواجبات وحسن تأدية الحج. ولمّا كان شديد الخوف من الإخلال بشيء منها وبذلك يبطل حجه، كان يحرص لا على أداء ما هو فروض فحسب، بل كذلك كل ما هو مستحب... روى لي أنه عند مرأى جبل الرحمة، غلبته الدموع واضطر إلى الرجوع عنه. سألته عن تافيلالت. فأجابني أن تلك المنطقة تشبه الآن مدينة، وأن الدولة قد أدخلت إليها الكهرباء وأن القرى عندها «الطاقة» ليلاً ونهاراً... ثم التفت نحو امرأة عهد بها إليه صديق له لحظة، واقترح عليها: «تريدين الذهاب إلى جبل الرحمة؟» قالت: «لا، لا حاجة لي في التجوال لأنني لا أرغب في شراء شيء هنا. جميع مشترياتي ستكون في المدينة المنورة. لكن إذا كان ممكناً، أريد الذهاب لأخذ صورة قرب جبل الرحمة». وراءنا، نساء يتناقشن حول صعود جبل الرحمة. أكّدت إحداهن لمخاطبتها: «إذا لم تفعلي هذا، فلم تؤدّ شيئاً!». تدخلت شابة على علم بالدين لتشرح أن «الصعود ليس من الواجبات وهو مستحبٌّ فحسب للشباب القادرين بدنياً». أحد جيراني، شاب نسبياً، وصديق للأول، اشتكى من الإرهاق وقلة النوم، ولم يبد أي اهتمام لا بالتعرف إلى الأماكن ولا إلى الشعائر، رغم إلحاح حاج يحثه على قصد جبل الرحمة. ذهب لحظة، ولما عاد أخبرني أنه ذهب ليغتسل: «يقولون إن الغسل محظور أثناء الإحرام. ليغفر لي الله. أخذت دوشاً. لا أقدر، أخذت دوشاً». قلت له: «غفر الله لك». بعد هذا، تمدد وغرق في النوم. غادر حجاج آخرون المأوى بحثاً عن شيء للأكل. عادوا بقناني الماء، مشتكين بمرارة من انعدام الطعام...».

خرجت من جديد لأتنسّم الهواء. على طول ممشى عريض يُفضي إلى الجبل، صادفت مجدداً الحشد وتوزيعات الصدقات. تلاوات للقرآن وخطب تأتي من مسجد نمرة الذي لا أستطيع أن أرى منه سوى قمم الجدران والمآذن. هذه الأصوات، وقد حملتها مكبرات الصوت، تتموّج فوق الحشد وتتداح حتى التضاريس السوداء للمنخفض الشاسع. تمتزج بنداءات التلبية،

والتضرعات والدعوات. سماء الدعاء هذه، وقبة التقوى هذه، تغطينا جميعاً، سواء الباحثون عن خلاص أرواحهم أم الساعون لمطالب أكثر ابتذالاً. قصدني المتسولون من جديد: باكستانيون، وأفغان، وناس من بنغلادش ومن غيرها. هنا أو هناك، تهيّأ لي التعرف إلى عناصر حبكة مضبوطة جداً: «أنا حاج. جمعت المبالغ اللازمة لتأدية فريضتي... لكن كل شيء قد ضاع». وأيضاً: «نحن الأفغان، المجاهدون في سبيل الله...»، الخ.

التحقت سريعاً بمأوانا. الجميع مستغرقٌ في الصلاة والدعاء، جماعة وجهراً، أو في صمت وانفراد. ثم رأيت من جديد التقني الشاب يتقدم الجميع ويجهر بالتلبية، وسرعان ما لحقنا به كلنا. دامت هذه التلبية ربع ساعة كاملاً، يقودها شبان آخرون بعضهم بلحى مقصوصة بعناية، بينما عدد من رجال ونساء الشعب، غير العارفين بالمجادلات الدينية، يتحلّقون حول طلبة البادية الذين يبعث حضورهم شيئاً من التحفظ في عباداتنا. توقفت التلبية بعد مدة. عرفنا أن صلاة الجمعة تقترب. جدد البعض وضوءهم، وآخرون قصدوا طريق مسجد نمرة. بقيت في المكان مع معظم الرجال وتقريباً كل النساء. بعضهنّ ألححن في مرافقة أزواجهن؛ لكن هؤلاء يواجهونهن دوماً بالحجة ذاتها: «الحر الشديد والازدحام...». لاحظ بعض الحجاج أن الرجال ينبغي أن يتحدّوا الحر وضيق الحشود «جهاداً في سبيل الله». أنا نفسي، مع آخرين، أكثر عدداً، قررنا البقاء هنا، باسم تأويل آخر معروف في الإسلام: «لا غلوّ في الدّين. وأداء ما هو ممكن والتيقن من أن الله لا يطالب المؤمن بما ليس في طاقته». ثمّ، ألسنا نحن «الأمة الوسط»؟ رغم كل هذا، استمرّ الشباب الملتحون في الدعوة إلى هذا الجهاد في الحياة اليومية. شكلٌ جديد من التديّن نواجهه بالفتور العذب لتقليد...

عند الأذان، قمنا على الفور. أمرنا متطوّعون من بيننا بالقيام في صفوف متراصّة. آخرون نادوا الجميع: «النساء إلى الوراء! إلى الوراء أنتنّ النساء! نحن هنا للعبادة لا للضحك والثرثرة مع نسوتنا!». لا يمكنني الغلط: الجزء الأخير من الملاحظة مقصود به بعضنا، وأنا منهم. كنا قد عدنا، بالفعل، إلى صحبة النساء بعد الصلاة وفي لحظات تناول الطعام، وكان ذلك ما يثير علينا

بعض تأنيبات، ليست دائماً بلهجة ودية. أذعنّا سريعاً. سمعت نُتفاً من خُطب آتية من المسجد، دون أن أعرف حقاً بأي طريقة ينبغي لنا أداء هذه الصلاة، أجلُّ الصلوات التي كان بمقدوري أبداً حضورها. ثم رأينا شاباً يتقدم ويشير إلى إمامنا بالالتحاق بالصفوف، وراءه. امتثل هذا للأمر؛ لكن بدأت على الفور حركة في الصفوف. الناس يتساءلون عمّا يحدث. تدخّل بعض الحجاج، بعضهم لمساندة الإمام المطرود إلى الوراء، وآخرون لمصلحة الإمام الذي تكفّل بنا. هذا الخلاف الأول سبّب خلافاً ثانياً: أرادت طائفة الجمع بين هذه الصلاة وصلاة العصر أي صلاة جمع؛ وآخر ألحّ على الفصل بينهما؛ وأخيراً ثالث دعا إلى اتباع الصلاة التي يؤمّها الإمام الرسمي، في المسجد، بينما الآخران لا يريان في ذلك ضرورة. كانت المواجهة حازمة، مع تلافي الشجار. وفي النهاية أعاد بعض الرجال إمامة الصلاة للإمام الذي أسيئت معاملته وأمروا الشاب الطموح بالتخلي عن مطالبه. هكذا صلينا وراء ذلك الطالب الذي كان منعزلاً دائماً، منزوياً، ويميل إلى أن يتلو أدعيته بصوت خفيض. لا شك أنه قد أكد بذلك ما قال لي لمّا دنوت منه لبرهة قصيرة قبل هذا بقليل: «الدين لله لا للنّاس... وبهذا فقط يُصلح الدين البشر!».

كان وقوف عرفة عقب الصلاة مباشرة. لا أستطيع أن أرى أبعد من المخيم. غير أني، وأنا أقف مثل الجميع، أحسّ في ذاتي الطاقة الخارقة لبشرية عابدة: منذورة، متفانية، مختارة. أشكال الهتاف التي تمر مثل أمواج لا محدودة، تعقبها أنواع من الصمت. الأدعية الجماعية تفسح في المجال بانتظام للتضرّعات والتوسلات الفردية المهموسة واللامسموعة، في وضع الجلوس. لحظات من الراحة. لحظات من الخشوع والعودة إلى الذات.

هذا الإيقاع الذي يلائمني جداً انقطع للأسف. انبعثت محنٌ جديدة، هذه المرة على شكل خلاف يتعلق بالأدعية. جاءت مجموعة مهمة من الشباب لتلتحق بخطيب مغربي يقود المنسك، ويحمل معه لائحته الخاصة من الأدعية والابتهالات. طلب منا ترديد هذه «النصوص المختارة» حرفياً ولم يكن القائد يقبل أي توقف أو ضراعة فردية. رحن نردّد، غارقين في العرق مختنقين

تحت مأوانا من نسيج الكتّان. رددنا حتى أغلاط اللغة لمرشدنا. ثم أخذ ناسٌ، وقد نفد صبرهم، يتبادلون النظرات، بينما أخذ آخرون حريّة الجلوس. نتيجة لذلك، توقف «المرشد»، وبمساعدة أصحابه، طلب إلينا العودة إلى «الدعاء الجماعي، جهراً ووقوفاً». هذا الطلب، المصوغ بلهجة محتدّة، تسبّب في رد جازم: «لا! هل تريد، من فضلك، أن تختم؟ يلزم الناس وقت للدّعاء لخلاص أنفسهم، ولصحة ورفاهية أهلهم، ولأولياء الأمر والحكام المسلمين! لا، يا سيدي! بعد الدعاء الجماعي جهراً، هناك الرجوع إلى النفس، وتفحّص أعمالنا السالفة، وذنوبنا!...». صار من الواضح أن النصوص التي جعلونا نرددها ليست مستمدة من الكتيّب المالكي الذي جعلته وزارتنا للشؤون الإسلامية في متناول الحجاج المغاربة. لا، بالتأكيد، ليس هذا مذهبنا الرسمي. بعضنا قد تعرف بسهولة إلى النشرة الدعائية الوهابية. لكن الخطيب قال بلهجة لاذعة: «كان الرسول يجهر بالدعاء جماعة، مع صحابته، ويقودهم!». رد عليه صوت: «لا! كان ذلك تارة جهراً وجماعة، وتارة يترك كل واحد يخلو إلى نفسه!». طلب معظم الناس من الأتباع الشّباب أن ينسحبوا، فانصرفوا فاسحين في المجال مرة أخرى لطالبنا من البداية، الذي عاد دون تسرّع كبير إلى مركز الفعل. استأنفنا في هدوء إيقاعنا الثنائي الذي طرد الخلافات. لمدة طويلة ناوبنا بين الذكر والدعاء الفرديين في السر، بكلمات يرغب كل واحد في تبيلغها لله. ظللنا هكذا وقوفاً، طويلاً، طويلاً... حتى نهاية الأزمة. جلسنا لحظة ثم أشار لنا إمامنا بالوقوف مرة أخيرة.

كان وقت بعد الظهر يسير نحو نهايته. وبعد سلسلة طويلة من الأدعية والتضرعات الخاشعة، بقينا وقوفاً في صمت. ثم عند إشارة أخيرة، نقضنا الصفوف. ووُزعت علينا وجبة الغداء وأُخبرنا أن الذهاب سيكون فوراً بعد ذلك. أكلنا باستعجال، ومثل الجميع، انطلقنا لاقتحام الحافلات. قاربت الساعة الخامسة والربع. واضطررنا إلى خوض معركة طويلة للوصول إلى أماكن القعود. نجحت، بعد ساعتين من تدافع قاسٍ، في الجلوس وحجز مقعد لفريدة، المرأة الشابة التي كانت معنا دون زوجها. مددت لها يدي، عبر ذلك الجدار من الأجساد الذي يفصلني عنها، لأساعدها على الصعود إلى

الحافلة. بعد بضع دقائق، جاءت امرأة مسنّة لتنتصب أمامي. وجّهت إليّ الأمر، وهي متوكّئة على عصاها، أن أخلي المكانين، بدعوى أنها كانت قد حجزتهما قبل قليل من وصولي. فوجئتُ بضخامة الادّعاء، فلم أدر ما أقول. ثم تهاطلت الشتائم: «شيطان! الله يعاقبك! ما جئت هنا لأجل الحج، بل لأجل النساء! ودون خجل تمدّ يدك... شيطان، تجهر بآثامك أمام الجميع. سأدعو الشرطة، ويطردونك من الحافلة!». دام المشهد عدة دقائق. بقيت منذهلاً. أبعد أحدهم هذه السيدة التي كنت سأتخلّى لها طوعاً عن مكاني لو طلبت مني ذلك. من العسير عليّ تخيل ما الذي حفزها على هذا: طردي من مكاني أو إنكاره عليّ لأنني كنت شيطاناً في نظرها، وأنها بتأنيبي والاستيلاء على ما بيدي في آن واحد، ستنجح في القيام بفعلين من أفعال التقوى. هذه الفرضية الثانية ستجعلها دون شك في أحسن حالاتها من أجل رجم الشيطان الذي سيبدأ في الغد.

حوالى الثامنة والنصف غادرنا عرفة في اتجاه المُزْدَلِفة. فعلنا ذلك بسير سريع نسبياً، يُسمّى «الإفاضة»؛ كأننا نفيض مثل سيل... ملايين من الراجلين يولّون ظهرهم لعرفة ويسرعون نحو المزدلفة كنهر عظيم فاض عن ضفافه لينداح في الوديان والشعاب المجاورة. أما نحن الذين نتأمل هذا المشهد من نوافذ مرجلنا المتحرك، فما كان شيء من هذا. نتحرّك في كل مرة مسافة عشرين متراً لنتوقف على الفور، بلا نهاية، في ضجيج المحركات، والحرارة، وغازات المحركات.

في المزدلفة، حيث وصلنا عند منتصف الليل، أوقف السائق محرّكه ودون أن نشعر بما يجري، أقفل الأبواب وذهب لتناول العشاء، ناسياً أنه لمجرّد توقفه قد أوقف كذلك مكيّفات الهواء. وكنا قد أشرفنا على الاختناق لمّا تمكنا بفضل صراخنا من تنبيه بعض الناس الذين قصدوا السائق - لست أدري كيف في ظلام الليل - ليذكّروه بوجودنا. عاد وفتح لنا دون قلق ظاهر. رمينا بأنفسنا إلى الأرض. أدّينا الصلاة المفروضة في المكان، وجمعنا في الظلام حصيّاتنا للرجم. لم يكن جائزاً جمعها في أي مكان آخر، ولا أيضاً في لحظة أخرى. المزدلفة، هي «المحطة المفروضة» بين عرفة ومنى. صعدنا

من جديد إلى الحافلة. في تلك اللحظة، كان التعب والظروف التي لا تُطاق لهذا السفر ـ الذي دام ست أو سبع ساعات لقطع حوالى ثمانية كيلومترات ـ هي التي تشغل الجميع. بقيت واقفاً، لأنني لم أعثر على مقعد للجلوس، أتشبّث بيد بمقعد وأمسك بالأخرى حقيبتي الصغيرة ـ التي أسهر عليها ليلاً ونهاراً ـ تحت إبطي. كان عليّ، وأنا في الإحرام، أن أنزع كل ما كنت أحمله في الأوقات العادية. وقد نزعت خاتم الزواج الذي خبأته في جيب داخلي في الحقيبة. في الساعة الخامسة صباحاً نزلنا في مخيمنا الذي وجدناه محتلاً. خيامٌ فارغة يحرسها حجّاج يحتفظون بها لأناس من القبيلة نفسها، أو من الحي نفسه، أو تعارفوا معهم في المكان عينه. هِمْتُ طويلاً في الممرات قبل أن أقع على فضاء صغير غير مأهول على طرف الخيمة الكبيرة المشتركة التي تستعمل بمثابة موضع للصلاة. بسطت عليه غطائي ونقلت خاتمي إلى جيب الحزام. اكتشفت سريعاً أنني جعلت مسكني قريباً جداً من المراحيض والمتوضّآت. كان لي جيرانٌ لا أعرفهم في منأى على الجانب الداخلي لهذا المسكن. لم يكن ثمة مجال لإضاعة الوقت. توضّأت بعد انتظار طويل وغادرت الروائح والقذارة لأداء صلاة الصبح قبل أن أتوجّه إلى جمرة العقبة لرمي الجمار الأول.

أنا حقاً على طريق عودة إضمارية. هذا الإحساس يتخذ أهمية متزايدة. الانفعال الذي أشعر به ذو طعم جديد، ويكتسح جهودي للتعرف إلى الأفكار والصور وطريقة معالجتها. إنها تتوالى وتستحوذ على وعيي وفق هواها. وجامد الجسد، واهن القوى، رحتُ أغرق، إذا جاز القول، في تدوين للصور لا ينضب.

تتبيّن العودات الإضمارية صوراً على خلفية صور أخرى تتلوها، أو تحيط بها، أو تغمرها، أو ترتسم في تفصيل من تفاصيل حلول صورة محلّ أخرى تمحوها. تُبتكر القاعدة بعد فوات الأوان، كأن اللغة قد احتفظت بالصيغ السحرية للتداعي التي تشترك فيها مع تداعي الصور: آثار معاصرة لا تستجيب إلا لقراءة معكوسة.

ألم أكن بالفعل، وأنا أتهيّأ لرجم الشيطان وذبح الأضحية، قد دخلت في

مسار معكوس؟ لقد جئت من موقف عرفة، هذا «الوقوف أمام الله». ويوم القيامة، الذي لا تكفّ صورته تعاودني، ليس من ابتكاري الخاص، لكنه الابتكار المعتاد الذي يتناقله الحجاج. ذلك الذي يأتي في كل لحظة، فيجعل مرئياً ما نراه، وقابلاً للفعل ما نفعله، ومسموعاً ما نقوله، ونجأر به، ونرتّله، ونتلوه، ونهمس به. يتداعى مع كل الحركات وكل الكلمات. وبهذه القدرة على التداعي التي لا تنفد، فهو يتلاءم جيداً مع سياسات الأديان وأديان السياسة على السواء. ويحرك الاستراتيجيات الأكثر تنوعاً؛ ويتطابق طوعاً مع كل التراكمات. ولا يُطالب مطلقاً أن تكون هذه أو تلك روحية أو رمزية. لا بد دون شك من التسليم بأنه، وقد هزّ أجيالاً، قادرٌ على أن يكون مصدر نزاعات، وغزوات، وأشكال من اللامبالاة أو التراجعات، وتواريات حدثت أثناء ذلك اليوم المشهود. على هذه الصورة وعلى الصورة التي للأنا عن ذاته والتي يتيه فيها، ترتسم آفاق تبدو سخريتها دون رحمة. هكذا يشهد فشل الدعوة الوهابية، على طريقته، على قوة تكرار البداية الذي يسكن هذا «الوقوف».

عدت إذن في ضجيج اختناقات حركة السير. عائدٌ من يوم القيامة. مثلت أمام الله، مع الآخرين. علمنا جميعاً، ومبكراً جداً، أننا في القيامة الأخرى، تلك التي قدم لنا الوقوف بعرفة عنها مشهداً أول، سنكون موضوعاً لحساب؛ ونعلم أننا، في الحساب الذي قد تقدمنا أمامه آنفاً، نطلب الخلاص للانطلاق بأمل صدور حكم لمصلحتنا. الصور عديدة: اليقظة بعد رقاد الموت المديد، جسداً وروحاً؛ العبور على حد السراط بين الغفران والجحيم، والشفاعة، والخلاص. غير أن صورة لم أكن أعرفها فاجأتني بنبرات «الكتاب المقدس» فيها. قدّمها لنا تاجر من الرباط، بحضور زوجته وابنته، تحت الخيمة في منى:

«... كل هذه العبادات آثار أبينا ابراهيم. هجر ابنه وزوجته في وادٍ قفر، دونما شيء. لكنه كان يعلم كيف تعمل رحمة الله. ذات يوم، خاطب الله: «أرني كيف تحيي الموتى؟!» رد عليه الله: «أو لم تؤمن» يا إبراهيم؟ قال ابراهيم: «بلى ولكن ليطمئنّ قلبي». فقال تعالى: «خذ أربعة من الطير

فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل مهنّ جزءاً ثم ادعهنّ يأتينك سعياً» فجاءت الطير تحلّق فوق خيمته، وكل ربع عاد إلى أصله وكل طير مع جسده وروحه».

عرفة، موقع المعرفة المطلقة، والرحمة، والعودة إلى حال الأصل بعد الشتات. أي نشوة! يدعم المفسّرون المسلمون هذه الرؤية بالإحالة على جذر الكلمة، ع ر ف: عَرَف، تعارف؛ ويروون أنه على هذا الجبل التقت حوّاء آدم بعد الطرد من الجنة وقالت له: «عرفتك». عرفة، موضع المعرفة والتعرّف، والتعارف بين المسلمين؛ ووفق روايات معروفة جداً، فالذين يتعارفون في عرفة يجددون، في الواقع، المعرفة التي كانت بينهم، وهم أرواح، قبل مجيئهم على الأرض.

عند عرفة، في ثورة أولى على شكل إهليلج، صادفتُ ثانية، في معرفة وتعارف الوقوف أمام الله، العلم الذي كان لي لما كنتُ روحاً. يتحقق هذا بواسطة الفضيلة المتميزة للشكل الإهليلجي: أصادف ثانية نقطة متناظرة مع نقطة انطلاقي عابراً قوس الدائرة المقابل للذي عبرته بين الوجود بصفتي روحاً والتجسد: أي الطروء بوصفي شخصاً مع كل الأعراض المتراكمة التي تشكل سيرته حتى نهايته الأخيرة في الحج. إن الشكل الإهليلجي، كما لاحظ ذلك أحد الفلاسفة، ليس تحويراً للدائرة. تجرف الثورة الإهليلجية معها أصلاً تحوله. وفي الاتجاه الآخر، لا توجد إلا النهاية، التي تؤسس هذا الأصل في شكل الدعاء، أي تلقي الصورة دون حاجز. إن الثورة الإهليلجية، مثل الإضمار في اللغة، ترسم التجربة في أشكال منحوتة إلى أقصى حد، تستمد كثافتها من تبسيط صارم.

في هذه المسارات، ما قبل يأتي من بعد. العودة إلى منى، كالآخرين، تجري على طريق متناظر يعكس الطريق الآخر. الخلاص. أو، على الأقل، تحوّل أملٍ إلى معرفة (تدعمها الشهادة المتبادلة لـ«الوقوف أمام الله»). يأتي قبل الذبيحة. والحال أنه في الأسطورة المؤسسة، الظفر على الشك والأضحية حدثا من قبل؛ في الفاصل الذي يفصل مؤقتاً المشاركين عن الموت، والبعث، ويوم الحساب. باختصار، الشعائر تغيّر نظام توالي الأحداث التي

تأتي بعد. وهكذا يحدث البعث قبل الموت. لم نقم بعد الرجم ولم نذبح الأضحية، لنقصد بعد ذلك الوقوف الختامي. بل على العكس، قصدنا طرف فترة الحياة وعبرنا عتبة الموت، قبل العودة إلى الذبيحة. بذلك أكدنا في الآن ذاته إرجاءنا ونهاية هذا الإرجاء.

الكل يعلم أن الوقوف بعرفة «هو كالوقوف في الحشر ويوم الحساب». وتمتد المماثلة طبيعياً لتختم بالشفاعة، والغفران الأخير و«السعادة الأبدية». وإلى هذا الحد، فهي تمس البراءة الأولى: الولادة. الحج يغسل كل الذنوب؛ يخرج منه المرء «كيوم ولدته أمه». ما عاد ممكناً لي التملّص من السؤال الذي يطرحه علي دائماً هذا الـ«ك...». صحيح أنني لست الأول الذي سكنه هذا السؤال. فهو لم يفتأ يطرح نفسه، ليس على الأنثروبولوجيين فحسب، بل أيضاً في التأملات الفلسفية، والدينية، والفنية، دون الحديث عن العلوم، والتقنية، والتجريب السياسي. ألا نفعل كذلك، كل يوم بيومه، وفي المواقف الأكثر اعتياداً، «كأننا» لم نكن إلا... مادة، أو روحاً، أو نادل مقهى، أو ملياردير... لكن السؤال يزعجني شخصياً؛ يبدو لي أكثر فأكثر كتناقض أساسي في موقفي منه: إذا ما واجهته في أحيان كثيرة، فلأتحاشاه على الفور. الخيار والفعل يخلّصانني وقتياً من القلق الذي يحمله معه. أو ربما القلق هو الذي يعيد الـ«ك...» والمماثل؟

يتظاهر المنسك بالطمأنة، بتثبيتي على المماثل. لكن هذه الطمأنة المتكررة ينخرها المماثل نفسه، صورة القلق الذي تحاول المعرفة خداعه. أنا، في مسعاي، ألاحق في الواقع طمأنات أخرى. تدقيقات، تعاقبات مقننة، عالماً ذا واقع قابل للإدراك في قوانين هي أيضاً قوانيني، واقع يجعل ذهني يتعرّف إلى هذه القوانين كأنها علاماته الخاصة. معجزة. ينبغي إما أن أكون طبيعياً، وإما أن الطبيعة ستتعرف إلى نفسها في ذاتي. لكن المنسك يمنعني من الظفر بهذه السعادة، مُرجئاً إياي، ويحيا بلغة تجعل كأن غداً قد حدث البارحة، متصرفاً بطريقة تجعل الأفعال التي تختم مصيري تحدث في ترتيب مقلوب.

يتشكل الإهليلج الطقوسي من انطلاق، وتوقف، وعودة إلى نقطة الانطلاق. إنه إعادة وذاكرة. ذاكرة لنقطة انطلاق الزمن، للحكاية ـ جسد

القصة ـ ولختام الحكاية. يبسط الحكاية ويختمها. ويكرّر البسط. ويعيد ثانية عرضه في بضعة أيام ينبثق بعضها عن بعض لرسم قوسَي الإهليلج، جاعلاً أحدهما في الآخر، بالرغم من التعاقبات المعتادة، ومن الليل والنهار. إذن، ليس ما ترسمه هو مجرد «الزمن المُستعاد».

الكائن البشري، الذي يسكن العالم، لا ينتهي من نزع أوراق هذا العالم كأنواع من الوجود المستقبل مُنحت له من قبل. وأن يتلقى أنواع الوجود هذه التي تعود إليه مع أنها تنبثق ممّا هو فحسب، هنا، في طريق الصيرورة إليله. كائن الممكنات، وحده الشكل الإهليلجي والمماثل يشكّلانه بواسطة التكرار باعتباره تجاوزاً في اللغة: «كعبة»، «بيت الله»، «سعي»، «رجم الشيطان»، «أُضحية»، «موقف أمام الله»، «وقوف أمام الله»، «جبل الرحمة»، «الاغتسال من الذنوب»... إن الانفعال الحقيقي للغاية الذي يثيرني قريباً جداً من الحجاج المستغرقين في تحقيق مشروع روحي، هذا الانفعال ناتج عن وعد بالتلاقي بين «الفكر والمتحرّك». قوّته مستمدة ربما من يقظة في ذاتي لتنظيم عتيق يتخذ أشكال التوقف، والانطلاق، وتعاقب الفواصل. هذا الترسّب القديم، أحسّه هنا، يعمل عمله. مماثلاته تفتنني. تبعث لي بالإشارة متعمدة دائماً أن تبتعد. تحكم علي بالتجاوز في اللغة؛ أن أتكلّم بالمجاز.

الفصل العاشر

ذاكرة التَّناهي

لا أستطيع نسيان رائحة الدم والعرق الحيواني. تسكن منذ أمد بعيد حاسة شمي. تعود البارحة بقوة، يحملها نسيم الليل. عند العودة من عرفة، في اتجاه منى، في الحافلة المكتظة المخصصة لنا منذ مكة. نختنق كالعادة في مقاعدنا الضيقة. رجال، ونساء، وأمتعة تحتل هياكل الأرائك، والممرات، والفضاءات قرب الأبواب. تشبّثت بالعمود المركزي، وحقيبتي على الظهر. كل واحد منا، بعد اجتياز لحظة الصلاة والاستراحة في منتصف الليل بالمزدلفة، يغالب النوم بقدر ما يستطيع، محتضناً التسع والأربعين حصية الملتقطة للرّجم. لم يكن علينا أن نقطع سوى أربعة أو خمسة كيلومترات لبلوغ مخيّمنا في منى، لكن حافلتنا كلما انطلقت مرة تتوقف على الفور بعد عشرة أمتار. اختناق السير على الطريق السيّار على حالٍ تجعلنا نقضي معظم وقتنا متوقفين.

ونحن نسير، بدأت أشمّ رائحة الخراف. ثم أبصرت المآوي الأولى. تقوى الرائحة بقدر ما تتوالى حظائر البهائم لا نهائياً تحت بصري، أسفل الجبال التي أحدس تضاريسها الحادة. على مسافة قليلة من الطريق، تقضي القطعان هنا ليلتها الأخيرة، جامدة تحت نور كهربائي ضعيف. بإمكان العين الإحاطة بالصفوف المتراصّة ذات الأشكال المدوّرة المائلة للبياض، التي تضمحلّ في البعيد. ترفع خرافٌ رأسها عند مرورنا. بعضها ينظر إلينا بهذه الهيئة من القلق المستسلم التي تتخذها الحيوانات الأليفة عند اقتراب البشر.

احتفظت ببعض الذكريات عن الأشكال التي اتخذها شبابي. مثل براعم

تحقق ذاتها بالاندفاع إلى ما هو أمامها. هذه الأزمان القديمة أزمان الحقول المتشققة، والنبتات التي تشرخ قشرة الأرض باستمرار صامت وخارق، شعير يرتفع، حصائد ذهبية سرعان ما تقطعها أذرع قوية، حيوانات تمرح، سكرى بالحياة. نظرة الدواب المحصورة في الحظيرة هذه كنت إذن أعرفها جيداً. أرى من جديد أشكال الهروب، والهلع، والنظرة المتسائلة للدواب المقبوضة للذبح في المجازر التي أرتادها. أسمع الثغاء المؤلم، هذه التوسلات الصاعدة نحو السماء مع بخار الدم الساخن ورائحته. هذه المشاهد نفسها ستتكرر إذن في الغد، يوم الذبح؛ ملايين من الكائنات الحية تنتظر ذبحها.

في منى، للحظائر مظهر معسكر اعتقال حيواني ذي أحجام عملاقة: مليونان، ثلاثة، أربعة ملايين رأس أو أكثر. حشدٌ هائل من الحجاَج يتهيأون لأداء فريضة الأضحية بذبح «الهَدْي»، يُضاف إليه أضحيات الكفارة أو الصدقة. عبثاً حاولت ترديد ما يفصلنا عن الحيوانات الوحشية والداجنة، عبثاً حاولت تمديد هذه المسافة بالتفكير في الأنواع التي لا وجه لها ولا لغة، عاجزة، بالنسبة إلينا، عن التعبير عن انفعالات، لكن الروائح الممتزجة للدم، والرّوث، والعرق تخنقني. نحن مجتمعون هنا، لخلاص حياتنا، وهذا الخلاص يطالبنا بإبادة كل هذه الحيوانات. كتلة الحجاج الذين بلغوا ذروة الاستسلام، بعد «مقام» عرفة، والصلاة بالمزدلفة، والرجم بمنى، ستقتل هذه الملايين من الحيوات. قد يكون صحيحاً أنني لمّا أرى حيواناً أرى فيه أولاً النوع. لكن كل ذبح يضع حداً لحياة فريدة فرادة حيواتنا البشرية: فعلُ عنف، وباختصار «جريمة قتل».

مشهد هذه الملايين من الخراف، موقوفة التنفيذ، يوقظ مشاهد أخرى. أرى من جديد الحيوانات المذبوحة في المجازر. يعود أيضاً النحر في عيد الأضحى، بين الأسرة وسط البهجة. ثم، شيئاً فشيئاً، الرعب الذي يستبد بي كلما سمعت الحشرجة الختامية للدواب. من جديد يلحق بي المألوف بأحد وجوهه التي لا تُطاق. منبعه هنا، وبمقدوري إدراك تياره، لكنه يتوارى بقدر ما أقترب منه. أبي كان يذبح باسم الله، وباسمنا جميعاً، ومن أجل سعادتنا. يداه اللتان تُميتان تعودان إليّ، طفلاً ذكراً، رجلاً لم ينضج بعد، في يقين

الرابطة، والنظام، والامتداد. أهذا ما يسمونه تقليداً؟ قصر أمتلكه، لكن بمبادرته هو لا بفضل حقٍّ أكون قد طالبت به؛ يفتح مقصوراته المسحورة فقط، لكن بغتة ومصادفة عند منعطف.

هذه العودة للمألوف في صورة الغريب تتقسّمني. كل شيء يصير متردداً: مشيتي، صوتي، نبرة أحاديثي مع الآخرين. مشهد هذه المحتشدات الحيوانية المنذورة للتدمير يُفسد نهائياً مشهد الأب الشيخ المتوحد، وهو يقدم ابنه ذبيحة مستجيباً للأمر الإلهي. تلك الصورة تدرج التعاسة في معجزة افتداء الحمل للإبن. لا شك أن لتحديث الحج دوراً في ذلك: حظائر موسعة، فضاءات مسيجة، توزيعات متعامدة، أنظمة أمن ومراقبة دون ثغرات. كل عالم محبوس في معسكره. الكتل الحيوانية في حظائرها، وغير بعيد عنها الكتل البشرية في مخيماتها المحاطة بسياجات حديدية عالية، على طول دروب مرسومة بانتظام. لا شيء ينبغي أن يُفلت من هذه العقلية. جولان سيارات الشرطة والدورية الدائمة لطائرات الهيلكوبتر يكملان اللوحة. هذا النظام سيتيح للكتلة البشرية تدمير الكتلة الحيوانية باسم الله. وللوهلة الأولى، لا يبدو أن الحداثة قد غيّرت من الأهداف. لكن قد لا يكون هذا سوى في الظاهر، لأنها بتغيير المقاييس، والإيقاعات، والمواقيت، والأجهزة، وبتكثير التدابير، قد أصابت ربما طرائق ممارسة العقيدة.

في جهاز الدولة ـ الأمة هذا الذي تزيّا بزي التقوى، يواصل الحجاج الصامتون المثابرون الطقوس. لم أحصل إلا على نُتَف جواباً عن أسئلتي أو في الأغلب على تصرفات انكماشية: «نحن هنا للعبادة»، أو أيضاً: «ينبغي القبول بكل محنة كتضحية في سبيل الله». أما الانتقادات فموجودة، ومن ألذع ما يكون. كثيرون، مع إلحاحهم على الأمن، والتجهيزات المريحة، وتوافر التموينات، وجودة البنيات الأساسية، يعانون الانحصار، وعنف المستخدمين العسكريين والمدنيين، والقيود الصارمة على حرية القول والحركة، والمراقبة على الدوام. لكن قليلاً من النساء والرجال يقبلون الجهر بآرائهم. بعض رفاقي الذين لي بهم مع ذلك معرفة طويلة الأمد، لا يرغبون صراحة في الاسترسال في الحديث عن «هذه الصعوبات». كل ما يحدث هو

جزء من الحج، وينبغي قبوله كما نقبل الواجبات الدينية. «نحن هنا من أجل الحج وكل واحد يبحث عن خلاص روحه»، هذه هي اللازمة المتكررة. وهكذا، فهم يذكرون هنا بتجرّد عن الدنيا؛ وبعبارة أخرى، تجرد الحداثة الوهابية التي غيّرت أحكام الشهادة. انكماش مخاطبي لم يكن هروباً داخل سريرة يمكن معارضتها بامتثالية خارجية، تتطلبها أجهزة الدولة. بل يؤسس أمراً واقعاً وصيغة للحياة في الحج.

«نحن على سُنّة إبراهيم»، قالها لي سالم، وهو تاجرٌ من تازة، لا يزال شاباً وميسوراً نسبياً، أرافقه في صباح يوم عيد الأضحى نحو المكان الذي ينوي ذبح خروف. حصل تقاربٌ بيننا على مر الأيام لأننا نرقد جنباً إلى جنب تحت الخيمة الكبيرة المستعملة بمثابة مسجد. أخبرني سالم أنه قد جمع مبالغ هامة (ما يقارب سبعين ألف درهم) لمواجهة النفقات، وخصوصاً شراء الهدايا وحفل العودة. يعلم أنني قد دفعت الثمن لشركة خيرية لتنوب عنّي في ذبح الأضحية، فلم يكن واجباً علي إذن الذهاب إلى هناك، لكنه اقترح عليّ مرافقته. أثناء السير، لم يكفّ عن ترديد: «سنذهب هناك حيث ذهب إبراهيم. نسير على خطاه المباركة ونقتدي بنبينا الذي سار على سنة إبارهيم، خليل الله. ونحن نقتدي بهما، والله يتقبل أضحيتنا!». هذا التكرار، الذي كان دعاء وذكراً، لا شك أنه يقصد به نفسه مثلما يقصدني. اتباع خطوات الأنبياء شخصياً، تعلّمت كل هذا في الكتاب القرآني. كان علينا الشهادة على فعلهم بفعل. كل هذا الحشد المتحرك يُفعّل التفتح المتكرر لعالم بواسطة شهادة. ما عادت حياتنا اليومية تتجلى إلا بهذه الطريقة: كأنها تسير على خطو الأنبياء!

على سفوح هذه الجبال السوداء المقفرة، في وادي منى الذي نمشي فيه كأننا نقصد أبواب الآخرة، التجارة على قدم وساق. البدو قساة في المعاملات التجارية والحجّاج المغاربة ليسوا أقلّ منهم قسوة. أتأمل حظائر الدواب المخيفة التي حاذيتها لما استشارني رفيقي حول كبش جيد قد انتهى من اختياره. نحن في مجزرة ذات أحجام فوق المعتاد حيث الدواب تنتظر الإمساك بها لتقديمها لناحري الأضحيات في بذلة خضراء. دون أن ينصت إليّ حقاً، أنهى صديقي معاملته، وسلم الذبيحة لرجلين أمسكا بها ومدداها على

جنبها في اتجاه مكة. بعد دعاء قصير وبعد التكبير، نحراها بحركة واثقة وسريعة، قبل تعليقها على أحد القضبان المتحركة من أجل السلخ. على كل واحد من هذه القضبان، الذبائح معلقة على مدى البصر. أنا، كالعادةن منذهلٌ من مشهد هذا العنف الساكن في قلب الشعائر، يضاعف من ذلك أن هذه الشعائر تعيدنا إلى الله في السلام. وبينما الذبيحة تهمد، استطعت الانتباه للبقية. سُلخت الذبيحة، وأفرغت من حشوها، وقُطعت. أخذ منها الرجل الذي أرافقه بعض القطع وكذا الذنب. رشّ قليلاً من الملح على هذا اللحم، وجعله في كيس من البلاستيك، وقبل أن يأخذ طريق العودة، سألني هل أرغب في أخذ قطعة من الذبيحة، التي سيُترك معظمها للصدقة. ولمّا رأى أنني أمتنع، لم يلحّ وولاّني ظهره حانقاً.

استأنفنا، في صمت، الطريق إلى المخيم. توقف رفيقي فجأة وأجبرني على التوقف. حدّق في: «أنت ترى، أحمل هذا مع ماء زمزم إلى البيت. هذا أفضل من كل الهدايا. وكل خيرات هذه الدنيا، باروك الحج. الله يعطينا بركة النبي ولجميع المسلمين!». اكتفيت بترديد آمين، مستأنفاً المسير، جائلاً بنظري في هذه التضاريس المتعرجة، التي تبرز بقوة في ضوء الصباح الشفّاف. وفي البعيد، تندفع نحو السماء القمة التي هبط عليها الملاك ليشق الستار المألوف للعالم. هناك حقاً، على جبل ثور، حيث رؤيا قد أذهلت أحد أفراد قبيلة قريش، وحيث أمره الملاك بأن يكتب، وأن يقرأ، وأن يقول...؛ من هناك انطلق على عجل، هارباً من هذه الأماكن مأخوذاً بالخوف والرعشة.

كانت الشمس قد ارتفعت حين اقتربنا من المخيم. سرنا وسط الحشد صامتين. سالم يعلم أنني قد دفعت في المدينة ثمن أضحية باسمي. ألهذا السبب سألني قبل أن نفترق إن لم أكن أرغب حقاً في أخذ قليل من «بركة الحج»؟ أجبت أن المهم عندي هو تأدية الشعيرة، والتفكير في موضوع إيماني، وأنني، كما قلت له، سأكتب كتاباً. لديّ انطباعٌ أنها المرة الأولى التي يدرك فيه سالم حقاً المشروع الذي يوجّهني. لم يُخْفِ عني دهشته: «التفكير... لكن ألست على عقيدتنا؟ على كل حال، كل واحد ونيته». كم مرة تردد علي هذا السؤال! فعلنا كل شيء في الاستعجال والرّكض؛ لأن

الذبيحة والرجم الذي يسبقها لا يصحان إلا إذا أُنجزا في الصبيحة، حتى يمكن الذهاب إلى مكة للطواف، والعودة بعد ذلك إلى منى قبل صلاة المغرب. انطلق صديقي على الفور. أما أنا فقد اخترت، مثل آخرين كثيرين، الحل الثاني: البقاء يومين إضافيين في المكان، والانتهاء من الرجم قبل العودة إلى مكة. تحت الخيمة، وجدت موظفاً شاباً من سطات قد قام بحلق الشعر الواجب بعد الأضحية.

قررت أخذ لحظة من الراحة. وظللت مع بعض الجيران الذين التقيتهم هنا متمددين، مستحضرين في حنين يوم العيد هذا في المغرب. قال فلاح شاب من بنكرير: «ثمة، ما كاين غير شخّ! شخّ!» يكرر الصوت ممراً سبابته على الحلق، محاكياً بذلك الذبح. أخذنا جميعاً نتحسّر على القطبان، والمشوي، والطواجن، والرؤوس المبخّرة! «آه على رأس الخروف المبخّر، مع ما يكفي من الملح والكمون... الله يلعن الشيطان! هذه ساعة الصلاة!». تفرّقنا على الفور للوضوء والالتحاق بصفوف المصلين، في بداية الظهر.

رغم أن الحمّى زالت، فقد نالت من قواي. انفعال الذبيحة قد تلا إثارة الرجم الأول [الجمرة الأولى] الذي قصدته مباشرة بعد صلاة الصبح. غادرت المخيم منفرداً. والمجموعة التي التحقت بها، ليس دون تحفظ، عند الانطلاق من المغرب، تكشفت عن تنافرها، ولا أفق لديها سوى ممارسة دينية قصيرة النظر، متيحة للبعض تقريباً كل أشكال الطموح ومحررة غرائز الكسب. المدينة ومكة تستجيبان بعرضهما التجاري لهذه المادية المقرونة بعدم إحساس بالخطأ. انسجمت أكثر مع زوجين من الحَرفيين الميسورين تعارفت معهما في منى. هما واعيان بما يمكن لممارسة دينية معتدلة أن تجلبه لحياة الناس، وكانا أكثر تسامحاً. الشكلية التجارية لنساء البرجوازية . اللواتي يوزعن وقتهن بين العبادات، والمواضعات المجتمعية، والأعمال .، مُضافة إلى التصرفات المتسلطة للتقنيين الذين يستمدون تديّنهم من الكتب المدرسية، قد أكملت إبعادي عن صحبة مجموعتي. ولمّا لم أعد أقضي أي منسك مع أعضائها، وجدتني إذن في شوارع منى، أسير وحيداً تماماً نحو جمرة العقبة، على طريق مكة. ينبغي لي بلوغها من أجل الرجم الأول.

مشيت وسط حشد كثيف، بين تخييمات مرتجلة في الشوارع، والأسواق، وسيارات الأجرة، والحافلات. لما وصلت أخيراً إلى الجسر الذي عليّ أن أسلكه، توقفت فجأة، مأخوذاً بالخوف، وبرغبة لا تقاوم في العودة على أعقابي. ظللت لحظات راجفاً يكسوني العرق، وإذا بي، بغتة، أنقذف في الحشد. لم يدفعني أحد. جسدي هو الذي قرّر ذلك. ما عدت أفكر في شيء، منساباً في المد البشري الذي يتكاثف من حولي، ذاهباً بي إلى الأمام، متأرجحاً يميناً تارة، ويساراً تارة أخرى. أحسّ التيار يجرفني كقشة تبن. وفي الفوضى، أتلافى كيفما اتفق العثرات وأتجنّب التصادمات. يلزم أيضاً الاحتراز من المجموعات التي تصعد التيار بدل أن تتبعه، في خرق كامل لتعليمات السلامة. كلما اقتربت من الهدف، غمرني الحشد وراح يحصرني إلى حد أن قدمي لم تعودا بتاتاً تلمسان الأرض. بحثت ووجدت غير بعيد عني رجلاً شاباً متين البنية. رميت بنفسي تجاهه. طمأنني الصدِّيق، ذلك هو اسمه: «ابق معي، لا تخف... من أين أنت؟ أنا سوداني، تعال!». أخذني من يدي. غصنا في الحشد الذي يدور، مثل دوامة هائلة، حول الجدار الأسطواني الذي يحمي العمود على هيئة مسلّة. أثابر، وراء الصديق، على التسديد نحو هذا العمود. أرمي بحصيّاتي في اتجاهه، واحدة فواحدة، بنداء «الله أكبر!» والحجارة، في طقطقة مخيفة متواصلة، تتراكم حوله. عند المحاولة الأخيرة، عثرت وسقطت. جذبتني يد الصدّيق المغيثة، لاهثاً، في ركض سريع، خارج الدوامة. عانقته قبل أن أرتمي على الجدار الصغير للجسر، لأستردّ أنفاسي. عدت بطيئاً إلى نفسي، لأكتشف أنه لم تعد لي شمسية، وأن كسوة الإحرام تمزّقت أسمالاً، وقد فقدت نعلي، وقدماي داميتان. على طريق العودة، أسفل الجسر العملاق، تجّار يعرضون نعالاً مرصوفة في أكوام. كثير من الحجاج يأتون، مثلي، لتعويض الزوج من النعال الذي فقدوه وسط الحشد الدائر.

من الواضح لنا جميعاً أننا على سنّة إبراهيم واسماعيل، ونسلك السبيل الذي خطّه محمد، نبي الإسلام، الذي، كما يقول التقليد، قد استأنف تعاليم الجد الشيخ. ديننا، كما علمونا ذلك دائماً، هو استئناف واستعادة، بعد فترة طويلة حيث تردّت الديانة التوحيدية في الانحطاط: الجاهلية، حقبة الوثنية

والجهل. إننا بأدائنا لهذه الطقوس، نحتذي خطوات النبي، كما احتذى هو خطوات من سبقوه. مضت قرون بينه وبينهم، بين الذي سنّ الحج وبيننا. نحن ورثته، رغم اختلاف الغاية ورغم اختلاف السنّ، والجنس، والعرق، والجنسية، واللغة، والطبقة... أثناء يوم الذبيحة هذا، تواصلت سلسلة الأموات بأولئك الذين جاؤوا ليتعلموا من جديد أن الاستبدال ليس إلا مؤقتاً. هذه السلسلة، يمكنني كذلك أن أتصورها على هيئة طابور بشري يلتف في دوائر حول نقطة انطلاق معلقة بالمكعّب الأسود.

نفعل إذن كما فعل الأنبياء. لا وسيلة للالتفاف على «كما» هذه، لأننا لسنا أولئك الأنبياء. وسيكون من الانتهاك التفكير أو السلوك بطريقة مغايرة إلا باحتذاء مثالهم. وقانون الحج، متوقعاً أشكال ضُعفنا، قد حدد الإخلالات الكفيلة بإبطاله، والتي ينبغي التكفير عنها بدم ذبيحة، أو الصوم، أو الصدقة. وإذ نتبع مثال أبطالنا، فنحن نعلم أنه لا تطابق بيننا وبينهم؛ وأن كل جهدنا أن نقترب منهم مع التأكيد من جديد على اختلاف غير قابل للاختزال. فضلاً عن أننا، نحن المغاربة، أتباع المذهب السني المالكي، نعلم جيداً أن التزاماتنا ليست تماماً نفس التزامات المؤمنين المنتسبين إلى مذاهب أخرى. نحن إذن على الطريق نفسه، لكننا لا نسلكه تماماً بالطريقة نفسها. وهكذا فالنموذج نفسه لا يتجلى بالسمات نفسها؛ لأنه حتى لو كانت الاختلافات ضئيلة جداً، فالحجّاج يتمسّكون بالمذاهب السائدة في طوائفهم. وعلى طريقة تدوين مستمد من تأويل، فإن تلك المذاهب تتحكم في السيرورة الطقوسية بواسطة تأويل ثانٍ.

نتصرف محاولين مطابقة فعلنا لمثال ولنموذج. نتصرف وفقاً للنموذج. لكن هذا النموذج، من جهة، لا يُستنفد، ومن جهة أخرى، وحدها أفعالنا هي تحققاته الملموسة. فالنموذج، من هذه الجهة، يتعذّر الإمساك به، ويمتد أمامنا، بقدر ما نسير إليه. وهكذا يتشكل النموذج والفعل معاً، أو بالأحرى، يحيل أحدهما على الآخر باستمرار، في تقابل يؤكد انفصالهما. وبهذه الحالة، فكل منهما لا يتجلى إلا في ما يتجاوز ذاته. الحقيقي، كالمثالي، لا يمكن أن يتطابق مع حدود التشكيلات المحسوسة. كان تتالي الأفعال، من أوّلها إلى

آخرها، الهادفة إلى خاتمة الحج، بعد مقام عرفة، يرتسم في هذه الهالة الفائضة، مستبقاً صياغات مقبلة: «إعادة وصف» دائمة لنظام الأشياء.

كل شيء يقذف بنا في هذه الدينامية: التجمع لا لغاية سوى الطقوس، الأماكن بحمولتها الأخروية وفواجعها المتراكبة الشاهدة عليها ليل نهار؛ الصلوات، والطوافات، والجولات في الأسواق، والانطلاق نحو منى في نصف الليل، والعودة من عرفة في الليل، وجمع الحصيات في المزدلفة بعد صلاة الليل والعودة إلى منى في الفجر، لاستئناف طريق الرجم، والذبيحة؛ وأخيراً الركض نحو الطواف. الوفيات الكثيرة جداً والمعلنة بانتظام، أخبار حجاج يفقدون معالمهم فيتيهون ولا يُعثر عليهم أحياناً إلا بفضل أبحاث الفرق المتخصصة، كل هذا يجعلك تسمع المزيد في ما يُقال، وترى المزيد في ما يُرى، وتتأمل المزيد في ما يفكر فيه.

يستطيع كل واحد أن يقرأ في كتيّبه: «رمي جمرة العقبة». لكن يُقال كثيراً: «رجم الشيطان». يمكنني أن أكتب. أقرأ. «رمي الجمرة = رجم الشيطان»، أو «رمي الجمرة» يقوم مقام «رجم الشيطان» أو أيضاً «يقال رجم الشيطان بدل رمي الجمرة والعكس». أعرف المعنى المتداول لـ«رجم الشيطان». غير أنه لا بد من التسليم أن الرجم والجمرة لا يتوافقان في مدلولهما المتداول. لكن ما شأن «رجم الشيطان»؟ الأمر أصعب في هذه الحالة. يُقال أيضاً «جمع الحصى لرجم الشيطان»، وهي عبارة شائعة. أثناء نقاش مع جماعة من الحجاج في الأطلس الكبير قرب مراكش، قال لي الحاج علي: «يمكن أن نقول رمي الجمرة. والواقع أن ما نرجمه في ذلك الموضع هو الشيطان. وهو الذي نهزمه هناك وفي نفوسنا». هذا المفسّر من العدول. تعلّم في الكتاب القرآني قبل أن يلتحق بمعهد للتعليم الأصيل لدراسة علوم الدين. تعارفنا عن طريق صديقي لحسن. وزرته بمكة في مناسبتين أو ثلاث، وبالطّبع انتهزنا الفرصة لتبادل انطباعاتنا. روى الحاج علي مرة أخرى قصة الذبيحة: الرؤيا والأمر الذي تلقاه إبراهيم بذبح إسماعيل، ورضى الإبن بذلك، والمسير إلى مواضع الذبح، وظهور الشيطان ثلاث مرات «مستخدماً كل مفاتن الحياة» لتحريض الابن على العصيان، والتخلي عن هذا المشروع.

ثمّ، الجواب بالرجم... الجمرة لم تكن الشيطان، لكنه هو الذي نرجمه حين نرمي الجمرة. الجمرة والشيطان ينبسطان في تعدد دلالي لا نهاية له. بمقدور الشيطان أن يتجلى في أشباه، وقرناء، وأقنعة والتباسات لا محدودة بقدر ما هي مخيفة. إذا كانت الجمرة اسم جنس، فالشيطان هو في الأغلب اسم علم. غير أنّ هذا الاسم قد يأتي بصيغة الجمع ويشير إلى مجموع من الأفراد، مثل اسم الجنس. والاسم الآخر، إبليس، قد يأتي أيضاً، لكن بصورة أقلّ، في صيغة الجمع. لكنه يستعمل كذلك بمثابة اسم علم، وهنا لا يدل على صنف إلا بقدر ما يمكن لاسم «الله» أن يدلّ على صنف. يشترك الشيطان ـ إبليس مع اسم جمرة في خصيصة تصنيفية مع إشارته، على غرار اسم الله، إلى صورة وحيدة. غير أنه على مستوى التداول، لا يوجد اختلاف بين جمرة، أو الشيطان، أو الرجم، أو أيضاً الحصاة بحجم حبة فول المفروض علينا التسلح بها وفقاً للفريضة. وأيضاً ليس الاختلاف والصلة بين المرئي واللامرئي ـ وبصورة عامة، المدرك واللامُدرَك ـ هو موضع السؤال. الشيطان، وهذا بديهي، حاضرٌ نشطٌ دائماً. أعرف العلامات والأعراض التي تتيح التعرّف إليه، وهذا في إجماع نسبي مع مخاطبي. وبالمقابل، يتصرّف هؤلاء رداً على فعل يثبتون حقيقته باعتباره كائناً بواسطة الفعل، بينما أقتصر أنا من هذا الكائن على جهة التجربة ومعرفة معينة.

ما هو إذن الفعل القائم على رمي الجمرة، ورجم الشيطان؟ ليس بيننا ـ مخاطبي وأنا نفسي ـ خلاف حول هذه النقطة: نرجم عموداً بحصيات «بحجم حبة فول». ونعلم أن حجمها تابع لقرار اتخذه مفسّرو القرآن. رجم الشيطان برجم ذلك العمود ينبغي فهمه بمعنى أن القيام بأحدهما يعني القيام بالآخر. وبعبارة أدق، في هذا السياق، نجعل إرادتنا في توافق مع إرادة الذين كان عليهم، في ما يروي التاريخ، أن يهزموا الشيطان. وفي مثل هذا التوافق، مفهومٌ أن تكون قذائفنا بحجم حبة فول: من السهل جمعها ونقلها، إضافة إلى خفض الخسائر حين يخطئ الرمي هدفه فيصيب حجاجاً آخرين. وبعبارة أخرى، كل هذه الحركات هي من نمط «أن تفعل مثل». الحجاج يفعلون مثل إسماعيل ـ لا برمي حجارة في اتجاه عمود، لأن ابن ابراهيم، جدّ العرب،

لم يهاجم عموداً. فحجارته، التي لا يُحدد حجمها، بعكس حجارتنا، كان يقصد بها ضرب وإصابة الشيطان نفسه. ومن ثم، صار ممكناً توافق الإرادات مع إرادته، أو على الأقل (تلك كانت حالي) في حال الشك والبحث الحياتي، التعرّف إلى هذا الفعل والتوافق معه على سبيل التضامن.

وفي كل الأحوال، إذا فعلت شيئاً وأنت تفعل شيئاً آخر، فذاك هو الفعل بالمجاز. انتشار: تسلسل بمعنى الذي يباشر العمل مع الابتداءات، والتلافيات، والمجازفات، والمصادفات السعيدة أو التعيسة، وارتيابات المسار. في المكان حيث تنتصب جمرة العقبة، هناك على الأقل توجد المعرفة المشتركة. تجلّى الشيطان لإسماعيل ليجهض مشروع الذبح بتحريضه على العصيان. هذه المواجهة لها علامتها، أثرٌ يستدعي وصية.

«يوم العيد، بعد أداء صلاة الصبح وارتفاع الشمس، عليك بقصد جمرة العقبة التي هي الكبرى والأخيرة على طريق مكة ورميها بسبع حصيات بحجم حبة فول. وعليك أن تصيب العمود حتى لا تذهب الرمية وراءه أو إلى جانبه».

كل رمية ينبغي أن تسبقها صيحة «الله أكبر»؛ صيحة التضحية، والاستشهاد في ساحات القتال، والذبح. صلاة الصبح قد ختمت هذا النذر. والزمن الذي يفصلها عن صلاة الظهر هو زمن المسير نحو الهدف. نحن على آثار الأنبياء. لا بد إذن أن تصيب حصيّاتنا العمود بالطريقة نفسها التي ضربت بها حجارة اسماعيل الشيطان. غير أن حجارتنا محسوبة، سبعة في رجم اليوم الأول وسبعة عند كلٍّ من الجمرات الثلاث، في اليوم الثاني والثالث، بين صلاة الصبح وصلاة الظهر. الرمي بالطريقة نفسها يعطينا تصوراً، وثوابت علينا العثور على شكلها، وأبعادها، ومقاييسها. كيف يمكن الاهتداء، في قلب الليل، إلى حصيّات بحجم حبّة فول؟ المهم إذن هو تقدير حجم حبّات الفول وحجم الحصيات معاً. مليونان من المؤمنين مارسوا هذه المقارنة في الظلام، في إرهاق حياة لا تكف عن الحركة حيث الليل والنهار يتداخلان، بعكس تيار الحياة العادية. كل واحد إذن يخلق حبات فوله وحصياته بحجم حبة الفول... كيف نفهم أيضاً أن القصة تذكر ثلاث عمليات رجم في فعل

متصل بحسب الظاهر، في حين أننا ملزمون بأن نرجم خلال يومين أو ثلاثة (على الخيار)؟ بالطبع، القصة والشريعة لا تحدد إحداهما الأخرى. بل بالأحرى، ينبغي أن نرى أنهما تستحضران كليهما بحيث أن ما نفعله دون شك شيء مشترك مع ما كان إبراهيم وإسماعيل قد فعلاه، لكن فعلنا مع ذلك لا يمكنه أبداً الطموح إلى المقارنة به.

وبالفعل، فقد رجم اسماعيل الشيطان نفسه. أمّا نحن، فنرجم عموداً. كان وحده مع أبيه. ونحن ملايين نتجه نحو ذلك الشيء، ونرميه بحجارتنا مع صيحات «الله أكبر». تلك حقاً صيحة التضحية العظمى وكأننا نهاجم عدواً خفياً. تلك الصرخة موجهة إليه، على سبيل التحدي: صيحة الشهيد يرضى بالموت لإحباط العدو. نحن، مثل اسماعيل، نطرد الشيطان ذاهبين لتلقي الموت الذي وهبه الله وأمر به. لم يتم إفناء الشيطان؛ كان مهزوماً مطروداً. هذا النصر يتلوه الابتهاج، تعبّر عنه عادة دموع الفرح. نتبادل هذا الإحساس بالرضى العميق، الذي نشعر به عند نجاح المشروع. لا أحد يرغب في إفلات الفرصة. نساء مسنّات، في منتهى الإنهاك، يدفعن مالاً لشبّان كي يرجموا الشيطان باسمهنّ. يسبّحن بحمد الله الذي أتاح لهنّ أداء هذه الفريضة.

خوف، هجوم مسعور، ابتهاج، نصر، إحساسٌ بالانعتاق، أخيراً نبلغ ختام الشعائر والانفراج صار حقيقة. غير أنه عند الجمرة الأولى والثانية في الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة، لا يزال الانفعال بالحدة نفسها. لمّا قصدنا، أنا والحاج عباس مع زوجته، الجمرات الثلاث على التوالي، اضطررنا أن نرفع الحاجة الزُّهرة عدة مرات لننتزعها من الحشد. في ختام هذا الجهد، بلغ بنا الإنهاك أن ركضنا على الفور لنرتمي بعيداً من الجمهور حتى نسترد أنفاسنا. الحاجة الزُّهرة تردّد، دامعة، وبسمة جميلة تضيء وجهها: «أي يوم، أي يوم بديع! رجمت الشيطان! غلبته، أبقاني الله على هذا السبيل!...». لكننا نحتفظ في ذاكرتنا بالطقطقة المكتومة والمتواصلة للحجارة، التي تعلو الحشد كصوت كثيف عديم الشكل: «لكن، هذا صوت القبر!» قالها لي الحاج لحسن في ما بعد، لما رويت له القلق الذي أيقظه في أعماقي ذلك الصوت.

منذ المدينة، أطوف أيضاً في بقاع الموت. ليس في مسجد الرسول، ولا في المسجد الحرام. ولا أيضاً في عرفة ومنى. لا. هذه الأماكن تشعّ بالحياة. الأماكن التي تستغرقني إلى حد أني لم أعد أسمع البتّة صوت خطواتي تنفتح وتنغلق على هواها. في الأولى، أعلم أن الموت مقبل، أنه مستقبلي. وفي الثانية، الموت هو ماضيٍّ وهو موضوع للرغبة. هذا الماضي الذي يعود، لا أقدر أن أقول أبداً إنه قد كان. ماضٍ بصيغة الحاضر والمستقبل، لا تمكن روايته إلا بحكايات. وبنوع من القوة غير المعهودة، يحوّل كل سيرة حياة إلى براعم على وشك التفتح. في أماكن الصلاة، أعلم أنّي أسير إليه، وأنّه، والأمر واحد، يأتي إليّ. في الأماكن الأخرى، يتبعني، يلحق بي دائماً ليطلقني على الفور في نوع من الحيرة الساخرة، مؤقتة ونهائية. أكتشف من جديد وجودي. حقاً لم تكن تلك المرّة الأولى؛ لكنّ هذا الاكتشاف الجديد، الذي يتوضح بمقدار أشكال السعي و«الوقوف» في الحج، يعرضني في مظهر جديد تماماً: رسم غير مسبوق لأنا ملموس، داخل الأفق العريض وغير المُكتشف كثيراً لتناسخاته. ونتيجة لذلك، فنحن نرتسم، حجاجاً بين جمهور الحجاج، في هذه المشاهد ذات التقاطيع التي يُعاد تشكيلها باستمرار. لم أتعمّق نفسي بالاستبطان، ولا أيضاً بوعي قد تعدد، رغم أني أدأب بانتظام في هذا وذاك. بالأحرى، نحن نرتسم، حجاجاً بين جمهور الحجاج، بسبب هذه الحركة من إعادة الاكتشاف التي تجعل من الاستبطان إسقاطاً، ومن الانعكاسية تصعيداً لصورة.

«هيّا لرجم الشيطان!»، «أي يوم بديع! [...] غلبته!»، «لا بد أن تقصد جمرة العقبة [...] وترميها بسبع حصيات بحجم حبة فول...»، «لكن، هذا صوت القبر!...»، «الرجم خطير، نرمي كلنا نحو الهدف نفسه؛ أحياناً تصيب رأسنا حصاة... أرضى بكل شيء في سبيل الله، يلزم أن ننظر إلى الخير؛ مرحباً بكل صعوبة في سبيل الله... السعوديون يبذلون كل ما في طاقتهم، لكن كثيراً من الناس يخلقون الفوضى». «كل هذا الجمهور ملزم بقصد المكان نفسه بين طلوع الشمس والظهر، ورمي الجمرات في توقيت واحد وفي اتجاه واحد، يشكل خطراً عليهم، وقد يؤدي إلى وقوع قتلى، أحياناً بالمئات. لا يستطيع العلماء الاتفاق على توسيع الدائرة [حول الجمرات]... وينبغي لهم أن

يفعلوا ذلك. الله يدعو إلى اليسر في الدين، والله ييسر لنا الأمور دائماً، لماذا لا ييسرونها هم... لا أدري».

بين هذه العبارات، نتعرّف إلى الإرشاد المستمد من كتيّب في الحج. الأمر واضحٌ، شعرت الحاجة الزُّهرة بسرور عظيم بعد أن هزمت الشيطان. كلماتها، ودموعها، وبسمتها لم تثر دهشة أحد. وزوجها يعبّر عن نفسه بالمعنى ذاته، وناسٌ آخرون كثيرون من حولنا. أدركنا جلية الأمر. أنا نفسي، بعد الرجم، أحسست بالارتياح والرضى، اشتركت بنجاح في تراشق جماعي قوي، خرجت منه سالماً ناجياً. كان طبعي وتصميمي في امتحان عسير، لكني سعيد لأنني استطعت الارتماء في التيار البشري لإنجاز تلك الأفعال. الشيطان، بالنسبة إليّ، قد يكون بعض أشكال السلبي، أي الشر. فكري وعملي اليوميان، خارج الحج، يردّان ببذل الجهد للعراك ضد هذا السلبي كلما أمكنني التعرف إليه في السياقات الأشد تنوعاً. غير أن ثمّة اختلافاً كبيراً بين الجهد اليومي من جهة، والجهد المكلل بالنجاح في منى من جهة أخرى. في الإيمائية الكونية، كنا جميعاً متناغمين. إيمائية تؤمر بها: «يجب أن تفعل...»؛ وجيدة التقنين: لا يمكن للحصيات أن تتجاوز إلى ما وراء أو تسقط جانباً تحت طائلة الإبطال. إيمائية الصعود والاعتداد. تحمُّل/ متحمِّل: واجبات، معرفة بالأخطار وتقبّل لها، تضحيات في سبيل الله؛ الإنجاز وإنجاز الذات رغم (مع) خلافات المفسّرين والفقهاء المسؤولين؛ رغم (ومع) معارضة السلطة النصية. افتراض/ مفترض: رمي الجمرة، رجم الشيطان وهزمه، صوت الحجارة: «صوت القبر»؛ صوت: «سبيل».

نفترض، عند هذه العلامة التي هي الجمرة، حضوراً: الشيطان. حضور بعيد وراهنٌ. هذه الجمرة ارتبطت بالموضع حيث كان قد ظهر. لكنه دائماً هنا، في هذا المكان حيث الجمرة تطل على الحشد. هي وهو ما عادا يفترقان. ما إن نصل إليها، حتى يحضر هو سلفاً هناك، لأننا نربطه بها. الرجم إذن علاقة تقذف بي في فوضى القرينين داعية إيّاي إلى فعل الإرادة، متخطياً الشكوك. وبالفعل، هل يوجد تفسير آخر لواقع أنني احتفظت بالذكرى كاملة وبالارتياح اللذين عرفتهما في أعقاب الرجم؟ شيءٌ ما يتجلى نتذوق

اقتسامه، اعترافٌ وتعرّف. أولاً كان الشيطان، أو اسمه، وهذه الحجارة، وهذه الجمرات، وهذه الطوافات المندفعة، واخيراً هذا التجمع الذي وضع حداً لكل شيء. لا شيء أكثر ملموسية من هذا المشهد، غير أنه لا شيء أكثر لاواقعية في الواقع: إنه معلّق بين القوانين المحتومة التي تدبر وجودنا الملموس والوهم الذي يشكلها. وفي ما وراء ذلك، توجد علامات تخاطب كل واحد منا، وتسوقنا حتى تخوم الدلالة.

في تلك التخوم، الأشياء المحسوسة، التي تعلّمنا أخيراً تسميتها رموزاً، تنتج الانفعال في المكان ذاته حيث تُستنفد الدلالة. تلك هي نزعتها قبل كل شيء؛ قبل التعريف أو التعرُّف إلى معضلة، واقتراح عرض وفير من الإحساسات والمقاصد المعيَّنة التي قد تفسد هذا الحشد، أو تُحدث فينا نزوات. بالأحرى، تلك النزعة تشير لنا إلى الوجه المعروف والمتحول في خطورة لأبي الهول والعنقاء. الرموز تعيدنا، نحن البشر، بعضنا إلى بعض. إذا كان لهذه الأشياء حقاً «نوع من العمق الإنساني»، فليس بمقدوري أن أمنع نفسي من الاعتقاد أن ذلك العمق صادرٌ عن حركة الإحالة هذه والتي، بهذا الواقع نفسه، ستظل محاولتها للاستبدال ناقصة دائماً، متجاوزة دائماً.

لا بدّ لي من قبول تجاوزات الأنا هذه. صلاة منتصف الليل، كحالها دائماً، لحظة من السكينة ولا شيء قد كدّر هذه العودة إلى الله. التلاوات والصمت قد أعادا، كما في كل مرة، تشكيل الكون. سِماته مألوفة، لكنها تتجلى في جدة لا تكشف عن نفسها إلا مرة واحدة، كأنما الزمن فيها يعيد التمفصل حول ذاته. تلك الصلاة، وجمع الحصيات، والمواجهة مع الموت التي تعقبها، كل هذه التحولات تنقلب إلى محاكاة للجهد. صلاة الصبح التي تفتتح الفصول الأخيرة من تلك الحلقة كانت هي رفع الستار، في الهدوء والسكينة، على العالم، الذي هو نفسه دائماً، ودائماً يعاد التلفظ به من جديد. ها هو عالمنا، وقد عاد، بواسطة نسج الحكايات، إلى وجوده الأول: حكاية من الحكايات.

هذه الحكاية تكشف عن نفسها، بطواعية، في الطقوس. أو بالأحرى، كلاهما يقبل أن يجعل من نفسه حبكة. تأمر: «افعل كما فعل إسماعيل. اجمع

حجارتك، وهاجم الشيطان، وقدم لنفسك ذبيحة، وقدم نفسك ذبيحة. هذا أمرٌ من الله لا يعلم سره إلا هو». حبكة. وفي الوقت ذاته تقول لي: «كي تفعل كما فعل إسماعيل، اجمع حصياتك واذهب لرمي الجمرات؛ لكنك بخلاف اسماعيل، لست جاهلاً بخاتمة فعلك اليوم. وعلى طريق التضحية، بخلاف إسماعيل، أنت تعلم مقدَّماً أنك ستضحي ببهيمة!». حبكة، محاكاة إذن، خاتمتها مقررة سلفاً. باختصار، لست مثل إسماعيل، الطقوس تُبيّن لي هذا جيداً، لكن لتأمرني على الفور أن أصير مع ذلك مثله؟!... أبطأت في الارتياب بأنني ربما كنت على طريق حبكة أخرى. كلما خطرت الفكرة في ذهني، أبعدها سريعاً، طارداً إيّاها إلى مملكة الظنون. غير أن المناقضة جعلتني أُذعن لها شيئاً فشيئاً: ما تحمله كل حياة بشرية من حكاية يتجلّى أصلها في أفق تناهيها.

الفصل الحادي عشر

ذاكرة العنف

حدثٌ سعيد ختم قصة إسماعيل. نجاح الرجم والذبيحة يكرر حل عقدة هذه القصة التي صارت، في الطقوس، قصتنا. غير أن البداهة تفرض أنّ هذه الدراما تستبق أخرى. والحال أنني إذا انتهيت، بالنظر إلى مصيري الشخصي، بتقبّل هذا الواقع، فالمسافة بين قناعات الآخرين وقناعاتي تمنعني من الذهاب أبعد إلى الأمام. وتفسير هذه المسافة يبدو في الحاضر غير ملائم. القلق بالنسة إلينا جميعاً غير قابل للاختزال، رغم أنه غير صادر عن المنابع نفسها عندهم وعندي. ذلك أن أمل الخلاص يتعايش مع الشك، الوجه الآخر لمآسي الموت وما وراءه. فإذا أحسست بإعادة اكتشاف وجود، فهو وجود رفاقي. وفي العالم المتحرك الذي يتشكل، في تشكيلات غضة دوماً، فلا سبب لافتراض أن أكون معزولاً في الإحساس بمعاينة انبثاق حكاية حياتنا. بالطبع، لم يكن لا المكان ولا الزمان مؤاتيين للنقاش في ذلك، لأن الحبكة لا تنفك تستبد بنا. إن نجاح الرجم والذبيحة هو حقاً استباق للخلاص؛ لكنه لا يُلغي بتاتاً الإثارة، كما لا يأتي بخاتمة أكيدة، مطابقة لخاتمة فعل الأبطال المؤسِّسين. وهكذا تُضي تضحية إسماعيل بضوء ساطع نهايتنا نحن جميعاً، نهاية قد تمت سلفاً لكننا لا نكفّ عن اللحاق بها. الخاتمة السعيدة لتضحية إسماعيل ليست سوى الفصل الأول. إنها تفتح فاصل التوقع فحسب.

الرجم، العنف الذي ينفجر ليس إلا محاكاة لعنف أصلي. لكن الحركة المستمرة بين الاثنين محسوسة. ما إن تمر لحظة الخوف أو التردد، حتى نشرع في ذلك بحمية متزايدة، وحماستنا تتضاعف بصيحة «الله أكبر!» إلى

حد أن العنف المحاكاتي كان عنفاً حقاً، وأن الإثنين يتطابقان. بمعنى الانطباق والتطابق. ويستعير أحدهما من الآخر فاعليته، وكلاهما يجدها في زمن سحيق. العنف، في الهدوء والانفراج اللذين يحدثهما عقب إتمامه، يكشف عن أحد اتجاهاته: إنه موجّه إلى الذات وفي الالتماعات اللانهائية مع الآخرين. مع أجساد الآخرين ووجوههم في المقام الأول. كل صيحة، كل نَضح، كل تقلص وإرخاء، كل ابتسام أو مط للشفتين، كل اختلاجة للعين، كل لمسة، كل تقاطع للصوت أو للنظر: كل شيء يأتي بمثابة فاتحة، ونداء، وردٌ من البعض على الآخرين، على الآخر.

تفسير القرآن وقصص الأنبياء تقول هذا في إسهاب: الشيطان شطرٌ من كل ذات، ذاتٌ أخرى، قرينٌ يكون من الأهمية القصوى التغلب عليه. إنه الأنا الذي يسوق إلى الشر. فلا بد إذن من عنف دائم وملائم لإبطال مفعول هذا القرين، وإحباطه، وإيقافه عند حده. وفي الوقت ذاته، لا بد من قبول الواقع الصلب لحضوره. فهذا العدو الحميم، الذي لا يفنى أبداً، يعاود الهجوم دائماً. توجد وسائل للدفاع ضد الشيطان؛ لكن ليس بالمستطاع قتله.

والحال أنّ الأب والابن، بإزاحته، فتحا الطريق التي تقودهما إلى الموت المأمور به والمُتقبل منهما، ضد رغباتهما الأكثر مشروعية. وأخطر من ذلك: ما تم قبوله ينتهك مرتين، إذا جاز التعبير، القانون الذي سنته الشريعة للبشر، إذ ينضاف قتل الابن إلى قتل البريء. وإذا تنبّهنا إلى أن الذبح يستند إلى الذبيحة، فالفظاعة تبلغ منتهاها: انتهاك المحرّم يعتبر نفسه بمثابة ذبيحة نموذجية ويتضاعف بقسوة جذرية. إنّ العنف ضد الشيطان يفتح على عنف ضد الذات، خارق ودون ضابط. لكن إذا كان الأول يجد تبريره في طاعة الله من خلال الأب. الذي اختار تنفيذ ما أمر به في الحلم.، فالثاني يضطر الأب والابن إلى سلوك ينفي كل الضوابط. عنفٌ مطلق، لا يستند إلا إلى ذاته؛ فهو مظهر لسلطة، وليس صادراً عن عاطفة. كالحقد، والحسد، إلخ، بخلاف قتل قابيل لأخيه هابيل.

هذا يعني القول إنّ العنفين، على صورة الأب والابن وهما يمشيان كرجل واحد حتى منتهى واجب الخضوع، لا يشكلان سوى عنف واحد. في

هذا الأصل، الذي لا يشتبه في أي أصل آخر، يوجد عنفٌ يمارسه كل كائن بشري، على مشهد من الجميع، ضد نفسه. والحشد الحاضر بمنى المستغرق في هذه الممارسة يعلم جيداً أن الابن الذي طال انتظاره هو هبة تمت بعد ذلك المطالبة بها. ويعلم كذلك أن كل هذا الفعل كان اختباراً، وأنه عن المحنة المجتازة جاء اللطف والاستبدال: الإذن بالتضحية بالحيوانات الأليفة وأكلها؛ وأن الأب الشيخ لا يمكنه إلا أن يصدّق حلماً حيث الله نفسه قد أفصح عن إرادته.

عنف نقطة الإنطلاق هذا هو ما يُستحضر في الأغلب. قربان الابن المذبوح بيد الأب ذاتها. هذه هي الصورة التي لا ينقطع التذكير بها في الحج. دوماً تمسني في العمق، وأعيش، والحق يُقال، تذكيراً مزدوجاً. عودته المنتظمة معتادة. وفي الأمكنة عينها، تعود إلى ذاكرتي كما تعود اليوم تصاحب كتابة هذا الكتاب. غير أنها، في منى، تتجاوز كل الحدود؛ الصورة، هذه المرة، بدل أن تطمئنني، تجذبني إلى ما يتجاوز ذاتها. يا للحيرة! لا شيء منذ الآن يحميني من الأشياء، الصامتة دوماً، تلتصق بي أو تعلن نفسها دون مراعاة، كأنها عن طريق نظرتي تندفع داخل وعي دون تقاطيع. هكذا ملايين الحجارة وطقطقة ما وراء القبر تضربني إلى حد أني ما عدت أستطيع تمييز الأوامر، والكلمات، والنور، والحر. كل شيء يأتي في هدير هائل حيث مسالكي المعتادة إلى العالم تتلاشى.

يعود إسماعيل كالصخرة تتلقى الصاعقة. يعود حد السكين مرفوعاً، حد السكين يهوي على العنق. إسماعيل، اسم علم، على طريقة أسماء أخرى: رؤيا، منام، حلم، ذبح، أضحية، صبر، إلهٌ، استبدال... الكلمات نفسها تعود، أشياء من بين الأشياء، أو بالأحرى تعود إلى عنف الأشياء. إلى حدّ أن الصورة لما كفّت عن إعارة وجهها المطمئن لهذا المشهد، تجلّت هذه العودة لعنف الأشياء في حقيقة تلاقٍ جديد. إبراهيم «فارس الإيمان» كما قيل عنه، يعود بعد أن غمس حد شفرته في ما وراء الصورة. وهذا اللقب يعود إليه وحده، لا شرعاً، بل بسبب واقع أستطيع أن أشهد عليه مع آخرين.

لكن كيف الشهادة على واقع آخر للأشياء دون امتياز الإيمان؟ فما للنعمة

من احتمالية، وبالتالي من إفراط، يضطرني لإعادة تشكيل العالم بواسطة علامات أخرى، وأن أخلق، في حال النقص، حكايتي الخاصة عن الأصول. لكن، كما هو الحال دائماً، فالبداية، البدايات تبدو عسيرة. أين وبماذا تكون البداية؟ كل مشهد أوّلي يتوارى أمام آخر. وإزاء كل هذه الحركة المستمرة، والانغراسات الوهمية، فمشهد الذبيحة بمنى، في عاشر ذي الحجة ١٤١٩ للهجرة، يمتلك كل مظاهر حاضر. صعود نحو الأصل انطلاقاً من هذه المظاهر، استباقها، سبقها، والانتشار من حولها. وفي غياب خيار مشروع سيكون، في كل الأحوال، مفرطاً في الحصرية، فالسرد، ومعالمه الضرورية، يفرض هذه الاندفاعات. وعلى غرار بطل الخرافة، السائر في بقاع مجهولة ومسحورة، فالمخرج الذي قصدته في جهة الأمام كان أيضاً مخرجاً خلفياً.

الرعب، الذي أجده دائماً في الموعد عندما أرى رجلاً يذبح بهيمة، تضاعف في أضحية منى، إلى حد أنه فقد اسمه، يسوق الاسم نحو الضياع ويرمي بي في ذلك الضياع. شيء تتعذّر تسميته: الأمر بذبح الابن وتنفيذه يكسران كل دلالة. ويعجلان بكل الانهيارات. منظر مألوف ومع ذلك دون علاقة تبادل مع لغة من اللغات. منظر الصمت. لم يكن ضياع الاسم يؤثر في الانفعال فحسب: في هذا المشهد، الذبيحة هي المشهد الوحيد. مشهد الصمت الذي يتملكنا. وأكثر من كونه مفارقة تتيح العثور من جديد على عالم قد يسكنه الله على طريقته، مُسقطاً القول البشري دون مقاسمته، يدعوني هذا المشهد لتأمل شفافياته دون آفاق، هذه الشفافيات التي هي وحدة واحدة مع الكثافة النكوصية للكلمات.

صورة تضحية الابن، الذبيحة البشرية، الذبيحة الذكورية بعيداً عن النساء، هذه الصورة ذات الخطوط بهذا الوضوح لا تنفك تحتجب بالعتمة. كأن الرسم، وقد نسي طرائقه، عاجزٌ عن معالجة تدرج الأضواء او كأن الغسق، كالعادة في خاتمة النهار، يستسلم لليل آخر. البداهة حاضرة وتتناءى في الوقت ذاته: اختار الله ابراهيم لهذه المحنة في، وبواسطة، منام أو حلم. والبقية معلومة. المنام، وهو حدثٌ ليلي، يأتي بغتة أثناء توقف النشاطات والانشغالات اليومية، لا شيء عجيب في هذا الطارئ. توقفٌ أقل جذرية من

ذلك الذي يحدثه الليل. وعلى أي حال، رأى إبراهيم رؤيا، وبين هذه الرؤيا والمعنى يعترض نوعٌ من الالتباس. أعلن الأب الشيخ أنه رأى نفسه يذبح ابنه. حقيقة المنام لا شك فيها؛ لا يمكن، والأمر متعلق بخليل الله، أن يكون صادراً عن مكيدة شيطانية. لكن الابن هو الذي تحدث عن أمر، بينما كان الأب يروي رؤيا. كلاهما لا يترددان في العمل وفق ما اعتقدا أنه معناها. المنام كان حدثاً حدث لإبراهيم. غيّر حياة الأب الشيخ. كانت هذه الحياة ستتشكل من أحداث معلنة، لكن اتجاهاتها تغيب عنه. ومع أن الإيمان يستنفد معناها، فإن تسلسلها يظل مشروطاً بإرادة الأب والابن اللذين يحتفظان هكذا بالمسؤولية الأشد خطورة. ذلك أنهما لن يكونا على السبيل القويم إلا إذا كانت الرغبة والحب المشروعان للابن تتم معاناتهما كعذاب وألم متحققين. تلك هي ساعة كل الأخطار حيث الأفعال المنجزة تبحث عن هويتها في مستقبل قد جرى سلفاً.

هذا المسار الفريد يلتقي مسار الحلم؛ لكن إذا كان الحلم الفرويدي يتطلب تأويلاً ومعنى، يفسّرهما شخصٌ آخر، للذهاب نحو امتداد ضمن حياة في طور التكوين، فالمنام الإبراهيمي يتطلب أولاً فعلاً في الإيمان للتقدم من حدث إلى حدث آخر، مشكلاً بذلك حياة لا يمكن لتأويلها أن يظهر إلا في صيغة ما سيكون قد كان. لغز الأمر المتلقى يحرك الحبكة التي تفضي إلى الخاتمة المعلومة. لقد افتدي الابن (والأب) بكبش. لكن هذا الزمن المستعاد للخلاص سيحمل في ذاته الميسم الدائم لمهلة، ولتوقف. الأب، الابن، الله، المنام، الشيطان، الرجم، الذبيحة: كل هذه الأسماء تكرر لا نهائياً هذه المهلة، وسيصير الزمن هو تكرارها. ليس انتقال العالم من ما قبل إلى ما بعد فقط، بل الزمن باعتباره تجلياً، في هذا العالم، لعوالم ينبغي التعرف إليها باستمرار. أو بالأحرى، تصديق ثابت ضد كل العقبات، لأن مثال إبراهيم يشير إلى أن الإرادة والفعل يشهدان على هذا الثبات. وأن ابراهيم قد «صدق» رؤياه، كما ينبّهه الله في القرآن، بنداء قد يكون ذا نبرات ساخرة وراضية.

هكذا بدت لي الطقوس من أولها إلى آخرها لغة. ولما كنت حفظت القرآن في صباي، ما كان لي سوى استعادة هذه الذاكرة المنطوقة. ذاكرة

تحرّك ذاكرتي. لكن أي نوع من الاستعادة؟ كيف الحديث عنها؟ كيف ولماذا يعود القول مثل حقل بأخاديد حرثه، والشروخ والمفاصل في الآن ذاته؟ هذه الأسئلة ستعاود الظهور دون شك غير مرة. ولن يتم أبداً قهر تكرارها الإلحاحي؛ كل ما بمقدوري هو الأمل في أن أربح ضدها بعض فترات توقف مؤقتة. بابلي كانت هي بابل العهد الاستعماري؛ لم تكفّ، حتى اليوم، عن تكثير الإلصاقات، والجسور، والسلالم على طريقة [الرسام] إيشر، والطوابق التي أصعدها دون نهاية، بإحساس أنني قريب جداً من مكان وصول لست أبلغه أبداً. في بابل هذه، التي تسكن بيتي، تأخذني اللغات في شفافياتها بعضها على بعض وفي خطوط استهرابها. توجد، في نهاية هذه المسارات، غابات كثيفة، لا بد باستمرار من قلع أشجارها اليابسة لاسترداد أرضها.

أن تكون بابليّ الاستعمارية قد حرّكت عودة المشاهد المخدّدة بهذا القول، والشروخ التي تخترق عقد النسيج هذه، فذلك ما أعرفه منذ زمن طويل. أستمدّ منه متعاً عنيفة، متعة ممارسات مضبوطة ذات نتائج غير متوقعة؛ تأملات متكررة. علاوة على متعة النشاط الخطير وشبه السري الذي توفّره الطاقات التي حررها الإثم. هذه التطورات غير المجدية، وانعدام الاستقرار هذا، وهذه السطوح التي تتحول إلى نتوء، وهذه المنظورات التي ترسم أعماقاً، سرعان ما تعود إلى حال بُقع من اللون على حامل مسطّح... باختصار، مدن بابل أخرى تنتصب وتتلاشى، مسقطة ظلالها بعضها على بعض. لكنها جميعها تأتي أو تعود بـ«يوجد»، ثالث أو محايد، بمقدوري إسناده إلى ضمير المتكلم. ألتذّ بأن أستعمل فيه السمع، والشم والحواس الأخرى.

ربما من الممكن، بدل «أنا»، استعمال «هنا يوجد». ومهما بدت هذه الصيغة غريبة، فإنها تقترب شيئاً ما من اقتران للفضاء والكينونة، وتزاوج الفضاء والكينونة، أي في زمن يكون قد جعل الواحد في الآخر والواحد بواسطة الآخر. وكان الأمر سيتعلق بتعلم العثور على الخطوط التي تجمع وتفصل بين البابلات. إن الطقوس، وهي لغة من أولها إلى آخرها، ستجعلني أرى النقط الممحوّة من رسم رهيف. لكن هذا ليس جائزاً إلا إذا اعتدت حل

الرموز وتأويلاتها في إفراط الأسماء وضياعها. إلا إذا قمت بالتعلم المعكوس لبناء الانفعالات بواسطة الرموز!

الطقوس، لأنها لغة من أولها حتى آخرها، تخاطب كلَّ واحد منا، الآخرين كما أنا نفسي، لأننا نخاطب بها بعضنا بعضاً. نحن، في فضاء منى هذا (كما في كل الفضاءات الأخرى، المدينة، مكة، عرفة)، نتخاطب بكل الأنواع وبكل الأساليب: من الشعر حتى القصص، ومن التفسير حتى الجدل، ومن الشريعة حتى النادرة، ومن العرض التحليلي حتى المديح، ومن المحادثة حتى الصمت. نتخاطب بالمزامير، وبالتراتيل، جلوساً، ووقوفاً، وفي ركوعات إيقاعية، وطوافات متراصة، قوية وهادئة حول الكعبة، أو جامحة ورهيبة في الرجم. نتخاطب بالخطى وبالكلمات على طول الطرقات نحو الذبيحة، نتخاطب بشفرات السكاكين المرفوعة وهبات الموت: بالدماء. هذه الكلمات لا تبحث عن مستقبلاتها في لغة أصلية.. وأقل من ذلك في تنضيد لملفوظات يعتمل فيها نوع من الكوجيتو اللاواعي. ذلك أن الشعائر، كما أتذكر، «تخاطب شخصاً»، تستهدف شخصاً. باختصار، تهتم به كما قد يُهتم بالأسئلة التي يطرحها أو يسائل بها نفسه، وبأمانيه، وبآلامه... مع الالتباس الذي يمكن تبيّنه في العبارة المعروفة عن اصطلاحات المخاطبة، أي الكلمات الملائمة لمخاطبة الوالدين، والجيران وغيرهم؛ والرجال والنساء، والرؤساء والمرؤوسين... وبهذا المعنى، ندعو شخصاً باسم يزدوج مع اسمه، بخطر أن نكتشف، بعد فوات الأوان، أنه كان ينبغي استعمال لفظ آخر. عندما نتحدث عن الطقوس، فنحن لا نخاطب اصطلاحاً غائباً، كما علّمنا بعض ورثة عصر التنوير، بل نخاطب في الحقيقة شخصاً؛ «نُعنى به» وبه باعتباره سؤالاً، باعتباره واحداً؛ باعتباره «مَنْ» لمّا كان... وحدة، هويّة، زمناً. حول هذه الكلمات تعود كل المُساءلات.

في صورة معينة، يحمل السؤال دائماً تنكيراً ذكورياً: أهو المذكر يحجب المؤنث؟ أم أنه محايد قد تجاوز هذه الثنائية؟ إذ يقال مثلاً «شخص ما، لا أدري إن كان رجلاً أم امرأة، قد طرق الباب». قد يكون ذلك، فضلاً عن أنّ هذا يُترجم جيداً (في الإنجليزية مثلاً) بـSomebody أو Someone، متفادياً

بذلك ثنائية الذكر/الأنثى. غير أن السؤال، في هذا الشكل، يظل خاضعاً لتأويل قوي. ينبغي له أن يتخلّص منه بالاستناد إلى «مَنْ». لمن تتوجه إذن الشعائر؟ بمن تعتني؟ بمن نعتني نحن؟ من تستهدف، من نستهدف نحن؟ من يستهدفنا؟ منذ الآن ما عدنا وحدنا، الحشد كله ما عاد وحده. لم يعد كلاً رغم أن له جميع مظاهر الكلية. ينفتح على نقاط أعجز أن أراها، ليس على الشعوب الإسلامية التي غادرناها والتي تنتظر عودتنا فحسب، بل أيضاً وبالخصوص على هذا المكان حيث التساؤل يدور حول «مَنْ». مكانٌ يعرض نفسه دون فضاء، ولم يعد يتقبل أي خارج.

الشعائر، من حيث هي لغة من أوّلها إلى آخرها، تجري في هذا المكان، كاشفة ما ينبسط فيه، كما قد نكشف ما في اليد بإرخاء الأصابع وبسط الكف. الكشف، في هذا المكان، ليس هو الإشارة بالإصبع، حيث إذا ما شئنا الحديث إطلاقاً عن «أشَّر» و«أشار»، يصير من الواجب فهم هذين الفعلين بمعنى «لفت الانتباه إلى شيء ما»: تنفتح اليد وتلفت الانتباه إلى الشيء الموجود في باطن الكف. الشعائر، وهي تتسلسل، تلفت الانتباه إلى ما هو مقولٌ فيها، وما يُقال في كلماتها وبواسطتها، التي نتحدث بها جميعاً وبعضنا لبعض. وإذا كانت الحال هي هذه، فنحن لا نتوقف أبداً عن الشهادة على ما نقوله، وعلى ما يأتي مع قولنا، دائماً بإفراط، مسبّباً التكرار والتفسير حتى انقطاع اللغة.

الرموز هي أولاً تشييدات لهذا الـ«مَنْ»؛ الأنا، والغير، والآخر، والآخرون، والآخر المطلق هي دعوات لهذا الـ«مَنْ»، وإجابات لهذا الـ«من». إجابات تقوم بالتشكيل. وتبرز التشكيلات مع كل واحد من الأفعال المنجزة. ويأتي بعد ذلك التأويل. يبحث عن نفسه فيها وبها. وبتدشينه لتكراراته، فهو لا ينفك عن إعادة تنظيمها من جديد. وهكذا فإنّ النظام دائماً هو ما سيأتي. بدأت هذه المحاكاة منذ مطلع الفجر: رفع الستار الليلي الذي يغطّي عالمنا. تشرق الشمس علينا، على كل واحد منا.

مَن هو هذا النحن أو هذا الأنا؟ الإسلام يقول إن النية فوق كل شيء. الاختلافات لا تمحي. الإسلام يقول لنا فقط إن كل واحد مسؤول وحده عن

اختلافاته. أعرف بعضاً من اختلافاتي. تربّيت في الإسلام، في حرية الحيوات والعبادات القبلية، وفي ما بعد، في حيوات وعبادات الشعب المتمدن، وتعلمت باللغتين العربية والفرنسية. كان النظام الاستعماري يصنع اللغات، والمشاهد، والماديات والأخلاقيات. اكتشفت عند الاستقلال قوميّتي، التي أرجعت القوميات الأوروبية نحو أساطيرها. ولحظة باشرتُ الحج، كنت أيضاً باحثاً في الأنثروبولوجيا، أتابع أفكاراً وتأملات فلسفية. الإسلام، كما قد قلت وكررت على نحو شعائري، هو بيتي، لكني أسكنه كما يسكنه المتشردون. يتجاوزني وأتجاوزه باستمرار. كلانا يعيد الآخر كل يوم إلى غراباتنا المتبادلة. وهذه الغرابات تربطنا بواسطة ذكرى قرابة تتجلى في صُوَر، وهذه الأخيرة كثيراً ما تنصهر في مشاهد جديدة وتُعيد التشكل في لوحات يلزم دائماً عدم الاستعجال في تعوّدها. كنت منذ زمن بعيد قد نأيت عن الممارسات والعقيدة المكتسبة في الطفولة وبكورة الشباب. لكن لدي القناعة، وأنا أنجز تجاربي، أن وجودي يتحول إلى شيء مغاير يسبق ذلك الوجود. أذلك هو الشيء الذي يعنيني في الذي يعني إخوتي وأخواتي، المسلمين والمسلمات، الذين يسكنون، على طريقتهم، الإسلام بيتهم (بيوتهم)؟

يسير إبراهيم وإسماعيل في الاتجاه الذي أعلنه المنام؛ يذهبان نحو الصورة المُنزلة. المشهد هو مشهد عنفٍ يُوقف كل بداية. يصدم كل انتساب ويؤدي إلى طريق مسدود كل إنجاب. يضع الحب بين قوسين ومع ذلك يحافظ عليه تاماً. ولتناقضه، فهو ينبذ الحقد، كما ينبذ اليأس. يعاند كلّ أمل، فينحبس في النظام، وفي هذا الواقع كل شيء محسوم سلفاً. تبقى الثقة، لأن الواقع ينغلق على نفسه لكن مع ممكنات، حتى وإن لم يكن من المُتاح استشفاف أي ممكن. ويضاعف من انغلاقه أنه يرفض حقيقة العالم: النكوص على الأعقاب حفاظاً على الحياة، والعصيان المشروع بكل المعايير الجارية (الإلهية والبشرية). هذه الحقيقة، المشروعة مع ذلك، على الأب والابن تجريدها من أهليّتها، وازدراؤها، وتدمير أشكالها وصورها الجارية. عَرَض الشيطان ثلاث مرات أمام عيني إسماعيل مفاتن الحياة. وبحسب بعض الروايات، فقد أبان له جسده نفسه، جثة مقطوعة الرأس مضرّجة بالدم.

اجتزنا مراحل هذا الواقع الذي جاءا به إلى الدنيا، وهما يتبعان مشروع المنام والصورة المعروضة. وبينما نحن قد عرفنا، منذئذٍ، خاتمة القضية، فهما كانا يسيران نحو المجهول. لكن لا شيء يمنع، بالنسبة إليهما، كما بالنسبة إليّ، أن يظهر، بعكس الضوء، ما كان يرتسم على الخلفية المعتمة للانغلاق: عالمٌ يمكن أن يطرأ بغتة. وهو بالفعل قد طرأ بغتة. استبدال، تعويض، وعدٌ. وبالفعل قد طرأ، مظهراً المستقبل مدوناً في محنة الفعل الماضي.

ونتيجة لذلك، فخاتمة القصة هذه التي تنفتح على الإسطوغرافيا وعلى التاريخ، كما على فلسفات التاريخ توضح أثر الالتزام أو الالتزام من حيث هو أثر. تلك هي ذكرى الذات، منفعلة فاعلة، تمارس العنف الذي هي في الآن ذاته هدفٌ له. يحدث المشهدان واحداً بعد الآخر، مع أنهما سيان. يزدوجان. والزمن كان هذا الازدواج نفسه ومعه تجيء الطقوس، تتهجّى علاماتها. إبراهيم واسماعيل يسيران نحو النهاية: نهاية الابن التي هي نهاية الأب، نهاية الابن والأب. والعنف قد مارساه ضد نفسيهما، نفسيهما من حيث هما أثر اقتلاع و«تقطيع أوصال» لأصل. ذكرى ذات تعيد تشكيل نفسها، تعثر من جديد على آثارها المتخيلة، المستعصية على الخرائطيات، وتبحث عن المعنى في تدوينات محسوسة مباشرة، مؤكدة يقينياً. ربما قد استطعت حدس بعض أسباب تصادي هذه الذكرى مع ذكراي الخاصة؛ تلك الذكرى التي تسكنني، دافعة إيّاي للبحث في ذاتي عن الكائن الذي ما كان هنا، أو على أي حال لم يكن بعد هنا.

الأصل الذي لم يتدخل، والذي لا يمكنه مع ذلك أن تفوته صورة عن تقطيع الأوصال، كما تشهد على ذلك مراحل الذبيحة. وفي أدائها، كان تطور الثيمات يتجسد في اختتامات تستحضر وتصرف الاستهلالات. القصة، القص يناسبان جيداً تناهي الكائن المنبعث لما هو حاضرٌ دائماً فيه، ليس فحسب كمستقبل متكرر، بل كأثرٍ للانبعاث نفسه. فكان طبيعياً أن تبحث الذاكرة عن علامتها في المكان نفسه حيث النهاية والبداية تتطابقان.

مشينا، جاعلين خطانا على خطى إبراهيم واسماعيل، الأب والابن، الأب - الابن، ملتزمين بـ«الوقوف» حيث وقفا. كانت الأضحية، على صورة

الحج برمته، وقوفاً، ممهداً لانطلاق جديد. أبصرتُ قليلاً من النساء في هذا المكان. الذبيحة، مثل ذبيحة إبراهيم، هي قبل كل شيء قضية رجال. هاجر، التي ضحّت بكل شيء، كي يحيا الابن، تظل صامتة وغائبة. وبحسب رواية معروفة جيداً، فقد أبعد الأب الشيخ الأم بذريعة أشبه بأكذوبة. تذكرتُ كل الذبائح التي شاركت فيها. تجلت في ما يشبه الموكب. جميعها يتقدمها رجلٌ بسكين، أو رجلٌ آخر يذبح باسمه، كما يفرضه الشرع. هذا بالتأكيد موقع للأب، يقيناً الموقع الأكثر حفظاً في ذاكرة الأب.

يا إلهي، ما أكثر الأحرام! منى وذبيحتها هي إذن حَرَمُ أحرام أخرى. حرم المحنة. كل شيء يتوالى: أشكال القلق، والرمزيات وتشييداتها للعالم. للصورة، ولخلق الذات، وللآخرين، ولـ«أشكال الحياة». غير أنه يعسر عليّ تفسير عبادة النساء، المقصيّات عن إمامة هذه الفريضة والمبعدات عن فرائض أخرى كثيرة، ومنها إمامة الصلاة. استسلمت لبعض الوقائع: ليست الإمامة للنساء لكنهن يحتفظن بكثير من السلطات، التي يسميها البعض «قوة»، في تقسيم العمل «خارج خشبة المسرح» - في الجنس، وفي التناسل، وفي البناء ذاته للأب، وفي الاستيهامات والهُجاسات الذكورية... هذه الأطروحات تنقذني من مآزق الإيديولوجيا، والانخداع، و«الوعي الزائف». تريحني أيضاً من البحث في الإكراه الفظ الذي أراه يمارس كلّ يوم على النساء، والذي يبدو طبيعياً. وبالتأكيد كن يدافعن عن أنفسهن ضد العقوبات في حقهن ويحتفظن بوسائلهن الخاصة للرد على الضربات أو تفاديها. لكن هذه المبادلات لا تزال مفرطة الشيوع، ولم يتم إلا بصعوبة، منذ بعض الوقت، تعلم بعض طرق التعرف إليها وتخطيها. أشكالٌ من التعلم، طويلة ومتعرّجة. ومع ذلك، فهذه التفسيرات ما عادت ترضيني بتاتاً، وقد تضاعفت حدة المشكلة بالنسبة إليّ أثناء هذا الحج. فضلاً عن أنه في هذه اللحظات وهذه الأمكنة، ذات العتبات الجيدة التحديد، تُطبَّق الضوابط بمنتهى الصرامة. والحال أنه كان أيضاً المكان حيث مبادرة النساء ومُبادأتهن تتجلى بكل قوة في الاستعمال. إن الاختلاف الاجتماعي باستناده إلى الطقوس يسبق على نحو ما كل ترابط اجتماعي. حصلت الذبيحة بعد فترة طويلة من الجهد وحكم الله

على هاجر التي كان قد منحها هبة تجديد الحياة، بهدي خطواتها، في سعيها اليائس بين الصفا والمروة، نحو نبع زمزم الذي أنقذ إسماعيل.

وحتى إن كانت الشعائر الأخرى تؤطّر تأطيراً جيداً هذا الفصل، فالتاريخ يسبق التاريخي، متسرباً إليه مثل شرخ. ولأنه محل ابتكارات، فذلك الشرخ كفيل بتهيئة معبَر للتاريخ. لا تاريخ قد تكوّن سلفاً، يكون من الممكن استعادته كما قد حدث، بل التاريخ الذي يلزم دائماً تكوينه، بمعنى تكوين فكرة عن شيء من الأشياء، وذلك سواء أتعلق الأمر بالتاريخ الجماعي أم بتاريخ الأنا. ومن زاوية النظر هذه، فطرائق التفكير المشتقة من الماركسية ومن التحليل النفسي تتكشف عن بعض الصعوبات، وخصوصاً ما يمس الطقوس. ومع أن تلك الطرائق قد بلغت مجتمعاتنا في زمن متأخر، فهي لا تزال مفرطة في الاصطباغ بتاريخية جاهزة، وبأشكالٍ من العود، أو تنبّؤ بالبنية: أشكال عودة «المكبوت»، تغيير التقليد بواسطة «صيغ إنتاج» جديدة. ترتضي، فوق ذلك، منابت لأفكار تبدو لها، في المجتمع الإسلامي، مستقطبة من الوهلة الأولى بين الرجال والنساء. وهكذا تصادف، بشكل طبيعي تماماً، ذواتاً منشطرة: ما قبل رأسماليين/ رأسماليين، ذكوريين/ أنوثيين (الشطر الأول يمتلك كل السلطات على الثاني)، أو كذلك أنا ينشطر شطرين غير متوازنين في جدلية النرجسية والاضطلاع برموز الأب وقيمه. إن ظاهراتية تشكيلات العالم ما قبل التأملية، ومنظورات وعي محايث للأفعال، ولحركات الجسد الخاصة، وضعتني على طريق ما يتجاوز هذه التاريخيات، المتصورة بوصفها مجرد تطور لبذور، أو لبنيات المنطلق. لأنني بتملكي لفكرة أن الوعي هو دائماً سلفاً بالفعل، من حيث هو عالم معيش، ما كان بمقدوري تلافي خلاصة أنها تحمل معها الأثر غير المتحكم فيه لظهورها. شيء ما من سلبيتها، الذي تحمله هذه الحركة، ينشط باستمرار في التشييدات الثقافية. إسماعيل وابراهيم، في الوقوف المصيري، بلغا هذا الأثر: نهاية العالم التي تحملهما حتى حافته. وهما، ونحن الذين نحتذي مثالهما، لم يتقدما بعد خطوة. هذا العالم، كانا يجوبانه بالمعكوس؛ انطلقا مع تأويل وتبعاً لذلك التأويل، وتوقفا عند منتهاه الذي يطلّ على خارج كل تأويل، على رؤية

صورة وسماع صمت يستبق اللغة فحسب. ألم يكن هذا الوقوف على حافة أشكال الحياة التي لنا، وهذه الرؤية وهذا الاستماع هي التي تجعلنا، رجالاً ونساء، نتلقى صوراً واستباقات للغة؟ ألم يكن هذا ما سيجعلنا نتلقى، بتكاليف جديدة، رموزنا في الارتباك، ملزماً إيانا بإنجاح مسعاها واستبدالها؟

تُخرجني هذه التأملات من نوع من التضايق. وإذا لم تضع حداً للشكوك، فهي تطرد إحساسي بالاستسلام. استبدلتُ منذئذٍ بمعاناة هذا الأخير منظور المعاناة في طريق من طرق الحقيقة. أضحي من أجل هذا الطريق، بينما قبل ذلك كنت مأخوذاً بالألم فحسب.

في هذه الأضواء المعاكسة، وبتكررات وتكثيفات سمات الذبيحة ولوحة عرضي، تتحدد الألوان والظلال بقدر ما يتقدم التأليف. فتتجلى أشكال حياتنا: لا مصنوعة، ولا اعتباطية كما يدّعي ذلك كثيراً العلم الاجتماعي. ليست أيضاً آثار كتابة تظهر لتتناثر فوراً. إذ إننا لا نكفّ أبداً عن تلقّيها في تكاثراتها كما كانت دون شك في الآن ذاته قد خُلقت وببساطة تلقّاها وتقبّلها أولئك الذين سبقونا: تشكيلات خاصة للإنساني وهو يطرأ، مثابراً في هذا الذي سيطرأ، منفعلاً بحركاته الخاصة التي ستظهر. أشكال الحياة، تلك التي أتبنّاها، أريدها منذئذٍ لأجل مستقبلاتها، مثلما كانت للنساء المقصّيات عن إمامة هذه الأضحية الحرية في أن يُردنها في كل الأزمنة. لم يكن ماضي وحاضر هذه التقاليد المنصهرة فيها كافيين للحكم بنجاحها أو إخفاقها. وبدل التسليم بهذا الحكم المُسبق، تعلمت انتظارها في ما كانت تصير إليه، في شكل من الصبر يستمد قوته من صبر هاجر، وإسماعيل، وإبراهيم. كنت أستشفّ الأضحية كسلطة وكحدٌ، وأحاول أن أجعل موقعي في مستقبلها.

المجاز، والذبيحة هي من المجاز، ذلك الذي هو في المقام الأول عنفٌ موجه ضد الذات، عند حدود المعارف والتأويل، عند الشرخ الذي ينفتح بين الارتباك والوعي، في حركة الظهور المشدودة نحو خطوط استهرابها. وأن يكون مأموراً به لا ينقص شيئاً من حرية الأنبياء الذين كان عملهم يعكس له طابعه كأمر مطلق. كان حقاً ذلك المُغاير للذات هو المستهدف في علاقة السلطة التي له، المتضمّنة ثلاثة محافل. كل اندفاعة للحياة هي تبرعمٌ يفرض

التزاماً، معدماً لتبرعمات أخرى ممكنة، جاعلاً بذلك من كل كائن خصاصاً في الكينونة، ملحقاً بالذات وبالآخرين. أنا بالنسبة إلى رفاقي صورة لهذا الخصاص، لكن أيضاً بالنسبة إلى البشرية التي تؤدي الحج وبالنسبة إلى كل البشريات الأخرى، لأنني أنتظر منها دائماً أن تجد تعريفاً لي. الأخطار عظيمة دائماً لأنه بالإمكان دائماً تعيين مسؤول آخر عن هذا النقص غير الذات.

مؤسساتنا ورموزنا، وهي التجسيدات غير المستقرة والمتقلّبة لما كان افتراضياً في نقص المنطلق هذا، يمكنها في كل لحظة إسقاط الآخرية خارج الذات وتحويلها إلى صورة مطلقة للشر، محوّلة إليها مجموع الدّين وإلزامية إرجاعه. وفي إحدى الحالات القصوى من همجية القرن العشرين، فإن نظاماً يدعي تبرير نفسه بواسطة لغات معمَّمة اعتباطياً من الذبيحة القصوى قد تصور وطبّق برنامجاً وفق هذا النموذج. إن الآلة المجنونة للاسترداد بواسطة الإبادة التي هاجت ضد بعض الشعوب، المعتبرة رموزاً للآخرية، والمنبوذة خارج الإنسانية، تتوقع المحق التام لما كان، بالنسبة إلى مهندسيها، آخر الآخرين: اليهودي. من اليسير التعرف إلى انحراف للدّيني في هذا المخطط المشؤوم. لكن أيضاً من اليسير أن كثيراً من ديانات الأضحية الأخرى معرَّضة لتحولات مماثلة، منتقلة من التعرف إلى الحدّة في ذواتها، إلى إسقاطها على الآخرين، الذين تنقلب اختلافاتهم إلى وصمات عار.

لم يُخْفِ فقهاء الإسلام أن العنف يكمن في قلب الذبيحة، وأن هويّته هي القتل. ومع ذلك حاولوا إحاطته بحدودٍ واحتراس. واجتهدوا في تعيين المعالم بين المُباح والمحظور بواسطة تصنيف منظَّم لما يحل كسره أو قتله: من أجل الغذاء، أو الاستعمال، أو الدفاع، وذلك بكفّارة الأضحية نفسها. والنتيجة هي أن العنف ينقلب على نحو ما على نفسه، في نظام للتكامل يمنح الأولوية للذكوري ويتمفصل حول المصادرة على سلطان بشري على مراتب الخليقة الأخرى. فيقول الفقهاء إن أضحيتنا في منى هي من قبيل الهَدي والهديّة. إنها تدشينية، تتلو رفع الستار عن الفعل. فنذهب إليها إذن عند تباشير الفجر. فضلاً عن أن هدينا كان يتطابق مع الذبيحة التي تحتفل بها في اللحظة نفسها كل الطوائف الإسلامية. عيدٌ يسمى «عيد الأضحى».

غير أن كل شيء يتم في توجه مزدوج نحو الحمية الطائفية، وفي الوقت ذاته نحو نسبوية عملية للتشارك بين الأفراد، والمجموعات، والمجتمعات، والطوائف الدينية (وفي المقام الأول الطوائف اليهودية والمسيحية). والحال أن هذا التوجه المزدوج، الذي يوسع حلقات الانتماء والتحالف، يترافق حتماً مع حرب انتساب مع الديانتين التوحيديتين الأخريين في الشرق الأدنى، من واقع أن الإسلام ينقحهما صراحة، مغيراً قواعد استعمال العالم، رافضاً أي شكل من الاتصال بالله ما خلا واسطة الوحي، ورافضاً العهد العتيق بين الله وطائفة خاصة (اليهود). فضلاً عن أن العبادة والخضوع لا يتركان حيزاً كبيراً لفكرة العقد ذاتها.

يمكن كذلك توقّع أن لا يقبل إله المسيحية المضحي بنفسه استبدال الخروف إلا في القول. وأخيراً، بالاختصار، تتحوّل ذبيحة الكاشير، الذبيحة كلها، والخبز والخمر، إلى طواطم لدعم رايات التحزب، مع عواقب على صعيد مجتمعات الكتل الجماهيرية: إمبراطوريات لاهوتية، كنائس كونية، دول . أمم استعمارية ذات سلطات إمبراطورية، تشييدات كليانية عظيمة، شبكة عالمية للسلفية الإسلامية المتشددة، رغائب وممارسات التطهير العرقي، إمبريالية الخلاص الجديدة. ومُريدو الطهارة المطلقة، وانصار نفي الدخيل، ورسالة خلاصيّة على مستوى الإنسانية، مستعيدين بانتظام طعم الإقصاء والنصر الموعود.

الذبيحة تتحرّك بين ثلاثة أقطاب: الرؤيا، الأب/الابن، الحَمَل بدل الأب/الابن المنذورين للذبح. وتوجه عنف الحياة نحو مخلوقات أخرى غير بشرية. وتسمح بذلك لكن بتفويض الأمر إلى الله، كأن ذلك من شر. وتدعونا إلى فعل الشيء نفسه، والتصرف أولاً بأول، والصبر على أمل أنه، مع الزمن ستتوضح رؤيتنا. فالآخرية موجودة فينا، وليس من المضمون دائماً أن يكون التأويل قادراً على الحسم بين الله والشيطان. لا سيما أن الالتباس يزداد تهديداً بقدر ما تتعاظم طوائفنا، وتتماس أراضينا وتتقارب منابع إشباعاتنا، أو تتجسد في مواقع يلزم تقاسمها.

إذا كانت الذبيحة تكشف لنا عن شيء، فهو أن أخلاقيتها الشبيهة

بأخلاقيات رجل يعرف كيف ينتظر في صبر تستمر رغم العقلانيات الشاملة والمعممة للدول الجديدة. وأن هذه الدول ينبغي أن تتعايش في الأضحية مع ما كان متقادماً بامتياز، أي اكتمال ما لم يكن العنف يمسه بتاتاً: الحب الباقي على صفائه، وإمكانية خلاص الأب والابن، والأنا والآخر، بواسطة الزمن، وهو المحفل الوحيد القادر على منح مهلة. تستطيع الأضحية كشف تراكبات الطموحات والرغبات، وتذكيرنا بالفداء. لا تكشف لنا عن أشياء «محجوبة منذ خلق العالم»، كما أعلن أحد أنبياء الأدب، ولم تنقذنا من العنف، المفترض كونه دائماً ومتوطناً، في المجتمعات المسماة بدائية. وهو حكمٌ مسبق عنيد، بينما تلك المجتمعات، على العكس، قد عرفت ممارسته وكبحه بالتباعد المتبادل وبالطقوس، إلى أن جاء ناسٌ حديثون يفرطون في الاستناد إلى تضحية الرب بنفسه، لإثارته بصورة شاملة ضدها.

هذه الذبيحة التي شاركت فيها بمنى تتجلى في هذين الانجرافين. وللأسف، فإن عقلنتها التي تدعي التقنية تعوض الأخلاق أولاً بأول، والحساسية بالألم الإنساني والحيواني تُستبدل بقتل صناعي، كثيف وأعمى. وحتى الصدقة التي تتلوه لا تنقص شيئاً من السر العسير للقتل، وهبة اللحم الموسوم باسم الواهب تكمل استيعاب حياة لحياة أخرى... ورغم كل شيء، إذا كانت مواقع العنف واقتحاماته واستعمالاته من الممكن التعرف إليها وحصرها، فإنّ سرّه يظل تاماً.

ليست لدي وصفة للتخفيف من أشكال القلق والخوف الذاتية، لمنع أن يتدهور هذا الخلاص المكتسب على هذا النحو إلى مطاردة لعملاء مزعومين، لإيقاف العدو الداخلي عند حده، ومنعه من الذهاب إلى الخارج، ليتخذ سمات العدو المهدد على حدود الذات، أو الدّين، أو الثقافة، أو الحضارة، أو الأمة... لكن ربما يكون بمقدوري طلب العون من استكشاف أكثر تعمقاً لمجاز الذبيحة، ثم من تفحص هذه الصورة من صور القول. ذبيحتان تتمان في واحدة: التضحية بإسماعيل والأضحية بالكبش المقدّم للأب الشيخ، إحداهما بدل الأخرى، وعلى الخصوص، فإنّ شيئاً في إحداهما يقال في الأخرى. الأولى تحافظ على الممكن في الانغلاق ذاته. والثانية تجعل من

العنف المنظّم، بدون أصباغ، شرطاً لاندفاعة الحياة في الإنساني. إحداهما تمنح معنى دينياً للإنسانية، بوسمها بالعجز عن الخلاص والدوام دون تدمير واستهلاك حيوات قريبة نسبياً منها. وهكذا تنكفئ الممارسات الطقوسية على ذاتها ولأجل ذاتها: تلك حقاً حركتها المميزة. تتحدانا بمعانيها التي ليست بتاتاً أسراراً محتجبة، أو نجوماً يكفي تأمّلها في السماء. يلزمني أن أفهم كلمة معنى بدلالة جهة. وعليّ المسير نحو دلالات هشّة، خاضعة لحوارات، ومنازعات، وتشابكات شهادات.

تقوم إحدى هذه الجهات على إعطاء البشر عربوناً على الحياة ونقل الذّبح والتدمير نحو حيوان من الحيوانات: من الأفضل كبشٌ، ضأن ذكر، لا عيب فيه، تام، حيوان أليف، من ذوات الظلف، مجتر. والضّأن، والماعز، والإبل، وهي جميعها فصائل من آكلات العشب مقبولة في الأضحية. لا من اللواحم، وغير المجترّة، وذات الحافر، ولا من ذات الظلف غير المجترة، كالخنزير. لا حيوانات بحرية، ولا متوحشة، ولو كانت مجترّة، التي قد يأتي بها الصيد. توجد كذلك حيوانات أليفة من المحظور تقديمها أضحية، واستهلاكها مكروه: الفرس والحمار مثلاً؛ وهي من ذوات الحافر وغير مجترة. لكن الخنزير من بين الدواب التي تعرضت لأعنف التحريم. لا أضحية من الخنزير ولا استهلاك للحم الخنزير. تلك هي الشناعة: صحيحٌ أنه حيوان أليف، من ذوات الظلف مثل أطهر الحيوان، غير أنّ له خصائص أخرى؛ يمكنه أن يغتذي بكل شيء، حتى المنتوجات الملوثة بالدم والفضلات. إنّ الخنزير، أكثر من تجسيده للفوضى داخل تصنيف منظم للعالم، ربما يجسد الفاصل بين الديانات التوحيدية الثلاث، شكلٌ من الحياة قريب ومع ذلك مختلف عن الآخرين. كان أليفاً، من ذوات الظلف، لكنه يغتذي في اللاتمايز، وغير مجتر. ومثل بعض الحيوانات المتوحشة، يأكل فضلاً عن ذلك قطعاً وبقايا من الحيوان ويُبدي بذلك، إذا جاز القول، عن نزعة آكل لحوم جنسه. إن الذّبح وتهيئة الدم بالنسبة إلى الخنزير يماثل التخمير بالنسبة إلى بعض النباتات وتهيئة المشروبات الكحولية. فليس عجيباً إذن أن صار الخنزير والخمر الممثلين الكنائيين عن المسيحيين، وهم جيران قريبون وأقوياء، قد تبادلوا

معنا، نحن المسلمين، ضيافات، ولكن أيضاً شتائم وإنكارات مفرطة في تواترها. صار الخنزير القطب الذي يسقط عليه عداء شديد الظهور. لكن ذلك لم يتم لأنه يتم نبذ العدو إلى جهة الطبيعة. فهذا العدو بالأحرى متوحش مفرطٌ في القرب، لا يحتمل ولازمٌ لصورة الذات؛ فهو خارج الطبيعة، وخارج الثقافة، ومن ثم فهو متعلق بالاثنتين ويترك تعريفهما معلّقاً.

الذبيحة، وهي كناية عن الاستهلاك والهبة، تأمرني بأكل جزء من الذبيحة والتصدق بالباقي. كثير من رفقائي أخذوا قطعة ليعودوا بها معهم إلى بلدهم. والمجزرة الممارسة مرة في السنة تظل بذلك محصورة. واستعمال الحيوان، وفي ما وراء ذلك، استعمال كل الخليقة، يجد نفسه محدوداً. بيننا وبينها يطوف هذا الثالث الذي لا يسمح بتاتاً بأن نعامله كشيء، فارغ من الكينونة، في انتظار الظهور، وبوصفه مجرد عنصر في سلسلة الاستهلاك - الإنتاج. الحيوان الأليف أحس به قريباً جداً، موصلاً إلى حياة كل الأحياء. الذبيحة تأذن لي بسلب حياتها؛ وهذه الأخيرة تعيد بناء حياتي، وتذكرني بحياتي بوصفها دَيْناً، وتعيدني إلى ذاتي بوصفها نقصاً للكينونة، تدوم بواسطة التدمير.

تقودني الجهة الأخرى إلى الذبيحة بوصفها مجازاً من مجازات اللغة. لم يعد، بالنسبة إلي، العنف في جانب واللغة في الجانب الآخر. يصدر الأول عن الكلمة التي تمارسه ومع ذلك تتجاوزه بواسطة السرد والحكاية. لم يكن سعي البطلين، ثم سعينا، الذي ينتهي بقتل حيوان، ليجريان بالطريقة نفسها لو تم اتباع طريقة للفحص الشكلي أو التجريبي. إن حقائق أخرى تُستحضر، جيدة الفاعلية، تدفعني إلى أن لا أحصر علاقتي في ما يُسمّى عادة حقائق تجريبية. فالأضحية علاقة بيننا نحن الحجاج، وهذه الحقيقة تمرّ بالقصة القرآنية. كنت قبل الشروع في السفر، قد أخذت في التفكير أن ذلك يتلخّص في سيرورة إقناع. لكني لا أزال أفهم من هذه الكلمات نوعاً من اكتساب المعتقدات وتعميق قناعاتنا. وسرعان ما أدركتُ، في المكان عينه، أنني الوحيد الذي يفكر في مثل هذا التعميق.

ذبيحتنا تُحيل على ذبيحة إبراهيم، والكبش يحيل على إسماعيل.

والاستعارة، كما قد أكدها آخرون من قبلي واستحضرتها أنا أيضاً، هي انتقال إبداعيٌ بواسطة «كأن». مجموع الشعيرة يقوم على التصرف وكأننا لما ننجز شيئاً فنحن ننجز شيئاً آخر. ولم تكن هذه الـ«كأن» تتلخص في مقارنة مظاهر معزولة وموجودة سلفاً. الاستعارة تنظيمات جديدة للتجربة. إنها تتجاوز التشابه. ووصفي أنا، بعد أن تعرّف إلى الشذرات وعزلها، وتابع التفاصيل، قد ارتبط في الوقت ذاته بإعادة وصف يشكل اللوحة، وتأتي اللمسات المتتابعة لتضيف إليها أعماقاً وتطبعها باتجاهات. فتتبين النتيجة تدريجاً (وجزئياً فحسب): وصفٌ كثيف ليس إلا، ولا بشكل تفضيلي، في ما يتعلق بالتفاصيل، وإنما خصوصاً بمصطلحات الإغناء في ما يتعلق بالحقائق التي تستدعيها العلامات والرموز. لم أكن أطلب من الاستعارة أن تمنح شكلاً لعديم الشكل فحسب، بل أطلب منها أن تستحضر وتستدعي حقائق ممكنة يكون العالم الحقيقي قادراً عليها.

كان ذلك طلباً لا قراراً. لا بد لإرادتي المشدودة نحو ذلك الهدف أن تقبل غير الإرادي، كما كان على المجتمعات أن تقبله، وهي تتلقى ابتكاراتها. ليس لدي خيارٌ آخر سوى خيار التخلّي عن لغة معينة: خيارات اعتباطية، بناءات، صنعة، ابتكار من الأنا، من التقليد، من المؤسسات، من الإنساني... الكائن، الكائن الإنساني، كائن الإنساني، في ظهوره، بكل بساطة لم يكن يختار، لم يكن يبني، لم يكن يصنع. أو، لو شئنا الاحتفاظ بهذه الكلمات، فينبغي فهمها بمعنى «الاشتغال» على ما هو مُتلقّى على طريقة الرسام الذي يشتغل على ألوانه، ذاكرة لا تنفد. ومثله، لكن دون شك بخيارات أقل، لا بد لي، مستلهماً الأساطير والممارسات الطقوسية، أن أضاعف من التوقفات، ولحظات التجربة، والانطلاقات وإعادة الانطلاقات، مؤملاً إثارة أشكال أنتظر مجيئها.

لكن، بينما لا تكون الذاكرة دائماً مسعفة، فالاستعارة تمنحني ضمانات لا تكذب بتاتاً. يكفيني تذكّرها. وحتى حين تنتقل إلى الاستعمال الجاري للكلمات، فهي تحملني بأمانة كما تحملني قدماي. وعلى الخصوص، تحتفظ لي بمأوى جاهز لاستقبالي. وكلما دفعت مجموعات أو أجهزة سياسية.

لاهوتية عنف الذبيحة في سُبُل منحرفة مشوِّهة الضحايا لإكسابهم صورة المذنبين، مهيِّئة بذلك للعدوان، أولئك الذين يرفضون هذه الانحرافات، الذين يمكن، مع الارتياب في إحساسهم في براءتهم، أن يستحضروا الذبيحة ليسدّوا الطريق على أشكال السحل الجماعي. إنهم سور ضد فبركة الأعداء، فأصواتهم لن تخمد. ستطالب بوقف القتال هاتفة في وجه العالم بأن استعارة الأضحية تتجاوز دائماً تأويلاتها.

الفصل الثاني عشر

عِبَــر

عودتنا من عرفة مروراً بالمزدلفة، كما نذكر، اتبعت مساراً إهليلجياً. وهكذا قد رجعنا حقاً إلى نقطة الانطلاق، لكن باكتشاف أماكن جديدة وشعائر جديدة تُهيِّئنا للرّجم. أخذت أفهم أن كل رجوع، منذ الآن ـ مراجعة لمنابع الأنا، لتجربة الحج هذه، لمذكرات رحلتي، إلى المغرب ومن ثم إلى الولايات المتحدة... .، ستكون عوداتي جميعاً إهليلجية. وأن لا شيء من الآن سيفلت من هذا الشكل، الذي ـ كما في الجملة الإضمارية ـ يقوم باختزالات ليقود إلى بقاع جديدة أوسع، واستجماع للقفز نحو المجهول، وأنه سيصرّف أفعالنا، كل أفعالنا، في كل الأزمنة. وأخيراً ربما يكتفي ولا يفرط.

استأنفت إذن طريق مكة بعد الرجم. قررنا، مع عباس وزوجته، أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام تلافياً لاختناقات حركة السير. مشينا وسط حشدٍ تزيّا بالأبيض وبسط في كل مكان قوة أمواجه، دون تصادم ودون تدافع. توقفنا مرات عديدة لنرتوي ونرتاح. كثيرون يتوقفون في مراكز الصدقة العديدة التي توزّع الأغذية والأشربة. يستهلكون قدر ما يستطيعون ويتركون هناك أوعية الياورت، والقناني، وعلب وأوراق التغليف. نتقدّم هكذا ببطء، متلافين جهد الإمكان النفايات المتناثرة على طريقنا.

قريباً من النفق الكبير الذي يُوصل مباشرة إلى مكة، تبادلنا بعض الملاحظات حول حادث جرى هنا، على ما قيل لي، في العام الماضي. بحسب الرواية الأكثر شيوعاً، أغرق انقطاع مفاجئ للكهرباء الحشد في الظلام وحبس جهاز التهوية. وهكذا يكون عشرات من الحجاج قد ماتوا من الهلع

وانعدام الهواء. عند مخرج النفق، سلكنا شارعاً كبيراً، ثم آخر أفضى بنا إلى المسجد لأجل الطواف والسعي بين الصفا والمروة، بعد ذلك تحللتُ نهائياً من الإحرام. وكنت قد قمتُ بخروج جزئي من الطقوس، كما هو مباح، بعد رمي الجمرات الأوّل، بقص شعري.

في الغد، لما ذهبت إلى طواف الوداع، غُصت من جديد في الحشد حيث الانفعال في ذروته. خلوت بنفسي بعد ذلك، في الهدوء، تحت الأروقة. وعند مغادرتي المسجد، لم أتمالك أن أتأمّل مرة أخيرة المكعّب الأسود. زياراتي المتكررة لم تغير شيئاً: يتجلى لي «بيت الله» هذا بوجه يقاوم الألفة. بيتٌ ليس بيتاً؛ ليس مسجداً وهو يحتل مركز المسجد بامتياز. تؤدّى الصلاة في اتجاهه، لكن ليس داخل جدرانه، ويكون الطواف حوله. وعلى أحد أركانه لُحم حجرٌ هبط من الجنة، أي من «زمن» قبل الزمن. هذا «البيت»، كما قد قلت، كان أيضاً مكسواً، امتيازٌ وخصيصة فريدتان. ويودِّع بسرعة، دون إبطاء. يستقبلك ليردّك على الفور مع ذكرى حضوره وواجب الصلاة متوجهاً جهته. بعد لحظات، على الطريق المؤدية إلى مسكننا، أحسست إحساساً واضحاً بخصاص. المكعب الأسود الذي تركته ورائي أفتقده. الذاكرة التي أحتفظ بها عنه ستكون ذاكرة الافتقاد. ستُلقي بي في تيه جديد، وتحملني نحو طرق لا متوقعة. المكعّب الأسود، صورة المكعّب الأسود، ستذكّرني أنني منذ الأبد قد فقدت شيئاً ومكتوبٌ عليّ السعي باحثاً عنه.

زاد هذا الإحساس من فظاعة سفر العودة إلى الوطن. الضرورة القاهرة لمغادرة مكة بأسرع ما يمكن، والارتخاء بعد جهد عنيف، والتعب والوعي بمرحلة منجزة، كل هذا يدفعني للعودة سريعاً إلى المغرب لأستريح. فضلاً عن أن نهاية مقامي بمكة قد تسمّمت بسوء تفاهم مع أحد رفقائي يزداد كل يوم حدّة. جعل الحج علاقاتنا تتوتر؛ فقد أبان عن اختلافاتنا إلى حد الإفضاء بنا إلى القطيعة. موقفٌ متكرر الوقوع؛ ولحسن الحظ، فالشعائر تساعد على الانفصال، بأقلّ ما يمكن من العنف. قررت في هذه الظروف أن أتصرّف في أموري وحدي، وإذ تخوّفت من الانتظارات والمواعيد الباطلة، فقد استأجرت تاكسي لأقصد مطار جدة. استغرقني ذلك يوماً كاملاً تقريباً، لأنه كان على

السائق الحضور معي إلى مكتب إدارة الحج للتحقق من هويته. بهذا الشرط فقط يمكنهم تسليمي رسالة إلى شرطة المطارات كي تعيد لي هذه الأخيرة جواز سفري ووثائق السفر الأخرى. نحن منتصف النهار، لما قبل أحدهم مرافقتي إلى تلك الإدارة، لزمنا الانتظار طويلاً، هو في الشارع، وأنا في بهو الانتظار. وبعد مداولات، أخبروني أن هذا السائق لن يُسمح له بنقلي إلى المطار. وأنّه يلزمني العثور على واحد من جنسية سعودية! كان عليّ أن أدفع الثمن وأصرف هذا السائق الهندي الذي لم يكن أقلّ أسفاً مني وأن أرجئ إلى الغد مشروع البحث عن سيارة أجرة جديدة. ولمّا ذهبتُ، وقد أعيتني الحيلة، إلى المسؤولين لأخبرهم بمنتهى نفاد صبري، اقترحوا عليّ سيارة جاء سائقها يبحث عنّي في باب العمارة. اكتشفت، بالمناسبة، أنه كان يرافقه فتى من أسرته وأنّ كليهما من أقارب للموظفين الذي عالجوا حالتي.

في الطريق، اقتصر الحديث في البداية على بضعة أجوبة مقتضبة عن أسئلتي حول المطار، والجمارك، واسترداد أوراقي. الرجلان في المقعد الأمامي تناقشا طويلاً، دون الاكتراث لي. ثمّ، في لحظة من اللحظات، سألني السائق أين أسكن في المغرب. قلت:

«عندي مسكن في المغرب، لكنني أقطن في الولايات المتحدة».

ـ آه، في الولايات المتحدة! دائماً أرغب في الذهاب إلى هناك. يربح الإنسان كثيراً هناك، أليس كذلك؟

ـ نعم يربح كثيراً...

ـ آه! أرغب دائماً... هنا، أُدرِّس في الثانوي، لا بأس. لكن لا بد أن أشتغل في أعمال أخرى. مثلاً، أسوق التاكسي من وقت لآخر، مثل اليوم.

ـ لماذا؟ ألا تكسب ما يكفي؟

ـ لا... ذاهبٌ إلى المغرب هذه المرة؟

ـ نعم.

ـ أتعرف مطار جدة؟

ـ لا. وأنت؟

. ولا أنا. لكن سنرى... سنتدبر الأمر...».

استأنف الرجلان حديثهما. أخذت أنظر إلى المشهد الصحراوي وأقاوم القلق. بعد لحظة طويلة من الصّمت، التفت الفتى إليّ:

«أين تسكن في المغرب؟

ـ في الرباط.

ـ الرباط، لا الدار البيضاء؟

ـ لا، ليس الدار البيضاء.

ـ وطنجة؟ جميلة طنجة؟ تعرفها؟

ـ نعم، أحبها كثيراً...

ـ هناك البحر وكل شيء. نستمتع كثيراً في طنجة؟

ـ نعم. الأمر يتعلق بماذا تقصد... أنا، أذهب إليها لأنها مدينة جميلة وتثير الاهتمام. وأحب الناس...

ـ ما أفسق مدينة في المغرب؟ الدار البيضاء أم طنجة؟

ـ لا أستطيع أفهم ماذا تقصد...

ـ أقول هناك حيث تمارس كلّ الفواحش، حيث أكثر ما يمكن من الفسق والآثام...

ـ لا أستطيع أن أقول لك... لكن ما أفسق مدينة في العربية السعودية؟

ـ جميعها طاهرة!»

ألقى خطابي بردّه وأدار لي ظهره. سرنا طويلاً في صمت. وقرب المطار، راح سائقاي يتشاوران دون انقطاع، ويسلكان طرقاً يتركانها نحو أخرى، ويستفسران بين لحظة وأخرى من سائقي السيارات التي يتمكنان من إيقافها. هبط الليل ونحن ما زلنا في البحث عن محطة الذهاب. وهكذا زرنا بنايات عديدة. ونحو منتصف الليل، لم نعثر بعد على البناية المخصصة للحج. في أثناء ذلك تخلى السائق عن كل ادّعاء بمعرفة المكان، وفي ساعة متأخرة من الليل وقعنا مصادفة على المكان الصحيح.

سلّمني المرافقان الحارسان إلى الشرطة. وتواعدنا على تناول قهوة معاً بعد الإجراءات، لكن رجال الشرطة أمروا الرجلين بالانصراف فوراً. «ما عاد لكما شغل هنا، عودا إلى بيتكما!». ولم نكد نجد الوقت للهمهمة بتحية إلى

اللقاء. سلّموني تذاكري ووثائق السفر بعد فحص طويل. وقد أتعبتني وحيّرتني هذه المغامرة الطويلة، فذهبت لأتمدّد على أريكة غير بعيد عن موضع الصلاة. على أن الضوضاء وحركة الحشد المستمرة منعتا عليّ النوم. واضطررت إلى الاكتفاء بغفوة طويلة، منتظراً ساعة الركوب المقررة في الحادية عشرة من صباح الغد. غير أنه، عند افتتاح المكاتب، كان الحشد قد تكاثف والفوضى تكاد تسود كل مكان. أُلغيت بعض الرحلات وظلّت جماعات من المسافرين تنتظر هنا عشر، أو عشرين، أو ثماني وأربعين ساعة دون تفسيرات. أخذت مكاني في طابور الانتظار نحو الساعة العاشرة. وقضينا النهار كله تقريباً في الانتظار، لأن شبّاكنا لم يُفتح إلا في السادسة مساء. فائض الأمتعة، والتدافع، والمشاجرات، والحركة المستمرة أتمت إثارة أعصاب الجميع. وعند الصعود إلى الطائرة، كانت الحقائب، والحزم، وصفائح الماء المعجزة تشغل كل المكان. الطائرة مكتظّة. وكل شيء محجوز، المقاعد، والممرات، وخزانات الأمتعة. في بعض هذه الخزانات، حشر حجاجٌ قسراً صفائحهم الضخمة من ماء زمزم التي راح يقطر منها هذا السائل النافع.

بعد أن انحشرت في مقعد بين رجل مسن وامرأة محتجبة بالأبيض، لم أعد أستطيع الحركة. الممرات تكتظ بالحقائب، والعلب، والحزم، والقناني الكبيرة... وقد اعترف مستخدمو شركة الطيران بعجزهم بعد ساعات من المفاوضات، والمناورات، والصراعات... منعت نفسي من التفكير في احتمال هبوط اضطراري... سندوس بعضنا بعضاً... كان الحجاج المحصورون مثلي غير مكترثين للخطر، ومع ذلك لم يتردد بعضهم في محاولة تسلّق وسباق المنعرجات من أجل الذهاب إلى المراحيض. أقلعنا حوالى منتصف الليل.

كنت نصف نائم لما أيقظتني جارتي. طلبت مني أن أتحقق من تاريخ انتهاء صلاحية جواز سفرها. اندهشت، ودون أن أطرح أسئلة، لبيت طلبها. وبلا مقدمات سألتني: «أتسافر كثيراً؟». «نعم، لماذا؟» «لا، لا، لا شيء، واضحٌ أنه... زرني في الدار البيضاء، أهلاً ومرحباً... لا شكّ أنت متزوّج، لكن زرني مع ذلك»... «ألستِ راجعة من الحج؟». «وماذا في ذلك، ألسنا كلنا بني آدم؟». ابتعدت قليلاً ولاحظت أن الحجاب قد انفرج عن صدر لم يعد فتياً، محلّى

بطوق ذهبي. واصلت المرأة، وكأنها ترد على دهشتي: «أنا أرحل للتجارة، ربّيت أطفالاً كثيرين. نساء كثيرات يرحلن لأشياء أخرى. المال، المال، المال... يمكن كسب كثير من المال. وعندنا فائضٌ من النساء... في الشرق لا يتورّع الرجال عن مطاردتنا. الله يغفر لنا!». ذكّرني هذا ببعض المشاهد. نساء شابّات من بني ملاّل، والدار البيضاء، ومراكش وأماكن أخرى. أصادفهن في المصاعد، أو الممرات، أو مخادع الهاتف، يلبسن آخر موضة تحت الحجاب، ويأخذن مواعيد في المدينة أو في بعض الإقامات في الضواحي. وبورصة الزواج هذه التي صادفت عدداً من المشاركات المحظوظات فيها.

التقوى ومنتهى إنكار الذات عند الرجال والنساء الذين عاشرتهم في المدينة ومكة تنأى بالحجّاج بعيداً عن الرغبات السائدة، سواء الرغبة الجنسية أم رغبة امتلاك الثروات. جارتي تمثل دون شك فئة خاصة. فضلاً عن أنني علمت، خلال حديث أوّلي، أنها تسافر أيضاً إلى أوروبا حيث ابنتان لها، إذا ما صدقت أقوالها، متزوّجتان من فرنسيين. أوضحت لي أن أصلها من آسفي وسألتني إن كانت لي أسرة. أجبتها بنعم وأننا نعيش في الولايات المتحدة. ربما شجعها هذا الخبر. ومع ذلك، لا أستبعد أن توجد صلة بين تقوّي التعبّد والمثابرة وتقوّي عنفوان اندفاعة الحياة. اشتداد بذل للطاقة يكون أفقه هو الموت. أثناء التمرينات والتدريب بهدف الحج، أتذكّر أنني تعجبت من هذه الأقوال التي يرددها فقهاؤنا كثيراً: «لا تحل لكم نساؤكم إلا بعد الخروج من الإحرام». والواضح، بالنسبة إلينا، بين العمرة والحج. تعجبت من أن علماءنا اعتقدوا ضرورة تكرار هذا التحذير مرات عديدة فيما أنا أتصور الحجّاج متأهبين لفترة طويلة من العفّة. ربما لم أقدّر جيداً أشكال الزهد التي تستلزمها حياة إسلامية ورعة. ربما لم أقدّر اندفاعة الحياة نحو موت وشيك أو مؤجّل تؤجّجها المجاهدات نفسها. لا عجب أن تستمر هذه الاندفاعة في بذل الطاقة الجنسية وفي التسوّق! التيار الذي يطفو على السطح أثناء الحج يبدو من القوة إلى حد أن البعض يتحدون الصرامة القصوى للمراقبة والقوانين الوهابية. لكنْ، صحيح كذلك أنني صادفت كثيراً نوعاً من التعايش بين هُجاس الطهارة وهُجاس الشيء المدنّس (الذي يتخذ صورة قريبة من تلك التي عبّر عنها أحد

سائقي)؛ وأن هذين الهُجاسين يشقّان طريقاً معيّناً بينهما، يزيد من إمكان سلوكه أنه يداري الرقابة وينفي ذاته بواسطة بناء ذات مثالية للقانون.

انتهت مجاورتي بأن تكوّمت في براقعها، وسرعان ما استسلمت للنوم. لم تستيقظ قط إلا للعشاء الذي قُدِّم في الفوضى. أعقب ذلك انتظار لا نهائي المدى. لست أدري متى أخبرونا بوشك الهبوط. لحظة مرغوبة بنفاد صبر، ظننت أنه الخلاص. كان ذلك وهماً. في آخر الليل، وبعد التدافع في ما يشبه مرأباً بالياً، ظننت للحظة أن العالم سيستردّ ألوانه الساحرة. مشينا بين صفّين من الجمهور الذي جاء لاستقبال الحجاج. الوجوه الجميلة والنقيّة لهذه البشرية المرتدية البياض، رغم إنارة المكان السّجنية والحضور الكثيف لرجال الدرك، تسبح في نوع من التعالي؛ وتتزاوج الأصوات دون تصنع في ابتهالات رقيقة ومتكرّرة، ترحّب بأولئك الذين يغادرون البناية البائسة. هذا التجلي الذي أحسستُ به أحياناً في المدينة ومكة، يقرّبني ربّما من إحساس بالغيبي يتجلى للحجّاج عقب كل فصول دراما الحج، منذ الإعداد والوداع، وبواسطة تدرّج الممارسات الشعائرية.

إنها، وستكون دون شك، واحدة من تلك اللحظات التي سأحمل فيها لقب الحاج بنوع من الفرح الذي أعرفه جيداً. لا يشبه أي فرح آخر. لا يدوم أبداً زمناً طويلاً. يتلاشى أكثر الأحيان، فيمنح لأفراحي الأخرى مذاقات نهايات المواسم، والمتعة التي أستمدّها من هذه المذاقات تشبه كثيراً تلك التي أستمدّها في الزمن الخالي من لعبي المكسورة. ذلك الفرح يأتي دائماً تاماً. لا يعرف أنصاف الحلول. يشتت الأنا في موجات من التهاليل. ما هو بحاجة إلى موسيقى أو رقص؛ إنه كلاهما معاً. كان تاماً لأنه يأتي مع أصله الذي هو نهاية له. وإذا لم يعد هنا، أعرف من التجربة أنه سيرجع عائداً بالمستقبل حيث يهاجر دائماً.

هذه المرة، مَنَحَ عبوره معنًى، زائلاً مثله، لعودتي ثم تلاشى على الفور تقريباً. ذلك أنه بعد اللحظة الوجيزة من الترحيب السخي التي يمنحها الجمهور لكل حاج، لم تكن عودتي قط عودة حاج. لا احتفال، ولا حفلة استقبال أنا واسطتها، محاطاً بجمع من الأقارب والأصدقاء يأتون لتهنئتي ولتلقي الهدايا المقتناة في المدينة وفي مكة. لا مسرح حيث رواية رحلتي تبسط زمنها، وحيث

تلتحق، في حضور الشهود، بالربوبية المشتركة. بضع طاقيات لأطفالي الذين ينتظرونني على الشاطئ الآخر من الأطلسي، وساعة لزوجتي التي تسهر عليهم بعيداً من البيت الذي أستريح فيه بالمغرب. وأخيراً، سجّادة أو سجّادتان للجيران، وآياتان أو ثلاث آيات مخطوطة على مرايا لأصدقاء مقرّبين. حجي إذن، بخلاف حج الآخرين الذين احتفلت به معهم على مدى السنين، لم يتأكد اجتماعياً البتة. لذلك لم يُضف لقب الحاج إلى اسمي.

ارتحت لهذا لأن ذلك اللقب، الذي يأتي بالنسبة إلى الكثيرين، ليتوّج ويختم مساراً، لا يمكن أن يكون خاتمة لمغامرتي. أنا، أكثر مما مضى، منقذفٌ على الطريق، والأفق يتناءى بقسوة على مثال أشكال السراب في السهب الساخن لطفولتي. فضلاً عن أنه قد تكون تلك العادة قد تأسست في عهد متأخر جداً في حياة الطوائف الإسلامية وأن تعميمها قد فرض نفسه بمقدار ما كانت تلك الطوائف تتباعد عن الأماكن المقدسة في الإسلام. لم يكن الرسول ولا صحابته يحملون هذا اللقب، ولا الملوك والرؤساء ما عدا بعض الاستثناءات. تخلّيت بطيب خاطر عن علامة الخلاص هذه بينما كثيرون يرون فيه فعلاً أساسياً في تكوين رأسمال وتأمين للمستقبل؛ أو أيضاً، دعوة لإعادة رسم حياة وترتيبها وفق استرداد للذات و/أو العالم. يروق صديقي لحسن أن يكرر لرفيقه، وهو فقيه وعدول، أن حجّه هذا سيمنحه ترخيصاً «ليصير أشد شغفاً بكسب المال»، وكان الحضور يتذوّقون المزحة.

كل واحد إذن قد انصرف إلى اكتشاف حياته، في المسار الذي يفصلنا عن الموت. وبالتأكيد، فالحكايات الدائرة ـ سير حيوات في تطوّر ـ التي رافقت بعض فصولها، لها نهايات أسعد من حكايتي. ودون استباق الحكم بتماثل يكون إثباته باطلاً، فهذه النهايات تتكشف عن أنها شديدة الشيوع، رغم أن المكتسب منها يظل بحاجة إلى الدعم من فعل آتٍ. ورغم كل شيء، فما يبدو مكتسباً من هذه الروايات للحكاية، هو بالأحرى الأمل... لكن، حتى هناك، لم تُرفع كل إثارة، كما لم يُهزم الألم. الإيمان، أي إيمان الآخرين أيضاً، باعتبارهم أنواتٍ هاجرت من كل أنا إلى الآخرين وتطابقت معهم، الإيمان إذن يواجه نفسه، في تأويلات لا تفتأ تتجدد. سفن نوح تُصنع... والمسافرون الذين يركبونها يُجمعون على

وجهة. ويعلم الكل أن تلك كانت صورة أملٍ. لكن، في انتظار الوصول، تُخلق أشكالٌ من الحياة. والمسارات المتقاطعة للوجودات الفردية والجماعية تصير التجسيد الملموس، والدليل، والبشير بالنجاح.

في ما وراء الاختلاف الذي يفصل تجارب الحجاج الآخرين عن تجاربي، تُحرّك الإثارة، والحبكة، والأهواء، والآلام جميع الحيوات؛ وتجربتي والتجارب التي أصادفها تتحول إذن إلى علامة. إنها علاقة ينبغي فهمها بمعنى الحوار، والمساءلة، وسوء الفهم، والتصادم التي ليست ديناميانها ومعانيها دائماً - فذلك بعيد - في متناولنا. تصادمات تفضي - بالتأكيد - إلى خلافات مذهبية، وبنيات رمزية مشتركة، ولكن أيضاً إلى رهانات: موضوعات لنقاشات ونزاعات. تعود أيضاً شظايا لذاكرة قد صارت غريبة بعضها عن بعض في مرتجلات تقليدٍ. والمرجعيات التي نحاول منحها إيّاها تتحول بمقدار تثبيتنا لها. فتجد هنا قدراتنا على التأويل إنجازها وحدودها: في علامات تنتظر حكايات فردية لبنائها وإعادة بنائها في هويات. قدرات كائن هي قدرات إنجاز. أو، إذا شئنا، قدرات الدلالة، ومنح معنىً، قدرات لم تكن لديها القدرة حتى هذا الحين على تهيئة نفسها؛ وفي غياب تلك القدرة ليس بمقدور أي معنى أن يجتاز عتبة الوجود.

بعد أن أتممت الحج، حاولت بالطبع تحليله بوصفه ظاهرة دينية خاصة بمسلمين يعيشون في العالم المعاصر؛ أي عالم يكون فيه هؤلاء ودياناتهم على اتصال دائم، وعلى نطاق غير معهود حتى اليوم، مع غير المسلمين، ودياناتهم أو أنساق أفكارهم، ضمن سياق من التسويات والنزاعات بين أشكال الحياة، والإنتاج، والاستهلاك، الخ. ومعلوم أن هذه الأشكال العملية غير منفصلة عن صورها، وهذه الأخيرة غير منفصلة عن ممارسات وصور الذات والشخص؛ ولا عن تمفصلاتها بواسطة أنواع شتى من العلامات، من بينها علامات اللغة.

التمفصلات والترتيبات في لغة مهنتي بدت عسيرة. والجداول الشاملة حيث نرى جيداً روابط ظلت حتى ذلك الحين ضمنية (في الوصف الذي دونته في مذكراتي) بدت غير مثمرة. سرعان ما تصل إلى تنضيدات وتجميعات تحكمها ثنائيات مثل طقوسي/ عملي، روحي/ مادي، مقدس/ مدنس، إلخ، مع النتائج

المعتادة: إيجاد وسيلة للمصالحة بينها أو تخطيها في تركيب للإنساني الذي نصادر على كونه تداولياً، وعقلانياً، ورمزياً، ومتواصلاً؛ أو أيضاً التخلي عن هذه المصالحات للبحث في الخطاب الديني عن مبدأ «انضباطات» بمقدورها بناء ذاتياتٍ وترويض الرغبة لأجل أهداف النفع أو السلطة، سلطة الحكم وحق الشفعة في المفكر فيه واللامفكر. أو أخيراً، كوسيلة أخيرة، لا بد لي من الدفع بالإنساني إلى انفصاماته النهائية، التي قد تتيح لمح آثار بحث عن الأصل، بحث لن تحمل مواصلته سوى مزيد من الآثار. باختصار، سيأخذ الدين والشعائر مكانهما في زحمة الأدب المتكاثرة.

فالدّين إما يذوب في مقولات العقل والمعرفة، وإما يصير نسقاً تأويلياً وتأملياً يستجيب للمعضلات الوجودية، وللإحساسات التي هي في الأصل منها. وإما أيضاً سيكون عليّ تحليل أساطيره وطقوسه للعثور على منطق استبدالي وصوري وتشكيلهما في علامات ستمفصل اختلافاته قضايا عامة. وكل ذلك للتخفيف من، إن لم يكن حل، متناقضات: حياة/ فكر، ماض/ حاضر.

كففت منذ زمن طويل عن اعتبار العلامات والرموز في تكافؤات تعارضاتهما، حيث الدلالة تتأشر على النسق الاستبدالي، لمصلحة مقاربة تمنح الامتياز لتواليات الأفعال الشعائرية المتصورة ككلمات، وجمل، ونصوص تستدعي دائماً معناها بواسطة نوع من الانتظار الذي تظهره إزاء الكلمات، والجمل، والنصوص الآتية، مع رموز مركزية، وأخرى تابعة للأولى، وأخرى أيضاً وأخيراً تهيئ انتقالات، وتوقفات وغايات، وبإيجاز، تراكيب ورسائل، أي أسلوب. وفي هذه الرؤية للأشياء تحول الطقوس الذات بمنحها عالماً تسكنه، منزاحاً عن العالم الأمبريقي، والاجتماعي، والتداولي، ومن ثم منزاحاً أيضاً بالنظر إلى عالم العقلانية الواعية أو اللاواعية. لا لأنها تلغي هذه الأخيرة؛ بل بالأحرى بجعل نفسها في موقع استردادات وانزياحات بالنسبة إلى تلك العوالم، ملوِّنة بذلك الحياة والفعل.

لا حاجة إلى القول إن هذه الأساليب هي أيضاً اتخاذٌ لمواقف، بالضبط لأنها تنطوي على بحث عن تجميع كلي. ولأن الأسلوب لا يفتأ يتحقق وأن كل تحقق يبلغ حدود اللامتحقق، باعتباره امتداده الافتراضي، فهو يعترض

على ذاته ويُعترض عليه لهذا السبب نفسه. والأساليب هي اتخاذٌ لمواقف أيضاً لأنها تبحث عن نفسها في ظرفية التعارضات وأشكال الهيمنة الاجتماعية والسياسية. ومن ثم فإنها تتحول إلى أفعال إرادة وسلطة، ليس فقط بمعنى «أنا أستطيع» التي لا يمكن إخضاعها لـ«أنا أفكر». إن محايثة العالم لـ«أنا أستطيع» هذه هي درسٌ تعلمنا إياه الظاهراتية. الانطلاق الجديد لهذه الانعكاسية، رغم أشكال الصمت التي تحيط به اليوم، لا شيء يمنع من الاستمرار به في ديناميات لأشكال السلطة. فضلاً عن أن العودة إلى «الأشياء نفسها» لا يمكن إلا أن تزحزح زاوية الوعي العمياء إن لم يمكنها محاصرتها. وأنه في غياب استرداد هذه الزاوية، يبدو على الأقل من الممكن تتبع آثارها من جديد؛ واستبانة حقيقة معينة عن العوالم التي ترسمها. وباختصار، تلقّي هذه العوالم باعتبارها تاريخاً لنا. وبذلك قد نقبل ما يحدث فينا وبواسطتنا . بدوننا . واجدين فيه خاتمة ممكنة تقوم في المقابل، بإعادة قطع المسار بالمعكوس، كأننا نتتبع آثاراً لنصعد مجرى فعل ماض.

بهذه الطريقة، أعترف بأن الرموز لا تخدم بناءات لأنظمة فحسب، وإنما تصدر كذلك أوامر، وأننا نولد ونكوّن ذاتنا تحت أوامرها وسلطتها. وأنّ هذه الوامر تتيح وتقيم تراتبية للأدوار الطقوسية التي هي أيضاً، وهذا واضح، أدوارٌ اجتماعية. هل هذا يستبعد الرمزية والتأويل لمصلحة ممارسات استراتيجية، و«تقنيات» وقواعد للجسد وللذات مشتقة من «خطاب» عن الفضائل وداعمة له؟ هذا النوع من المقاربة قد يُقصي من التفكير حول الحج ما يجعل بالضبط من هذا الأخير صيغة للفعل، والحياة، والتبادل فريدة تماماً: إعادة تحويل لسير الحياة وفق الرموز والأوامر التي تصدرها تلك الرموز إلى الحيوات البشرية. تتجلى الرموز وتأويلاتها وتتوالى وفق صيغ وضمن حقول تكون منطقياتها متمايزة تاريخياً، مترابطة بروابط التأويل والتوتر (مثلاً، بين الحقل الإسلامي، والمسيحي، واليهودي، والهندي، والكونفوشيوسي، والحقول العلمانية/ المسيحية، التي قد نسميها دون شك بطريقة أدقّ باسم الحقل المسيحي . العلماني منذ عدة قرون في أوروبا، وأميركا وغيرها .، إلخ). إقصاء هذه الحقول لمصلحة إنتاج شديد الغموض

للأنا يعني أن نُسقط على المسلمين خطاباً للسلطة الأكاديمية.

وبالفعل، فالأنوات، أو كما هو شائع اليوم، الذاتيات هي نتاجٌ لبناءات يمكن العثور على مبدأها في التربية ورهانات ترويضاتها، أو في المعارف المرتبطة بالقدرات من حيث أنها تضع معالم لحدود ما يمكن التفكير فيه وما يمكن فعله. غير أن إعادات التشكيل التحليلية هذه، وكذا إعادات بنائها، إذا كانت توسع جيداً تشكيلة الحيوات التي بمقدورنا أن نريدها لأنفسنا، ربما قد ينقصها ما هو الأكثر شيوعاً وإثارة للحيرة في وجودنا في الآن ذاته: واقع أنه بعد انقضاء الأمر، وبعد أن يسلك ذلك الوجود مجرى لم يكن متوقعاً بتاتاً، ولا حتى ممكن التوقع، قد يبدو هذا الأخير مع ذلك خاتمة ممكنة للمسار السالف.

فلا عجب أن تتيح الممارسة الشعائرية، بفرط التكرار، والإنذار، وإيقاعات وممارسات مكانية وزمانية، وبَنينة للجسد بواسطة الحلال والحرام (في المواد الداخلة للجسد، وفي الاستعمالات الأخرى له، وفي الألوان واللباس)، تصنيفاً معمماً للأشياء، ولكل كائنات الكون وللآخرين، وأن كل هذه المظاهر تفضي إلى بلورة أساليب حياة وأشخاص يمكن التعرف إليها. وبهذه الصفة، لا شيء يميز المسلمين عن غيرهم. وعلى أي حال، فهي مسألة اختلافات تتعلق بهوية تريد التميز لتنجح في هذا العالم وفي العالم الآخر، وهو ما تصادر عليه الأديان. هذه الأساليب «تفكر» ذاتها ويترای بعضها من خلال البعض الآخر والبعض بالنسبة إلى البعض الآخر. والحج، من زاوية النظر هذه، يكرر ويعيد تأكيد اختلاف المسلمين عن غير المسلمين. فبواسطته يمنح هؤلاء لأنفسهم القدرة على إظهار قوة واندماج في العالم المعاصر مع «غيابهم» عن الهيمنة على القوى التي تتحكم، بواسطة القوة العسكرية، في تداول المواد الخام، والعمل، والتكنولوجيا، والبضاعة، والأفكار والصور. ولحظة قيامي بالحج، واجهنا تضخم دولنا (يضاعف من ذلك نزاعاتها وعجزها)، والتدمير الشديد للأشكال والمعايير الوطنية في عهد ما بعد الاستعمار، والتنامي في القوة غير المسبوق في بعض الأمم . الولايات المتحدة وإسرائيل على الخصوص . لتيارات متطرفة ترى في تلك القوة نفسها علامة اصطفاء إلهي للمثل الأعلى الإنساني،

ولقيادة العالم . وبالمقام الأول في الشرق الأوسط. هذه اللاهوتيات الطبيعية الجديدة تشبه أشكال الغزو والهيمنة التي قدم لنا التاريخ والتجربة الاستعمارية أمثلة منها. وفضلاً عن ذلك، فإن غزواً من عصر قد مضى واستيطاناً مقروناً بتطهير عرقي قد بدأ ويتواصل حقاً ضد الشعب الفسلطيني، في اللحظة ذاتها التي اعتقدت فيها شعوبنا أنها ستتحرر أخيراً. هذه اللاهوتيات الطبيعية، التي تقدم نفسها في كل مناسبة بوصفها تاريخاً للنوع البشري وتاريخاً للديموقراطية تصدم مباشرة إرادة المسلمين وقدرتهم على أن يؤسسوا لأنفسهم أشكال حياة خاصة بهم. ومثل كل اللاهوتيات الطبيعية، فهذه تدعي العلم بكل شيء: تحديد المستقبل مسبقاً ومعنى أساليب الحياة. كانت الردود، بين الحجاج، على هذا الادّعاء متقلبة، رغم أنها في معظمها معادية أو متحفظة: من الاشتغال على الذات للحفاظ على طريق خاصة، بتقبّل هذا المحيط الجديد، حتى الحوار، أو المعارضة، أو الصراع العنيف بواسطة الأفكار المسكوكة في انتظار السلاح، ولا بقدرتها، الأشد فتكاً، على إبادة الجيوش والمدنيين المسلمين.

بالنسبة إلى غالبية من الحجاج (الذين شاركتهم في حياتهم أو تحادثت معهم)، ما عشناه وجرى أمام أعيننا ليس فقط تاريخاً سياسياً للمسلمين وللعالم. إنه لعنة، لكنها ليست مجرد لعنة تاريخية، لأن ذلك يهددهم بفقدان وشيك للخلاص. وبعبارة أخرى، ليس إنقاذ مستقبل حياتنا، بالنسبة إليهم كما بالنسبة إليّ، إنقاذ مستقبل حضارة فحسب، بل هو إنقاذ الذات مع تلافي أن يكون السقوط سقوطاً بلا عودة.

عند هذه النقطة أحس نفسي معنياً، لسببين: أولاً لأن الأخطار التي يستشعرها رفقائي كتهديد لمسارهم، كنت أتبيّنها، ولأن بمقدوري تقمص حيواتهم باعتبارها حيوات ممكنة ومرغوبة. ثمّ علاوة على صعوبة العثور على الخلاص بالنسبة إليّ، فقد اكتشفت بحدة مضاعفة صعوبة تأمين استمرارية للحضارة في ما وراء الأشكال الطقوسية التي أعطت منذ زمن طويل للطوائف الإسلامية الثقة بمستقبلها. بدا لي بغتة أن موتها سيشهد على جهد، وأن هذا الجهد سيبقى حياً في الحيوات الإسلامية، وأنه سينتهي ربما بالتمخّض عن إبداعات جديدة وقوية؛ وأنّ هذه ربما ستنقذ الأجيال الآتية من استبداد الفكر

الأحادي: ذلك الذي يعلن نهاية التاريخ مع شكل خاص من الحياة الديمقراطية وممارسات للأنا والعالم، وكذا الذي يدّعي حصر الحياة الإسلامية في شكل وحيد للأمة، تفرضه سلطات تستأثر بحق التأويل.

لكن إذا كانت هذه الحيوات، التي يقطعها ويمددها لحظة بشكل متناقض، طقس العبور الهائل هذا الذي يضع الحياة العادية بين قوسين، تجمع بين القوة وامتياز هذه الشهادة، فأي شيء بمقدور حياتي أن تكون شاهدة عليه؟ ذلك هو السؤال الرئيسي الذي ناوب وواصل الأسئلة التي طرحتها على نفسي قبل ذهابي إلى مكان ولادة الإسلام. بحيث صار واضحاً أكثر فأكثر بالنسبة إليّ أن مسألة الموت هذه وشهادتها تشكل الموضوع حيث الدين والأنثروبولوجيا يمكن أن يتلاقيا، إذا ما قبلت الثانية معالجة الأول دون خلطه بلغاتها الخاصة، وخصوصاً إذا ما تم القبول بأن الحج يمنح اللغات السياسية ومنهجة الحيوات البشرية حدّتها، بسبب هذا التلاقي لا العكس.

يُسرّع الحج هذا التلاقي باستعجال نادراً ما يبلغ هذه الدرجة في الممارسات الطقوسية الأخرى لشعائر الإسلام؛ فضلاً عن أنه يجمعها كلها أو مقابلاتها: الصلوات، الأدعية، الذبائح، التشهدات، الصدقات، أنواع الإمساك القريبة من الصوم، وكذا بالطبع أشكال الطهارة المفروضة. والإلحاح على النية، والإيقاعات، والتوقفات، والإحساس العام بقطيعة تتجاور مع عادات الحياة اليومية وتتعارض معها. جميع هذه الشعائر تتحق في تباين مع التقاليد الدينية الأخرى، وفي تصادٍ معها. وأكثر من ذلك، فالعادات اليومية والتقيد بالشعائر الإسلامية وغير الإسلامية لا يحرك بعضها بعضاً فحسب، بل تتجلى حقاً في تواطؤات وتباينات: ومن ثمّ الجدالات، والردود، والاتهامات، والتأويلات، والضغوط، وديناميات الإقناع والحرب...

في هذه التقاطعات، يرصد الباحث الأنثروبولوجي نفسه لحياة الآخرين؛ يحياها بصيغة التعرف، وفي الآن ذاته، يصادفها في ما هي به غريبة عنه. ورغم كل شيء وبالقدر الذي تواصل فيه تقليداً، يصادفها كأنها حياته السالفة. لم تكن، بالأشكال التي اتخذتها، أدنى حظاً في التمخض عن مستقبل من الحياة التي يحاول تجسيدها بخياراته الخاصة، أو أيضاً الحيوات التي تصوغ

صورتها التقاليد المدروسة، الماضية أو المعاصرة أو الآتية. ولما كانت النجاحات المستقبلة لتلك الأشكال متعلقة بعنصر لا يمكن توقعه، فأي شيء يدعي موت الباحث الأنثروبولوجي الشهادة عليه، إن كان هو عاجزاً عن شهادة الحجاج الآخرين نفسها؟ كيف تبرير تلقّي حياة الآخرين بصيغة التعرّف، والمراهنة مع ذلك على مستقبلٍ لأشكال من الوجود منفصلة عن الطاقة الطقوسية التي تصدّرت ولادتها؟

الحجّ، الشعيرة الفردية بحجم الكوكب الأرضي، كما قلت، يقودني إلى تقاطع آخر. فبينما اعتقدت بالقدرة على إنجازه كباحث أنثروبولوجي، كان علي تلقّيه كحدث ممتلئ باللامتوقع يقتحم حياتي. هكذا انفتح ورش جديد، يسوقني للبحث عن وسيلة لإعادة خلق ذاتي بوصفي باحثاً أنثروبولوجياً يعمل في أفق التقليد الإسلامي، على غرار زملائي في العالم، مهما قالوا عن هذا، الذين يواصلون تقليب وإعادة تقليب الأسئلة التي أثارها أسلافهم. مخاطر المشروع واضحة بسبب أشكال العنف القصوى التي تثيرها الهويات التي تطمح إلى لعب إنكار انقساماتها الحميمة؛ بسبب أشكال العنف القصوى التي تثيرها الهويا التي تطمح غلى لعب إنكار انقساماتها الحميمة؛ بسبب أشكال الضجر والانتهاز التي تتيح لأنواع العنف هذه أن تتكاثر في رفاه «المحكيات الصغيرة» الإنجازية. وفي مواجهة هذه الأخطار، ليس سوى الحرية الخلاقة والثقة بها للاستمرار في البصمات التي خلّفتها. بعذ هذه البصمات يمكن قراءتها دائماً في هذا الخلق النوعي الذي هو الإسلام بوصفه ثقافة، وحضارة، وتاريخاً، كما قد تقرأ في تقاليد أخرى. بحيث صار من المستعجل الإمساك بهذا التاريخ، واستعادة اندفاعاته للتشكيل، من حيث هو إرادة تحكمت في مصادفات.

هكذا أحسست نفسي مبرراً في خياراتي، وفي رهاناتي. فهي تستند إلى أسباب مستمدة من الماضي ليست . إن كان ذلك في حاجة إلى التذكير . سوى وعي بالتاريخ. وعي دائري: سببٌ ومسبَّبٌ في الوقت ذاته، فهو يصنع من الماضي نوعاً من الحقيقة. وهذا الصنيع هو عودة تجد في القديم شيئاً من الجديد، لا تتجلى جدته مع ذلك إلا في جدة المشروع ذاته؛ أحدهما يغطي الآخر دون الامتزاج به. والواقع أن الأمر يتعلق بقطيعة لا بتلاقٍ جديد مع

حس تاريخي موجود دائماً كبذرة.

وإذ بلغت هذه النقطة من الحكاية، حيث شغلت دوري الراوي والبطل، أتمنى أن يكون هذا المنعطف قد أوضح للقارئ ولنفسي بعضاً من المواضيع التي جعلت من المحتوم اتخاذ موقف مبهظ. وبالفعل، بعد انتهاء حجي، لم تعد لي الشجاعة ولا الرغبة في الكتابة كما كنت أكتب من قبل. كان بعض المهارة لا يزال موجوداً دائماً، لكن تنقصه الرغبة والإيمان. قاومت طويلاً قصة تعاودني بدون توقف، وتطالب بإلحاح أن تُكتب. صحيحٌ أنني اعتقدت دائماً أنه من الوهم التخلص من السردية في أشكال وصفنا وتحليلاتنا، وأكثر من ذلك في الجهد اليومي المتمثل بالنسبة إلى كل واحد منا في أن يضم في مجموع حياته الخاصة . ما كان وما سيأتي .، والإحاطة بها في نظرة واحدة، وحركة شاملة للفحص (استرجاع واستباق بالقدر نفسه). إن الحكاية، من حيث هي طريقة فريدة للقول الصائب، ولأنها تفرض على نفسها إكراهات خاصة كما قد قيل عنها بحق، تتيح تشييدات رمزية هي أيضاً بالقدر نفسه تشكيلاتٌ للذات وللآخرين، وللذات عبر الآخرين، في دينامية ذات ثلاث مراحل تقوم بتكثيف الحيوات البشرية التي بدأت نحو تطوراتها ونهاياتها. وفي كل مرحلة، تفسر هذه التشييدات نفسها بواسطة المرحلة السالفة، مانحة إياها معنى ومستبقة ما سيأتي. والتتابع والاستباق اللذان بواسطة تلاقيهما تنعقد حبكة هما حقاً ما يُبقي على توتر مجرى حياة تعرف أنها دوماً متناهية.

فهل لهذه التتابعات، وهذه الاستباقات، وهذه الحبكات على أفق التناهي، مزيّة ما، دينية أو غيرها، قادرة على توحيد اتجاه شهادة ثقة خالصة في أشكال الحياة التي خلقها الإسلام مع الشهادات التي يحركها حافز الخلاص بعد الموت؟

أكيدٌ أن هذين الأملين اللذين يسكنان هذين الموقفين ليسا متطابقين. غير أنه لا يمكن استبعاد أن بإمكانهما أن يتلاقيا في ممكنات حضارة يكون ذلك وعداً منها بالتجديد. ومن هذه الزاوية، تتكشف الحكاية عن تزايد قدرتها على قصد الحج والحجاج، بشغفها بالتفاصيل، والحوار، والمساءلة، بل التحدي. واللوحة التي تمتلئ من مرحلة إلى مرحلة تتشكل في لوحة حية، تتوجه نحو

رؤى نظرية وتخطيطات مستأنفة، متلافية أن تختزل النساء والرجال وأفعالهم إلى عمومية النوعي.

الحكاية المروية هنا، كما هو مفهوم، صادرة عن تحول لا يمتلك منه البطل والراوي ـ بسبب هذا التحول نفسه ـ لا البداية ولا النهاية. وبالمقابل، فالمؤلف الذي يكتبها يحاول نهاية لها. وعزاؤه الوحيد، وهذا ليس نهاية سعيدة على طريقة هوليود، هو أن تبسط الحكاية القصة وتمظهرها كقصة وجود ممكن. فالكتابة، باستقرارها عند هذه العتبة، تتكفل بوظيفة دعاء يستدعي هذا الممكن إلى الكينونة، وإذا ما تطاول الزمن، تعزيمة سحرية تلوّح بعلامات نحو المجهول لتنذره بأن يبعث بعلامة.

أكيد أنه من غير اللائق محاولة إخفاء قرابة هذه الحكاية مع الحكاية اللاهوتية التي تلتفت نحوها مع ذلك، متكفلة بوضع وحده الانفصال يجعله ممكناً. قرابة تقليد ومسافته: لحظة من الحداد وإذن من الذكرى كذلك. فيكون الحج، وقصة إبراهيم، وحبكة الذبيحة، والإثارة وخاتمتها، قد مارست على حكايتي حقوقاً أبوية. ولهذا السبب تزيد تلك الحكاية أن تسوق إلى حداد تلك الحقوق بأمل الاحتفاظ منها بذاكرة. ذاكرة الفعل الديني الذي يعلو عليها، ويعلو دائماً على القوانين في سواد وبياض الطواف حول الكعبة: مع التضاد الصارخ للخصب، وللحياة (اللون الأسود للحجر الأسود الشهير يرتبط صراحة، في بعض الروايات، بالمرأة والحيض) ومن جهة أخرى للأبيض، فرح التناهي وحياة تنساح في ما وراء الجسد ـ الأنا. ذاكرة إذن لعلاقة يذهب بها الزمن دوماً، ولا يمكنها الثبات إلا مؤقتاً في الفضاءات حيث يتثبّت القانون ويتطبّق. ذاكرة حدادِ الحياة، في عرفة، والنهاية بواسطة البعث، مع الهروب المؤقت والبحث عن عربون حياة عند الاقتراب من المشهد الجنائزي. فرح خلاص بعد النجاح المزدوج لهذا الهروب والرجم الظافر للشيطان. ذاكرة المرأة، الأم، هاجر، وسعيها لإنقاذ وتأسيس الابن، وتأسيس الأب أيضاً لأننا ننسى دائماً أن الأب لا اسم له دون نسل. ذاكرة حدّين في تواطؤ ونزاع، تكون تجاذباتهما بعيدة عن أن تترجم الذنب وحده، المتستر، لرغبة الابن في قتل الأب. ذاكرة مشهد حيث كل الحدود غير قارة

ويستبق بعضها بعضاً. ذاكرة هذا الأب نفسه المنطلق في الطرق الملتبسة لاستيضاح قانونه. لأن هذا الأب كما نذكر، قد عرف كيف يصنع حداده بقبوله تضحية الابن ومنفاه إلى أماكن تبدو في الظاهر غير مميزة وعدائية. هناك حيث القصص تتمفصل، وحيث الحبكات تتلاقى في حبكة واحدة، ستكتب دون شك حكايات آتية. ذلك أنه رغم البنيات، والجماعات، والقوانين، ستعثر الحكاية ربما على «تطورها الخلاق». وستنبثق تشكيلات سردية جديدة، سترسم، حدود ما كان قد أبدع مغيّرة إياها. مجريات للقصة، مثل كل نهاية، ستظهر بعد فوات الأوان منطق الفعل والنتائج اللامتوقعة لمقدمات مألوفة. الإثارات والمفاجآت تعقد وتشبك أفعال حكاية إبراهيم في حبكة خارقة. ومعناها، الذي تدل عليه النهاية، يرد على خطأ في التأويل كان دائماً حاضراً، والذي مع ذلك لم يتقرّر إلا بفك الحبكة، لأنّ هذه المعنى قد ظل، حتى ختام القصة، مستعصياً على وعي البطل. إن صوتاً سامياً هو الذي يكشف له في نهاية المسار أنه قد صدق الرؤيا، وأنه قد اعتبر رؤيا الأمر أمراً حقيقاً. هذا التفاوت الذي يسكن كل تأويل يدس اللايقين في المعرفة ويحيل كل ذات على إرادتها، وعلى عوالمها الممكنة من حيث هي «إرادة وتمثّل».

الحج يُحيلنا على إرادتنا في أن نكون، في ما وراء العوالم التي نثابر، في اختلافاتنا ـ اختلافات العرق، والطبقة، والأمة، والجنس ـ، على استيلادها من ماضينا، واستدعاء مجيئها. إن قصّته، قصصه، عديدة، تستحوذ على حيواتنا. وتجعلنا نستعيد القصص القرآنية التي تروي ماضينا وتستبق فك الحبكات. كل واحد، في هذه التدرجات المتكررة، والتي تتشعب في اتجاهات متعددة، ينشغل بالبحث عن كينونته لتأكيد رهان ما عن ذاته، وإبرازه للوجود. إن التكرار وإعادة الكتابة اللانهائية للحكاية. وهما موجودان في الممارسة الشعائرية، ولا اختلاف، من زاوية النظر هذه، بين الحكاية والأسطورة. يلتفتان نحو هذا الماضي حيث كنا دون أن نكون أبداً حاضرين فيه. زمنٌ ميت لحيواتنا، زمن الموت في حيواتنا. زمنٌ كنا فيه بينما نحن ننتظره دائماً في الأفق المتناهي لسير حياتنا. جميع هذه الحكايات، بما فيها حكايتي، ترجع إلى مواقع العوالم السالفة والآتية، في العالم الذي يلهمها ويتخطاها، متحققة

فيه، دونِ أمل في بلوغ تخومه.

الحج يستقبل، في تسلسل نمطي من ثلاث مراحل، قصة حياتنا التي تُنسج فصولها وفق حبكة محمّلة بنهايتها. وتهب المرحلة النهائية نفسها بحسب كل الملابسات، فيما هي تقاوم حل رموزها. تعرض حكاية إبراهيم تأويلاً يتجلى كنهاية سعيدة. ولا شك أن غالبية الذين صادفتهم في الأماكن المقدسة يحاولون أن يجعلوا من حياتهم قصة مماثلة لقصة هاجر، وإبراهيم، وإسماعيل... أحداث العالم والملابسات التاريخية . سياسات الحج، تحوله إلى منتوج وسلعة، تحولاته إلى طقوس وأشكال من صراع القوى، ولجسد اجتماعي وسياسي متمايز جذرياً في الجسد وبواسطته .، كل واحد يدركها في حقيقتها: مصائب ومحن تحولها نهاية سعيدة إلى عوائق ضرورية، وبسبب ذلك مشاركة في قداسة اللحظة. تكافؤها مزدوجٌ ووجهها الآخر هو الوجه المنتظر منه ومِيضٌ في العالم نفسه، تحت التغطيات بواسطة الإرجاءات والإثارات... إنه ارتياب يتضمن ويجذّر الأمل في أن المماثلة مع الحكاية القرآنية ستتأكد، وأن حياة وموت كل واحد سيكونان مماثلين لحياة وموت إسماعيل: معجزة وبعث. باختصار، أصلٌ ونسب يتجليان في نهاية القصة ويبرهنان على أنها كانت هنا، وأننا مثل علامة في الزمن الذي كان دائماً كينونتنا: كائنات في تفاوت أشكال الوجود.

بالنسبة إلى الحيوات المشابهة لحياتي، تفرض نفسها حكاية أخرى، مماثلة لتلك ومع ذلك مختلفة. ليس ضرورياً أن تكون مكتوبة أو، على أي حال، أن تكون مكتوبة بهذه الطريقة. لكن كان لازماً أن توجد هذه الحكاية، بوصفها سبيلاً سردياً ممكناً. ذلك أنه بالنسبة إلى هذه الحيوات أيضاً، لم تكن العودة والانقلاب نحو العلامة التي تتعلمها باتباع الممارسة الطقوسية تلقي بها في حل رموز دون ضمان فحسب. فتلك العودة تحكم عليها بأن تكرر، حتى الممات، حكاية الآتي إليها. تلك هي، منذئذٍ، الطريقة الوحيدة لتلقيها، وجمع أحداثها في حبكات قصص قد تتوجه نحو ذاكرة. طقوس جنائزية، وشهادات على إرادة للحياة قد تفلت من محتومية التاريخ؛ وقد تتغلغل إلى ما قد مضى لتذيب الحتميات.

إن التوازي بين هذا المسار ومسار الحج في منتهى الوضوح. لكن نمطي الحكاية اللذين يحرّكان ويكرّسان تحولاً لا ينجزان مجرد انتقال من الطبيعة إلى الثقافة أو تأويلاً لهذه الأخيرة. ذلك أن الحج يغادر الزمن العادي، ويعرض تقطيعه الخاص الذي يخلط ذلك الزمن ويربط استعجالاته بتوالي النهار والليل؛ بما هو بالنسبة إلى الإدراك البشري مجرى الشمس. فالحج لا يستعجل، لكن بهذا القلق المشتغل دائماً في تقطيعه الذي يتجاوزنا، يربط هم الزمن هذا كينونتنا بزمن سابق على الوعي بالزمن. وإذا ما شئنا الاحتفاظ بكلمات التأويل أو كلمات الثنائية والاختلاف، فلا بد من تجميعها، وإزاحتها عن مركزها. وبذلك يبدو شيء، يكون قد تدخل قبل التأويل، يتقدم في ما بعد حل للرموز لا يمكن إنهاؤه لأنه يتطلب مواقف واتخاذ مواقف؛ شيءٌ، من زاوية النظر هذه، يمتزج بالدين بقدر ما يبدو هذا الخير دائماً متعالياً بالنسبة إلى الحياة التي خلقته. ومهما رأينا في هذا تعالياً أو، على العكس، ترياقاً لشقاء التاريخ، أو إيديولوجيا، أو خداعاً، أو محافظة أو، على العكس، تمرداً وسلطة مضادة للهيمنة من أجل بناء الذات بالنسبة إلى أنساق مهيمنة، فإن الشعائر والدين يستعيدان مسافة ليعيدا الظهور في الأعلى.

بهذا الارتباط، فالحج ـ وهو الحكاية الشعائرية ـ، مثل الحكاية التي أسير بها الان نحو مرحلتها الأخيرة، والتي تبدو مستعصية على الاختتام، هي قصة أسرة. كلتاهما ترسمان انتسابات ومعالم. نتذكر إبراهيم داعياً الله ليهبه ابناً يجعل منه أباً ويجعل من زوجته، من زوجتيه (الحرة والجارية) والدتين، ومن المجموع أسرة.إنه تأسيس، أصلٌ في قصة بدون أصل. مؤسسة ستتيح لهم أن يسكنوا هناك، حيث الإنساني قد نزل قديماً، نتيجة سقوط. قصة أسرة بتوتراتها وغيراتها التي طردت إلى الصحراء هاجر وابنها البكر الذي طال تأميله. مع التتمة المعروفة جداً من الصبر وإرادة الحياة، وأمل هاجر، المرأة الطريدة، التي ستنقذ ابنها وتؤمّن استمرار سلالته... قدرة الحياة التي تتفجر في المكعب المكسو بالسواد والذهب، مشتملاً على الحجر المسود بالتماس مع القوى غير المنفصلة عن التحول ـ التلوث وعن الإخصاب. والحال، كما تقول القصة، أن بناء الكعبة هو إعادة تأسيس لبيت الله الذي جعل من

الأرض مسكناً، بعد اجتماع أسرة هاجر، وإسماعيل، وإبراهيم (على أي حال هذه الأسرة وفق الرواية الإسلامية). عودة الأب بعد أن أنقذت الأم الابن، الذي صار رغبة هاجر بعد أن كان طلباً وهبة. عودة للأب بفضل عمل الأم التي حولت إسماعيل إلى رجل، بالغة به إلى الحد، إلى الأقنوم الذي كان الأب أيضاً اسمه ومحطته.

الممارسة الشعائرية والدين يؤولان جيداً هذا الحد، هذا البلوغ للأقنوم الذي هو الحد، الموضوع بطريقة جلية في الذبيحة وبواسطتها. لكن كل قصة الأسرة هذه تحمل مع انبساطها (كما في نوع من النسخة المطابقة) ما لم يقدم عنه الانتساب سوى سبيل وهمي، أي باختصار، لا أكثر ولا أقل من فرضية شكل للحياة. إنها تحول الخصب والإنجاب إلى إعادة إنتاج منتظمة وتُدرج الهبة كمؤسس لانتساب أريد له أن يكون أبويّ النسب، مغفلاً واقع أن الله قد وهب اسماعيل لهاجر أيضاً، وأن هذه ستظهر، أكثر من الشخصيات الأخرى، في مستوى المسؤولية التي جاءت مع الابن. والكل في دراما الاستئناف، التي أعادت، ما حدث من قبل بعدما حولته. تحويلات للطاقة بين امرأة ورجل منحدرٌ أحدهما من الآخر...؟ أو زمناً من قبل، زمن مشهد أول مضاجعة، وقبل ذلك دون شك... زمنٌ ظلت ذكراه محفوظة في حين لم نكن قد ولدنا فيه بعد، في حين أننا لم نغادره بما يكفي لكي نلتفت نحوه. إذا كان ذلك كذلك، فكل قصة أسرة، بما فيها تلك التي ابتكرها فرويد دون الاهتمام كثيراً في الظاهر بتلك التي شكلتها سارة، وهاجر، وإسماعيل، وإسحق، وإبراهيم (ومهما كانت تأويلاتها، وأخطار الأمراض والانغلاقات التامة على الذات)، تفقد وضع السابقة ومزاعمها الوهمية للتأويل الأول والأخير. إن قصّة أسرة هاجر وإبراهيم، على غرار الأخريات، تستمر إذن. ومثل كل قصص الأسرة، فهي كفيلة بإنجاب فروع وانقلابات تجعلها تغادر حقولها المألوفة. ومن الممكن أن تنبثق ذات يوم قصة جديدة لهاجر، تواصل بذلك هجرتها وهجرة اسمها، التي ستعيد فيها الانقسامات المتأسسة بين إرادة الحياة والحراسة الذكورية التي تسهر على الأقانيم، تشكيل حبكات مستجدة ونهايات لا متوقعة. هاجر.. وتستمرّ الحكاية.

«عندما انطلقتُ باتجاه مكّة، لم أكن أعرف ما يمكن أن تؤول إليه رحلتي».

يروي عبد الله حمودي في قصّة مؤثرة رحلة حجٍّ إلى مكّة قام بها عام ١٩٩٩. خطوة بخطوة، يدخل القارئ بدوره إلى الأماكن المقدّسة، المدينة ومكة والصفا والمروة وعرفة... حيث الطقوس – من الطواف حول الكعبة والتأمّل والصلاة في عرفة إلى الرجم... – تقوده عين الحاج والأنثروبولوجي في آن واحد.

قبل الوصول إلى المملكة العربية السعودية، وفي إطار التحضير، يتكوّن البعد الاقتصادي لهذه المغامرة: يقع الإيمان نفسه في تيارات التجارة...

ومن خلال شهادته هذه، يقترح عبد الله حمودي تصوّراً جديداً لمعنى الحجّ؛ فهو ليس مجرد طقوس متتابعة، بل كذلك تعلّمُ شكلٍ جديد من أشكال الحياة اليومية، وترويض فكرة الاختلاط بالآخر، واستكشاف الأسواق.

عبد الله حمودي أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة برنستون في الولايات المتحدة. كان مديراً لمعهد الدراسات الإقليمية في الجامعة نفسها. من مؤلّفاته La Victime et ses masques، و Master and Disciple: The Cultural and Foundation of Morocan Authoritarianism.

ISBN 978-1-85516-552-6
9 781855 165526

$ 12.00

DAR AL SAQI
دار الساقي